سلسلة التواريخ والرحلات
٤

الرَّوضة الغنَّاء
في
دمشق الفيحاء

تأليف
نعمان قساطلي

دار الرائد العربي
بيروت • لبنان
ص.ب. ٦٥٨٥

الطبعة الاولى
١٢٩٩هـ = ١٨٧٩م

الطبعة الثانية
١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م

فاتحة الكتاب

حمداً لمن جعل الارض للانسان سكناً . واولاهُ ان يعمّرها منازلَ ومُدُناً . فاصبحت مدائنهُ على سطحها كالنجوم الزهر في القبّة الزرقاء . والازهار النضيرة في الروضة الغنّاء . حمداً تضوع اريجهُ فعطر الاكوان . وحملتهُ نسمات التسبيح الى العقول فصاح لسان حال الكل سبحان سبحان

اما بعدُ فيقول العبد الفقير نعمان بن عبده بن يوسف القساطلي الدمشقي انهُ لمّا كانت دمشق اقدم مدينة لم ينخفض قدرها الى الآن ولم ينحط عمرانها مع ما انتابها من تقلبات الزمان ممّا دلّ على عناية صمدانيّة اوجبت لها التفضيل على غيرها من المدائن انتدبتني علائقي الوطنيّة ان افحص عن اخبارها وكلما كنتُ استقري ما قيل في حقها في صُحُف الاخبار والتاريخ كنتُ استغرب ما يقال فيها اذ كان بعضهُ ايجازاً مخلاً وبعضهُ في بعضها اطناباً مملاً فزادني ذلك ترسّلاً للاستقصاء وحملني على ان اتتبع ما قيل فيها وما يقال بتدقيق يستلزمهُ حسن الدليل ولمّا كان كثيرون يتمنون ان يقفوا على ملخص اخبارها وآثارها ومشتملاتها وليس لهم مورد لذلك يروي الغليل تجشمتُ كل المصاعب لتلخيص ما جاء في حقها في كتابٍ يشفع لي عند ذوي العرفان فتم بحولهِ تعالى لي المراد وجاء بايجازٍ يقتضيهِ المقام وقد سمّيتهُ بالروضة الغنّاء في دمشق الفيحاء وما انا في ما اوردتهُ فيهِ بمعتقدٍ كمالي ولا معتصمٍ من إخلالي على اني بجسارة اقول انهُ حوى زبدة اقوال الرواة العدول دون عدول يجيء بهِ تعصّب دِيني او ميل غرضي وقد جعلتهُ خدمةً لوطني العزيز ملتمساً من ذوي الانتقاد العفو عن القصور والتقصير . متوسلاً اليهِ تعالى ان ينفع بهِ قارئيهِ فانهُ اكرم مسؤول وخير مأمول وهو حسبي واليهِ انيب

المقدّمة

في جغرافية الشام

الشام . بلاد واقعة بين ٣٠′ ٣٤° و٣٠′ ٣٧° من الطول الشرقي و١′ ٣١° و٣٠′ ٣٤° من العرض الشمالي وقد سماها الاقدمون سوريا وقسموها الى قسمين الاوّل سوريا والثاني فلسطين واما الرومانيون فسموا القسمين معًا سوريا ولما استولى العرب المسلمون على هذه البلاد في نحو سنة ست مئة واربعة وثلاثين مسيحية الموافقة سنة ٤ هجرية سموها شامًا وذكر علماؤهم اسبابًا كثيرة لتسميتها بذلك نورد بعضها : قال الحافظ السهيلي في كتابهِ التعريف والاعلام : الشام بالسريانية الطيب سُمِّيَت بذلك لطيبها وخصبها وقيل سمّيت بسام بن نوح واسمهُ بالسريانية والعبرانية شام وقيل سمّيت شامًا لانها عن شمال الكعبة كما سمّيت اليمن يمنًا لانها عن يمينها وقال صاحب القاموس سمّيت بذلك لان قومًا من بني كنعان تشاءموا اليها اي تياسروا وقيل لان ارضها شامات بيضٌ وحمرٌ وسودٌ الى غير ذلك من الآراء والشام مُؤنّثة وقد تُذكَّر وفيها لغاتٌ الشام والشّأْم والشآم

وقد قسم بعضهم الشام الى خمس شامات : الاولى غزة والرملة وعسقلان وبيت المقدس . الثانية الاردن وطبرية والغور واليرموك وبيسان ومدينتها الكبرى طبرية . الثالثة الغوطة ودمشق وسواحلها ومدينتها الكبرى دمشق . الرابعة حمص وحماه وكفرطاب وقنسرين وحلب . الخامسة انطاكية والعواصم والمصيصة وطرسوس(1)

(1) لما استولى عليها العثمانيون قسموها الى اربعة اقسام دعوها ايالات الاولى ايالة حلب والثانية ايالة دمشق والثالثة ايالة صيدا والرابعة ايالة القدس الشريف وظلت هكذا الى حين تشكلت ولايات الممالك العثمانية في ايام السلطان عبد العزيز فاضيف الى شماليها بعض المدن ومن ثمّ قسمت بلاد سوريا الى ولايتين الاولى ولاية حلب والثانية ولاية سورية ومركزها دمشق وكل ولاية قسمت الى متصرفيات والمتصرفية الى قيمقاميات ومديريات وفي سنة ١٨٧٣ انسلخ القسم الجنوبي عن سوريا وهو متصرفية القدس الشريف وصار تعلقهُ بالباب العالي راسًا لكثرة مشاكلهِ واتساع الولاية

ويحدُّ هذه البلاد شمالاً اسيا الصغرى وشرقًا العراق والبادية وجنوبًا جزء من بلاد العرب ويقال له تيه بني اسرائيل وغربًا بحر الروم وهي ذات جبالٍ شامخة مرتفعة اعلاها فم الميزاب فوق طرابلس ارتفاعهُ ١١ الف قدم وجبل الشيخ واعلى قممهِ يبلغ ارتفاعها ١٠ آلاف قدم واودية منخفضة جدًّا لا يكاد يوجد لها نظير في العالم اعمقها وادي الشريعة الذي يبلغ انخفاضهُ عند بحيرة لوط ١٣٢٠ قدم عن سطح البحر وسهول شاسعة جيدة التربة وبحيرات كثيرة عذبة الاَّ واحدة منها ماؤُها مرٌّ ولا شبيه لهُ على سطح الكرة وهي بحيرة لوط. وانهار عديدة واشجار لا تحصى من انواع كثيرة بعضها مثمرٌ وبعضها عقيم وحيوانات داجنة وبرية كثيرة الانواع ومعادن متنوّعة منتشرة في انحاء البلاد واكثرها لم يزل بكرًا. وهواؤها بالاجمال جيّدٌ حسن يقوّي الابدان وخصوصًا في الجبال اما تجارتها فممتدَّة الى جميع اقسام الممالك العثمانية وصادراتها من الحرير والحبوب بانواعها ومن الاثمار والعفص وبعض العقاقير والصابون والصدف والانسجة الدمشقية والحلبيَّة والحمصيَّة وغير ذلك وواردانها المصنوعات الافرنجية والبهارات والتنبك والجلود وما اشبه ولاهلها اطول باع في مصنوعات كثيرة

اما سكانها فاقوياء البنية بيض الالوان مؤَلفون من انواع عديدة يتدينون باديان مختلفة وبعض اديانهم لا وجود له في غيرها كالديانة الدرزيَّة والنصيريَّة والاسمعيليَّة ولو رمنا وصف هذه البلاد بالتفصيل لشحنّا مجلدات ولكن اذ كان كلامنا عليها ليس الاَّ لتبيان اهميَّة البلاد التي منها دمشق لزمنا ان نقول باختصار ان سوريا من اقدم بلاد العالم وفيها قامت اكثر المذاهب الدينيَّة واهمها اليهودية والمسيحية اللتان امتدتا في كل العالم. وكانت هذه البلاد في الازمان الغابرة ذات شهرة عظيمة وعمران فائق وتداولتها امم وممالك عديدة فكانت اولاً وطنًا للكنعانيين وغيرهم من نسل حام وسكن نسل سام في نواحيها ثم اتاها بنو اسرائيل وطردوا الكنعانيين من اراضي فلسطين وتسلَّط عليها ملوك اشور ثم ملوك بابل ثم ملوك مادي وفارس ثم ملوك مصر اليونانيون ثم استقلت

برهة من الزمان ثم اضيفت الى مملكة مكدونية ثم الى المملكة الرومانية ثم استفتحها العرب في اثناء سنة ٦٣٢ م ثم تملكها التتر ثم فتح الصليبيون جزءًا كبيرًا منها ثم استرجعها منهم ملوك مصر المماليك ثم فتحها السلطان سليم العثماني وفي سنة ١٨٣٢ فتحها محمد علي باشا والي مصر تحت قيادة ولده ابرهيم باشا ثم استرجعها الانكليز بالاتحاد مع بعض دول اوربا العظيمة سنة ١٨٤٠ وسلموها للسلطان عبد المجيد العثماني ولم تزل تحت تملك العثمانيين الى يومنا هذا . ومنذ الاجيال المتوسطة عبث بها الخراب فلعبت اصابعه باكثرها ولجودة موقعها الطبيعي حفظت اسمها ولم تزل تُذكر كبلاد ذات اهمية عظيمة

فصل

في موقع دمشق والقابها وعدد سكانها

دمشق . هي اكبر مدن سوريا وفلسطين وموقعها في اواسط سوريا حيث الطول الشرقي ٣٠ َ ٣٦° والعرض الشمالي ٣٠ َ ٣٣° وهي الى الشرق بانحراف الى الجنوب من مدينة بيروت تبعد عنها ١١٢ كيلومترًا عبارة عن ١٦٨ الف ذراع وتبعد عن جنوبي حمص اربع مراحل وتعلو عن سطح البحر ٢٤٠٠ قدمًا ومحيطها تسعة اميال ونيف

وهذه المدينة كثيرة المياه والبساتين وموقعها في سهل خصيب في غوطة تُعَدُّ من افضل جنّات الدنيا والى شماليها جبل قاسيون يزيدها بهاء ونضارة فتصبح كجنة تجري من تحتها الانهار فيها كل انواع الفواكه والبقول وكل ما تشتهيه نفس الانسان من مأكول ومشروب ومشموم ونزهة وانشراح ونظرًا الى ذلك والى ما انطبع عليه اهلها من حسن السجايا ولُطْف الطباع حُسِبَت جنة في الارض وفُضِّلَت باشياء كثيرة على ما سواها من البلدان وقد شهد لها بذلك اهل الذوق والآداب في كل عصر وآن كما قال محمد بن اياس في كتابه بدائع الزهور . وقال العلامة الدكتور ڤان دبك في المرآة الوضية ناقلاً عن ابي الفداء متنزهات

الارض اربعة . سغد سمرقند . وشعب بوّان . ونهر الأُبُلَّة وغوطة دمشق . اما سغد سمرقند فهو نهر تحف بهِ اشجار مثمرة بالفواكه والازهار وهي مشتبكة بعضها ببعض ممتدة مقدار اثني عشر فرسخاً . واما شعب بوان من نواحي نيسابور فهو مقدار فرسخين وفيهِ انهار مندفقة واشجار مثمرة طيبة . وفيهِ يقول ابو الطيب المتنبي

يقول بشعب بوّان حصاني أَعَنْ هذا يسارُ الى الطعانِ
ابوكم آدمُ سنَّ المعاصي وعلَّمكم مفارقة الجِنانِ

واما نهر الأُبُلَّة فهو من اعمال البصرة وهو على اربعة فراسخ منها وعلى جوانبهِ الاشجار الطيبة الثمار . واما غوطة دمشق فهي افضل الجميع ومقدارها ثلاثون ميلاً وعرضها خمسة عشر ميلاً وهي مشتبكة بالاشجار كأنها بستان واحد لا تكاد الشمس تقع على ارض فيها وثمارها طيبة لم تكن في غيرها

وقال ابن بطوطة (ودمشق هي التي تفضل جميع البلاد حسناً وتتقدمها جمالاً وكل وصف وان طال فهو قاصر عن محاسنها) وقال ابو الحسين بن جبير رحمهُ الله (واما دمشق فهي جنة المشرق . ومطلع نورهِ المشرق . وخاتمة بلاد الاسلام التي استقريناها . وعروس المدن التي اجتليناها . قد تحلت بازاهير الرياحين وتجلت في حلل سندسية من البساتين . وحلّت من موضع الحسن بالمكان المكين . وتزينت في منصتها اجمل تزيين . وتشرفت بان اوى المسيح عليهِ السلام وامهُ اليها الى ربوة ذات قرار ومعين . ظلٌّ ظليل . وماء سلسبيل . تنساب مذانبهُ انسياب الاراقم بكل سبيل . ورياض يحيي النفوس نسيمها العليل . وقد سئمت ارضها كثرة الماء . حتى اشتاقت الى الظماء . فتكاد تناديك بها الصم الصلاب . اركض برجالك هذا مغتسل بارد وشراب . وقد احدقت البساتين بها احداق الهالة بالقمر . والاكمام بالثمر . وامتدت بشرقيها غوطتها الخضراء امتداد البصر) قال عرقلة الدمشقي الكلبي:

الشام شامة وجنة الدنيا كما انسان مقلتها الغضيضة جلّقُ
من آسها لك جنةٌ لا تنقضي ومن الشقيق جهنمٌ لا تحرقُ

الباب الاول

في تاريخ دمشق

فصل

في مذاهب المؤرخين في من بنى دمشق

لم يتفق المؤرخون على من بنى هذه المدينة المحسوبة من اقدم مدن العالم الباقية الى يومنا . وقد تفرقت واختلفت مذاهبهم بذلك . فذهب يوسيفوس بناءً على رواية عن مؤرخ دمشقي قديم اسمهُ نيقولاوس ان بانيها دامشقيوس بن كنعان . وذهب غيرهُ ان بانيها جيرون بن عاد بن ارم وكان بناؤُها على عمد من رخام وقيل وجد فيها من آثار بناء جيرون اربع مئة الف واربعون الف عمود من الرخام وان الاشارة اليها في القرآن الشريف بقولهِ ارم ذات العماد . وقال آخرون بان بانيها اليعازر غلام ابرهيم الخليل وارتأى آخرون ان بانيها دمشق غلام اسكندر الكبير ورووا ان الاسكندر بعدما بنى السد ورجع من المشرق بريد المغرب بلغ الشام وصعد على عقبة دمر فابصر موضع دمشق وكان الوادي الذي يجري فيهِ نهر دمشق غيضة ارز فلما رآها فكر كيف يبني فيها مدينة وكان لهُ غلام اسمهُ دمشق وكان امينهُ على جميع ملكهِ . قالوا فنزل الاسكندر على ثلاثة اميال من دمشق وامر بحفر حفيرة واعادة ترابها اليها فحُفِرَت فاعيد التراب فلم تمتلئ الحفرة فقال ان بني هٰهنا مدينة لا يكفي اهلها زرعها فرحل حتى اذا وصل الى حوران ورأى سعتها وتربتها الحمراء امر بحفر حفيرة فحُفِرت وأُعيد التراب اليها ففضل منهُ كثير فقال لغلامهِ دمشق ارجع الى ذلك الوادي واقطع الشجر وابنِ على حافتهِ مدينة وسمّها باسمك فهناك يصلح ان تكون مدينة وهذا الموضع بحرها الفائض بغلتها فبنى دمشق المدينة واقام بها حتى مات . ولهم اقوال غير هذه لا تنبئُ عن حقيقة الامر ولا تؤدّي الى المراد وكلها متناقضة وما باني هذه المدينة والوقت الذي بنيت فيه الاَّ من الاسرار التي عجز

الباحثون عن كشفها الى الآن . وربما لا سعة عند المتأخرين للوصول الى ذلك اذ لا دليل واضح ولا بينة جلية تكشف عمّا وراء ذلك الستار ونحن نقول ان غاية ما عرفناهُ عن هذا الامر ان المدينة قديمة العهد وُجِدَت قبل زمن ابرهيم الخليل بناءً على شهادة التوراة (تك ١٤ : ١٥) حيث يقال ان ابرهيم تبع اسرى لوط بن اخيهِ الى حوبة الواقعة شماليها وهذا جرى في سنة ١٩١٢ قبل المسيح وعليهِ تكون دمشق قد بُنِيت منذ اكثر من ٣٧٩١ سنة واذ كانت في زمن ابرهيم مدينة مشهورة فنقدر ان نقول من باب الظن انها وجدت قبل ذلك الوقت بمئات من السنين وان اخطأ الظن فالارجح ان يقال ان اليعازر غلام ابرهيم او اسلافهُ وضعوا اسسها ولحسن موقعها وجودة ما حولها من الاراضي وكثرة مياهها خطت خطوات التقدم بسرعة حتى صارت وقت حادثة لوط مدينة تُذكَر والله اعلم

فصل

في تاريخ دمشق الى يوم فتحها المسلمون

اخبار هذه المدينة في الايام الغابرة اكثرها غامض وما اتصل الينا منها قليل واهم حوادثها في المدة التي نحن بصددها ذُكِرَت في التوراة واكثرها لهُ علاقة بمملكة اسرائيل التي لولاها لما رأينا خبرًا اكيدًا لدمشق في معظم هذه المدة فلذلك عولنا على نقل اخبارها عنها الى ان ملكها ملوك اشور

انهُ بعد ما ذُكرت دمشق في التكوين في زمن ابرهيم الخليل توارت اخبارها ولم تذكر الّا الى ايام داود ملك اسرائيل عندما امتلكها وجعل اهلها عبيدًا لهُ على انهُ يستدل انها في هذه المدة كانت مستقلة تدعى ارام دمشق (ارام لفظة عبرانية معناها ارتفاع ويطلق على بلاد مرتفعة وسمّيت دمشق بارام دمشق تمييزًا لها عن غيرها من الارامات كارام بين النهرين وارام صوبة وغيرها) وذُكر في ٢ صم ص ٨ ان داود عندما حارب هددعزر ملك صوبة جاء ارام دمشق لنجدة هددعزر فضرب داود جيوش ارام وجعل محافظين من قبلهِ في ارام

دمشق فصار الارامیون عبیداً له يقدمون الهدايا وكانت هذه المدينة قاصرة سياسيًّا على نوع الى ايام سليمان بن داود ففي ذلك الوقت خرج رزون احد عبيد هدد عزر ملك صوبة عن طاعة سيده واتى مع قومه وملك في دمشق فصارت من وقته عاصمة مملكة ارام وكان رزون عدوًّا لسليمان ولما مات ولي بعده حزيون ثم خلفه ابنه طبريمون وكان معاصرًا لابيا ملك يهوذا ولما مات خلفه ابنه بنهدد الاول وكان معاصرًا لآسا ملك يهوذا وفي بداءة ملكه كان الصلح والسلام والمحالفة بينه وبين بعشا ملك اسرائيل غير انه لم تطل المدة الاّ أغرى آسا بنهدد بالاموال فنقض مواثيقه مع حليفه وجرّد جيوشه على حدود مملكة اسرائيل المحاذية مملكته ففتحها ورسم على ملك اسرائيل ان يبني سوقًا في السامرة عاصمة مملكته على اسم بنهدد فكان كما اقترح وجرى ذلك بين سنة ٩٤٠ وسنة ٩٣٠ ق م. وبعد بنهدد الأوّل ولج المملكة بنهدد الثاني فكانت عداوة بينه وبين مملكة اسرائيل ففي سنة ٩٠١ حمل عليها وتقدم حتى احاط السامرة بجيش عظيم وتهدد اخآب ملك اسرائيل اعظم تهدُّد وطلب منه ما يصعب احتماله فكاد اخآب يجيب على ان شيوخ الشعب ابوا والرب ساعدهم باعجوبة فتقووا على عدوهم وخرج اليه ملكهم اخآب فانتصر عليه وافنى جيوشه ونكبه وبلادهُ اعظم نكبة وانتهى الصلح بان يرد بنهدد لاخآب ما اخذهُ ابوهُ من مدن اسرائيل وان يبني اخآب اسواقًا في دمشق كما بنى والد بنهدد اسواقًا في السامرة لما تغلب على اسرائيل. وسنة ٨٩٧ ق م عاد الاراميون وحاربوا مملكة اسرائيل ففازوا وقتل في الحرب اخآب ملك اسرائيل وكانت الحرب بين بنهدد وملك اسرائيل الجديد خليفة اخآب على قدم وساق وفي نحو سنة ٨٩٠ ق م اتقدت نيرانها وزاد لهيبها فانكسر بنو اسرائيل امام بنهدد فتاثرهم الى السامرة ووضع عليها الحصار وضايقها فازداد بها الويل واشتد الجوع حتى ان أرأم النساء واشد هنّ حنوًّا اكلنَ اولاد هنّ وبلغت قيمة ربع القاب [1] من زبل الحمام خمسًا من الفضة وقيمة راس الحمار

(1) القاب من المكاييل اقة و٣٣ درهمًا

ثمانين من الفضة [1] واخيرًا اذ ضاق الحال وكاد الاهالي يهلكون جوعًا خلصهم الله باعجوبة حيث استولى وهمٌ على الاراميين ففروا وتركوا الحصار . وبعد ذلك اتى اليشع النبي الى دمشق وتنبأ بموت بنهدد وبان حزائيل ابنهُ يكون خليفة لهُ

ولما مات بنهدد خلفهُ ابنهُ حزائيل وكان جبارًا عنيدًا قاسيًا فتح فتوحات كثيرة وحارب يهوآحاز ملك اسرائيل كل ايامهِ واستولى على بعض بلادهِ ولما مات خلفهُ ابنهُ بنهدد وكان دون ابيهِ في الجبروت حاربهُ يوآش بن يهوآحاز ثلث دفعات وتغلب عليهِ واسترجع مدن اسرائيل منهُ . ولما جلس يربعام بن يوآش على كرسي اسرائيل ازهرت المملكة في ايامهِ ورجعت الى رونقها وقد فتح دمشق واخضعها لمملكتهِ ثم توارى ذكر دمشق . ويظن انها ظلت خاضعة لملوك اسرائيل او انها امتنعت عن محاربتهم وفي ايام فقح ملك اسرائيل وآحاز ملك يهوذا الذي جلس على عرش اورشليم سنة ٧٤١ ق م كان ملك على دمشق اسمهُ رصين فتحالف مع فقح ضد آحاز وقصد محاربتهُ واذ علم آحاز احتياجهُ الى مساعدة استنصر بتغلث فلاسر ملك اشور ضد عدوّيهِ فلباهُ واتى وحارب دمشق واخذها وسباها الى قير وقتل رصين ملكها ثم اتى آحاز الى دمشق للقاء تغلث فلاسر ملك اشور فرأى المذبح الذي في هيكل دمشق واذ اعجبهُ ارسل الى رئيس الكهنة في اورشليم ليعمل مثلهُ ويقدم الذبائح عليهِ (اما هيكل دمشق فقديم العهد وكان عظيمًا ومخصصًا لعبادة رمون اله الاراميين ثم صار كنيسة ثم جامعًا وهو الجامع الاموي المعروف الآن وسيأتي بسط الكلام عليهِ في بابهِ) وبقيت دمشق في حوزة الاشوريين الى سنة ٧٢١ ق م فاستولى عليها شلمناصر ملك بابل ثم بعد ذلك عصي سكان دمشق مع جميع اهالي سوريا على بختنصر الملك وامتنعوا عن أداء الضرائب فاستشاط غيظًا وارسل جندهُ الى سوريا تحت قيادة عبدهِ اليفا فتمكن منها واخرب كثيرًا من مدنها وقتل ما لا يحصى من سكانها ثم سار الى بقعة دمشق وكان ايام الحصاد فاحرق جميع المراعي والحقول واباد المواشي وسبي

(١) الثمانون من الفضة نحو ثمان ليرات انكليزية او نحو ١٠٥٠ غرشًا عثمانية

مدن مملكة دمشق وقتل شبانها وارجعها الى طاعة سيده بختنصر مع جميع ممالك سوريا وهكذا رجعت دمشق تخضع لملوك بابل (ملخصًا عن سفر يهوديت ص ١ و٢) ولما سقطت بابل بسيف كورش ملك مادي صارت دمشق تابعة لهُ وفي سنة ٣٣١ ق م استولى اسكندر المكدوني على سوريا فصارت دمشق لليونانيين وبعد موت الاسكندر ظلت سوريا محكومة من اليونان في مصر ثم لما تقوى سلوقس واسس المملكة اليونانية السورية وجعل عاصمتها انطاكية سنة ٣١٢ كانت دمشق تابعة مملكة السلوقيين وظلت خاضعة لليونانيين ٢٤٨ سنة وفي سنة ٦٤ قبل المسيح اتاها بمبايوس احد قواد الرومانيين وفتحها مع انطاكية وكل سوريا واخضعها للرومانيين وبقيت تحت سلطتهم نحو ٧٠٠ سنة الى ان فتحها العرب المسلمون سنة ٦٣٤ م الموافقة ١٣ هجرية

ولما ساد الرومانيون على دمشق حصلت على التقدم وامتطت مطايا النجاح فصارت اعظم مدن سورية وفلسطين الاَّ انطاكية وكان عمَّال الرومانيين بها من عرب غسَّان فساسوها بادئ امرهم مع ما يتبعها احسن سياسة(١)

(١) عرب غسان كانوا عرب الشام في ايام ولاية الرومانيين على سوريا اصلهم من اليمن من آل جفنة من بني الازد بن غوث بن نبت بن مالك بن ادد بن زيد بن كهلان بن سبا تفرقوا من اليمن بسيل العرم ونزلوا على ماء بالشام يقال لهُ غسان فنسبوا اليهِ فقيل لهم آل غسان وكان بالشام عرب من سليح يقال لهم الضجاعمة كانوا من ملوك الطوائف الذين قتل اسعد الحميري من كان منهم باليمن وقتل ازدشير كسرى من كان منهم بارض العجم فقوي عليهم آل غسان واخرجوهم من ديارهم وحلوا مكانهم فتقووا فاتخذهم ملوك الروم عمالاً لهم على عرب الشام ودخلت دمشق في حوزتهم مدة وقبلوا الديانة المسيحية وتدينوا بها واول من ملك منهم جفنة بن عمرو بن ثعلبة بن مزيقيا فهذا بعدما قتل ملوك سليح دانت لهُ قضاعة فعظمت دولتهُ وبنى في الشام مصانع كثيرة ومات وملك بعدهُ ابنهُ عمرو وبنى في الشام عدة اديرة منها دير صالي ودير ايوب ودير هند ثم ملك بعدهُ ابنهُ ثعلبة وهو الذي بنى صرح الغدير في اطراف حوران مما يلي البلقا وكان ملكهُ سبع عشرة سنة ثم ملك بعدهُ ابنهُ الحرث وكان ملكهُ عشرين سنة وملك بعدهُ ابنهُ جبلة وهو الذي بنى القناطر واذرع والقسطل ومدة ملكهِ عشر سنين وملك بعدهُ ابنهُ الحرث وهو ابن مارية ذات القرطين اللذين يضرب بهما المثل في التنافس وكان مسكنهُ في البلقاء فبنى بها الحفير ومصنعهُ وقصر

وفي سنة ٥٩ ق م في بداءة تولي الرومانيين عليها حدث فيها مقتلة عظيمة فقتل بها كثير من اليهود واما سببها فهو ان بعض وجوه اليهود رغبوا في ان يكونوا اعياناً في الديوان الروماني فابي السوريون ذلك فثار اليهود في دمشق وقتلوا خلقاً كثيراً من الاهالي فغضب كلوديوس فيلكس الوالي وامر جندهُ فقتلوا

ايير ومعان وكان ملكهُ عشرين سنة وملك بعدهُ ابنهُ المنذر الاكبر ومات بعد ان ملك ثلث سنين فملك بعدهُ اخوهُ النعمان خمس عشرة سنة ونصفاً ثم اخوهُ المنذر الاصغر ثم اخوهُ جبلة ثم اخوهُ الايهم ثم اخوهُ عمرو وكان شديد التكبر ذميماً قبيح السيرة انشا في دمشق وضواحيها ومعاملاتها عدة قصور شامخة منها قصر الفضاء وصفات العجلات وقصر منار وصوَّر في بعض هذه القصور مجالسهُ وجلساء دولتهِ واشكال صورتهِ فكانت متنزهات لا يوجد مثلها وكان قد جعل لنفسهِ في كل ليلة جارية عذراء من السبايا التي تصيبها خيلهُ المغيرة في البلاد على العصاة من اهلها فلم يزل ذلك دابهُ حتى وقعت عندهُ في السبي اخت عمرو بن الصعق العدواني فلم يشعر الاَّ واخوها قد وقف بهِ وهو يقول

يا ايها الملك المهيب اما ترى صبحاً وليلاً كيف يختلفانِ
هل تستطيع الشمس ان يؤتى بها ليلاً وهل لك بالصباح يدانِ
فاعلم وايقن ان ملكك زائلٌ وكما تدين تدان عقد رهانِ

فوقعت هذه الابيات في قلبهِ وقال لهُ قد امنك الله على كل من لك عندي وامن كل الناس على من وقع لهم من السبايا وابطل تلك السنَّة من ذلك اليوم وبنى دير ضخم ودير النبوة وملك ستًّا وعشرين سنة وشهرين ثم ملك بعدهُ جفنة الاصغر ابن المنذر الاكبر وهو الذي احرق الحيرة فسمي بالمحرق وبنوهُ سموا آل محرّق وملك بعدهُ اخوهُ النعمان الاصغر ابن المنذر الاكبر وبعدهُ ملك النعمان بن عمرو بن المنذر وهو الذي بنى قصر السويداء وقصر حارب ولم يكن عمرو ابو النعمان ملكاً بل كان من كرام العشيرة وفيهِ يقول النابغة الذبياني

عليَّ لعمرو نعمةٌ بعد نعمةٍ لوالدهِ ليست بذات عقاربِ

وكانت مدة ملكهِ سبعاً وعشرين سنة فمات وملك بعدهُ ابنهُ جبلة وهو الذي قاتل المنذر بن ماء السماء ولهُ يوم عين اباغ الذي فتك بهِ ببني لخم ونزا . كان ينزل بصفين وبعد ان ملك ست عشرة سنة ملك بعدهُ النعمان بن الايهم بن الحرث وملكهُ احدى وعشرون سنة وملك بعدهُ اخوهُ الحرث ثم ابنهُ النعمان وهو الذي اصلح صهاريج الرصافة وكان قد اخربها بعض ملوك الحيرة اللخميين وملك بعدهُ ابنهُ المنذر ثم ملك بعد المنذر اخوهُ عمرو بن النعمان ثم اخوهما حجر ثم ابنهُ الحرث ثم ابنهُ جبلة ثم ابنهُ الحرث وهو الذي اوقع ببني كنانة وكان يسكن احياناً في الجابية واحياناً في عمان التي تعرف بالبلقاء وكان ابتداء ملكهِ في عصر

مقتلة عظيمة من اليهود ونهبوا منازلهم واحرقوها وسنة ٣٠ ق م في ايام اوغسطس قيصر قدم اليها هيرودس الكبير ومنها سار الى بانياس وفي اثناء ذلك رجع اليهود وبنوا منازلهم وبعد صعود المسيح بقليل قدم اليها حنانيا الرسول وبشَّر فيها بالنصرانية فآمن على يدهِ بعض من سمعهُ. ونحو سنة ٣٧ او ٣٨ للمسيح قدم اليها ايضًا بولس الرسول كما نقرأُ في سفر اعمال الرسل ص ٩ وذلك يوم النعمان بن المنذر ملك الحيرة فكانت بينهما مغايرة في الشرف وكان الحرث كثير الغزو والغارات على قبائل العرب وكان كريمًا جوادًا كثير المواهب فكانت العرب تدعوهُ الوهاب وقيل لم يجتمع من الشعراء بباب احد من الملوك في عصرهِ ما كان يجتمع ببابهِ وكان حسان بن ثابت الانصاري منقطعًا اليهِ ولهُ فيهِ مدائح كثيرة

ومات الحرث وملك بعدهُ ابنهُ النعمان وكان شديد الاجتهاد في انتشار النصرانية في البلاد اكثر من اجدادهِ وكان ملكًا عادلًا شجاعًا فاضلًا كثير الخير قليل الشر حسن الصورة والسيرة وكان يحب العلماء والفضلاء ويقدمهم على اشرف الناس وكان يكنى بابي كرب ويلقب بقطام وبعدهُ ملك الايهم بن جبلة بن الحرث وهو صاحب تدمر وقصر بركة وذات انمار وكان لهُ عامل يقال لهُ القين بن جسر بنى لهُ بالبرّية قصرًا عظيمًا قيل انهُ قصر برقع وملك بعد الايهم اخوهُ المنذر وقيل ان ملكهُ كان سنة ٦٢٠ م وكان ملكهُ ثلث عشرة سنة ثم ملك اخوهما شرحبيل ثم ملك بعدهُ اخوهُ عمرو ثم ابن اخيهِ جبلة بن الحرث وكان ملكهُ اربع سنين وملك بعدهُ جبلة بن الايهم بن جبلة وهو آخر ملوك غسان وكان طويل القامة نحيف الجسم يلبس الثياب الفاخرة وهو الذي بنى مدينة جبلة بين طرابلس واللاذقية وسماها باسمهِ وقيل انهُ اسلم في خلافة عمر بن الخطاب فسار الى مكة يريد الحج بمئتين وخمسين من اصحابهِ فلما قرب من المدينة قلد اعناق خيلهِ بقلائد من الذهب والفضة ووضع تاجهُ على راسهِ فلما بلغ عمر قدومهُ التقاهُ بمن عندهُ ورفع مقامهُ حتى كان يوم الطواف فبينما جبلة يطوف بالبيت محرمًا متزرًا اذ وطيء رجل من فزارة طرف ازارهِ فانحل عنهُ الازار حتى بدت عورتهُ فغضب جبلة من ذلك ولطم الفزاري لطمة هشم بها انفهُ فتعلق بهِ الرجل وانطلق الى عمر ودمهُ يسيل على وجههِ فقال لهُ عمر انت بين ان يلطمك الرجل كما لطمتهُ او تفدي اللطمة منهُ فقال جبلة افلا يفضل عندكم ملك على سوقة قال كلا بل كلاهما في الحق سواء . فانف جبلة من ذلك ولما جنهُ الليل خرج بقومهِ حتى لحق بالشام فارتد عن اسلامهِ فكتب عمر لعاملهِ بالشام ابي عبيدة بن الجرّاح ان يستتيب جبلة فان تاب والاَّ ضرب عنقهُ وبلغ ذلك جبلة فخرج هاربًا الى ملك الروم واقام عندهُ . وقيل كانت مدة ملك ملوك غسّان ست مئة سنة . اه

كان حاكمها الحارث ٢كو ١١: ٣٢ الخ

وعندما صارت الدولة الرومانية نصرانية امتدت النصرانية في دمشق حتى ان ثيودوثيوس الملك امر بنزع عبادة الاصنام منها ومن غيرها من ممالكهِ وفي ايام ابنهِ ارخاديوس تهدم جزءٌ من هيكل دمشق فرممهُ وحوَّل الهيكل كلهُ الى كنيسة على اسم يوحنا المعمدان ولم تمضِ مدة حتى صار كل اهلها مسيحيين على ان اكثر اليهود لبثوا على دينهم

وفي سنة ٥٤٠ م غزاها الفرس وخربوا كثيرًا من ابنيتها ولكنها لم تلبث ان عادت الى مجدها وصارت عملًا من اعمال الرومانيين وعمَّالهم فيها بنو غسَّان كما تقدم

وكانت دمشق في كل اعصرها عظيمة قوية مشيدة الحصون ففي عصر اليونان والرومان كانت في غاية الاتقان على شكل مستطيل بيضوي محاطة بسور عظيم منيع ويخرقها من الشرق الى الغرب الزقاق المستقيم وطولهُ نحو ميل وكان على جانبيهِ رواقان قائمان على اعمدة بين العمود والآخر بضع اذرع وقد ظهرت اثار هذه الاعمدة في سنة ١٨٦٣ وهم يحفرون اسس القشلة التي بنوها في حي النصارى. والظاهر انها كانت ممتدة الى باب توما الذي هو احد ابواب المدينة الشمالية ولهذه الاعمدة آثار في اكثر شوارعها ما يدل على انها كلها كانت على نسق واحد وقد قال من زار تدمر وعرف هندسة دمشق القديمة بان الثنتين على هندسة واحدة وكان لدمشق ثمانية ابواب من جهاتها الاربع قال بعضهم

دمشق في اوصافها　　جنة خلدٍ راضيه

اما ترى ابوابها　　قد جعلت ثمانيه

ولم تزل آثار السور القديم مع الابواب الى يومنا هذا وقيل في عيون التواريخ وكان لليونان على كل باب عيد في السنة وهم الذين وضعوا الارصاد على حركات الكواكب وبنوا لهم معبدًا في الموضع الذي هو اليوم الجامع . اه .

ولما قويت الديانة المسيحية صارت دمشق مركز ابرشية عظيمة وكان راعيها يلقب برئيس اساقفة فينيقية الثانية وتحت يدهِ اثنا عشر اسقفًا

فصل

في فتوح المسلمين لدمشق الى ان قامت الدولة الاموية

عظم شأن الرومان المسيحيين وعلا قدرهم وحلت مهابتهم في قلوب الشعوب وفازوا بالظفر بادئ امرهم فانصفوا بالرعية واجروا العدل واتخذوا الحق حاكمًا في امورهم ثم ما لبثوا ان اسكرهم الفوز فتكبروا وتعظموا ونبذوا العدل ظهريًا وانصبوا على الملاهي والمنكرات وتقاعدوا عن الواجبات ومالوا عن جادّة الصواب وظلموا في الرعية وقلدوا الاحكام والمناصب لغير اهلها وجعلوا الرتب بضائع تجارية تقتني بالاثمان فوسعوا للمرتشين ابواب الجور والاعتساف فتضعضعت احوال الرعية وفسدت اخلاقها ونفرت من حكّامها فضاعت سطوة الحكام وانحط قدرهم ولم يستطيعوا الثبات امام الجنود الاسلامية كما سياتي

ففي السنة الحادية عشرة للهجرة الموافقة سنة ٦٣٢ م بايع المسلمون ابا بكر الصديق خليفةً فقام باعباء الخلافة وكان يرغب في تعميم الاسلامية واتساع نطاق الفتوحات فدعا قومهُ الى ذلك فلبوهُ لانهم كانوا يودون الجهاد ويوثرونهُ على ما سواهُ . ففي السنة الثانية من خلافتهِ سيَّر الجيوش لفتح بلاد الشام وعقد راية قيادتها لابي عبيدة عامر بن الجرّاح ثم انجدهُ بخالد بن الوليد فسارت الجيوش نحو بلاد الشام واخذت تفتح المدن والبلدان وتجري العدل والانصاف في ما تستولي عليهِ . فقام عند العرب ان الروم جبناء لا يثبتون في النزال فطمعوا في بلادهم واستهونوا حربهم وتاكدوا الفوز عليهم فوجهوا نظرهم بسرعة لفتح المدن الكبيرة العظيمة فجد خالد بن الوليد السير حتى بلغ بصرى (هي في حوران وعلى خراباتها الآن قرية صغيرة تُعرَف ببصرى اسكي شام اي الشام القديمة) وكانت عساكر الروم قد حشدت بها بكثرة وتولى قيادتها رجل اسمهُ رومانوس فخرج هذا من المدينة واتى خالدًا واجتمع بهِ ثم اسلم عن يدهِ واتفق معهُ على ان يسلمهُ المدينة بحيلة نكاية للرومان ولكنهُ في بادئِ الامر يتظاهر بمحاربتهِ . ولما عاد الى المدينة

اخذ يطنب بقوة الحاملين ويظهر الميل اليهم فخذلهُ قومهُ والزموهُ بينهُ وولوا عوضًا عنهُ رجلًا من مشاهير قوادهم فثقب رومانوس سور المدينة على حين غفلة وخرج الى معسكر العرب واتى بزمرة من الجنود وادخلهم المدينة فتمكنوا من فتح ابوابها فدخلها العرب ظافرين وعاملين السيوف باهلها حتى اجبروهم على الاستئمان فامنوهم واستولوا على مدينتهم ووضعوا بها محافظين من قبلهم

قال الواقدي. وبعد ان فتح خالد بصرى سار بجنودهِ قاصدًا دمشق فكتب لابي عبيدة عامر بن الجرّاح يستدعيهِ الى معونتهِ وكتب لابي بكر يعلمهُ بما قصد .

قال ولما كان خالد سائرًا الى دمشق كان الناس يلتجئون اليها اسرابًا اسرابًا خيفة الاعداء فاضحى فيها خلق كثير من جملتهم ١٢ الف فارس ولما عرف هرقل ملك الروم بزحف العرب على دمشق راعهُ الخبر فجهز لوقتهِ احد قوادهِ واسمهُ كلوس بخمسة آلاف فارس وارسلهُ اليها فبلغها بوقت قصير ولحسن حظ العرب وقعت البغضاء والمناظرة بين كلوس وعزازير والي المدينة وقصد كلوس خلع عزازير عن الولاية فلم يتم لهُ الامر وبعد النزاع تقربا من بعضهما وفي القلوب ضغائن كامنة واتفقا على ان يتولى كل واحد منهما امر المحاربة يومًا بالتناوب (هذا جرى وخالد في محل اسمهُ الدير ينتظر اجتماع الجنود الاسلامية) ومن ثمَّ صار الروم يخرجون كل يوم من باب الجابية ويبعدون عن المدينة مقدار فرسخ منتظرين اباعبيدة غير حاسبين حسابًا لخالد ففي احد الايام لم يشعروا الاَّ وانقضَّ عليهم خالد بن الوليد من جهة الثنية فبادروهُ كالجراد فتدرع خالد وخطب على قومهِ قائلًا: هذا يوم ما بعدهُ يوم وهذا العدو قد زحف بخيلهِ فدونكم والجهاد فانصروا الله ينصركم وكونوا ممَّن باع نفسهُ لله عزّ وجل وكانكم باخوانكم المسلمين قد قدموا عليكم مع ابي عبيدة عامر بن الجرّاح فتشدّدت قلوب جنودهِ ودبَّت فيها النخوة العربية وبعد ذلك استقبل خالد جيش الرومانيين وصرخ صرخة هائلة فحمل وحمل معهُ شرحبيل بن حسنة وعبد الرحمن بن ابي بكر وضرار بن الازور فارجعوا العساكر الرومانية فتبع خالد كلوس قائدهم فلما اوشك ان يظفر بهِ فرَّ من وجههِ فوقف

خالد ودعاهُ للبارزة فتمنع خوفًا وذهب الى عزازير يطلب منهُ مبارزة خالد فابى
فالتزم كلوس ان يرجع ويبارزهُ فخرج ومعهُ ترجمان اسمهُ جرجس ولما اجتمعا اخذا
يتهددان بعضهما اشد التهديد ثم هرب الترجمان وترك البطلين في ساحة الوغى
فاخذا يتصارعان ويتجالدان ولم يتيسر لخالد طعن خصمهِ وهو ممتطٍ الجواد فانحرف
عليهِ وتمكن من اطواقهِ وجذبهُ فسقط على الارض فتوارد بعض فرسان العرب
وامسكوهُ واوثقوهُ واذ رأى كلوس ذاتهُ اسيرًا اوعز الى خالد ان يطلقهُ دافعًا
الجزية فابى

ثم ان خالدًا صمم على الهجوم على جيوش اعدائهِ فمانعهُ ضرار وقال لهُ استرح
وانا احمل فابي الَّا الحملة بنفسهِ وفي اثناء ذلك استدعاهُ كلوس وهو في الوثاق
وناجاهُ بقتل عزازير فقال لهُ ساقتلهُ واياك ومن مثلكما في العقيدة

ولما وقع كلوس اسيرًا كان قد اتى جرجس الترجمان قومهُ فاخبرهم بشجاعة
خالد وشدَّة بأسهِ فلاموهُ وحاولوا قتلهُ وقالوا لعزازير ان كلوس أُسر وخالد يتقدم
فابرز لقتالهِ وخلص قومك فسمع عزازير الكلام وتعدد بلامة حربهِ وركب
جوادهُ وسار وكان عزازير من مشاهير فرسان قومهِ واشدهم شجاعةً وقوة واكثرهم
معرفة في فن الحرب وابوابها وكان عارفًا باللغة العربية فلما التقى بخالد تحدثا
وتهددا على غير طائل واخيرًا قال عزازير لخالد اعطيك الف مثقال ذهبًا
وعشرة آلاف ديباج وخمسة من جياد الخيل ان قتلت كلوس واتيتني براسهِ
فقال خالد هذهِ ديتهُ فما تعطيني عن نفسك فغضب عزازير واخذ يتهددهُ واذ
لم يكن بدٌّ من القتال حملا وتجاولا برهة فكاد خالد يستظهر على عزازير ففر عزازير
فتبعهُ خالد وكان جوادهُ بطيء السير فظن عزازير الخوف في خالد فتربص لهُ
واعادا المقاتلة فلم يفز احدهما بصاحبهِ فترجل خالد فطمع بهِ عزازير وجال
حولهُ بسيفهِ وضربهُ بهِ فاخطاهُ فضرب خالد قوائم جواد عزازير فسقط عزازير
وعمد الى الهرب فادركهُ خالد والتقطهُ فبادر الروم لتخليص رئيسهم من اسرهِ
وعندما وصلت جنود العرب بغتةً مع ابي عبيدة فعدل الرومانيون عن الحملة . ثم في

اليوم الثاني نهض خالد وابو عبيدة ورتبا الجيوش الاسلامية وحملا بها على الروم واستظهروا عليهم فولوا الادبار فتبعهم المسلمون عاملين السيوف فيهم حتى ادخلوا اكثرهم المدينة من الباب الشرقي فحينئذٍ أُغلقت ابواب المدينة فانقسمت الجيوش الاسلامية وعددها نحو ثلثين الفًا وخمس مئة الى قسمين الاوّل تحت قيادة ابي عبيدة نزل امام باب الجابية والثاني تولى قيادتهُ خالد بنفسهِ ونزل امام الباب الشرقي وهكذا حُصِرت دمشق وتعسَّر على الروم الخروج والدخول وسُدَّت امامهم المسالك . ثم ان خالدًا احضر القائد بن كلوس وعزازير الى امام اسوار المدينة وعرض عليها الاسلام فابيا فامر ضرارًا بن الازور البطل المشهور فضرب عنقيهما فلما انظر ذلك اهالي دمشق ارتاعوا فكتبوا الى انطاكية الى الملك هرقل يخبرونهُ بما جرى على القائدين وبنزول العرب على باب الجابية والباب الشرقي ويطلبون منهُ انجادهم سريعًا والَّا فيسلمون المدينة وسلموا الرسالة لرسولٍ دلوهُ من اعلى السور في ظلمة الليل فلما وصلت الرسالة الى الملك هرقل بكى على مصاب بلادهِ ثم جمع قوادهُ وتلاها عليهم وقال يا قوم لقد انذرتكم من هولاء العرب فاتخذتم كلامي هزءًا فاعلموا انهم خرجوا من بلادٍ قفراء الى بلاد خصيبة كثيرة الاشجار والثمار فاغرتهم نضارتها حتى لا يزدجرون عنها لما هم فيهِ من العزم وشدة الباس ولولا الفضيحة لتركتُ الشام ورحلتُ الى القسطنطينية ولكنني سأستعين الله واخرج لقتالهم اه . فقال القواد وهل بلغ من قدر العرب حتى تخرج اليهم بنفسك ايها الملك فقال وبمن نبعث اليهم قالوا بوردان صاحب حمص فانهُ افرس فرساننا واعرف قوادنا بفنون الحرب وقد اشتهر في حروب الفرس . فبعث الملك واحضر وردان وقلدهُ قيادة اثني عشر الف فارس وارسلهُ لنجدة دمشق وقال لهُ عندما تبلغ بعلبكَّ انفذ الى مَنْ باجنادين واوصهم ان يقطعوا المدد عن العرب

وفي اثناء ذهاب رسول دمشق الى الملك شدد العرب الحصار على دمشق وكانوا يهجمون عليها مدَّة عشرين يومًا بحملات شديدة وفي اليوم الحادي

والعشرين اتى نادي بن مرة واخبر خالداً بان الروم مجتمعون بعدد غفير في اجنادين وقصدهم الحملة على العساكر الاسلامية فذهب خالد لوقته من امام الباب الشرقي واتى ابا عبيدة امام باب الجابية وحدثه بما بلغه وقال له اني ارى من الصواب ان نرحل من هنا ونقاتل الروم باجنادين فان نصرنا الله عدنا لقتال هولاء القوم فانكر ابو عبيدة هذا الراي وقال الاجدر بنا ان نوجه شرذمة من الجند تحت قيادة احد الابطال المجرّبين فان رفعنا الحصار عن دمشق يستولي اهلها على مراكزنا فنمسي خاسرين فاستصوب خالد هذا الراي وسيّر خمسة آلاف فارس مجرّبين تحت قيادة ضرار بن الازور لمحاربة الاعداء في اجنادين فلما بلغ هذا الجيش بيت لهيا التقى بعساكر الروم وكانوا اكثر منه عدداً فهابهم وهمّ على الرجوع خوفاً وكان خالد قد قال لهم اذا وجدتم الاعداء اكثر منكم فكرّوا الينا راجعين فلما التقوا بالروم عزموا على الرجوع خيفة الالقاء بانفسهم الى التهلكة فقاومهم ضرار وقال لستُ ممّن يرجعون وابيتُ الاّ الضرب بسيفي حتى الهلاك وافضّل الهلاك على الهزيمة . فوافقه رافع بن عميرة الطائي وقال مخاطباً الجنود لربا قوم وما الخيفة وما هولاء العلوج انما نصركم الله في مواطن كثيرة والنصر مقرون مع الصبر ولم تزل طائفتنا تلقى الجموع الكثيرة واليسيرة فاتبعوا سبيل المؤمنين وتضرّعوا الى رب العالمين وقولوا كما قالت قوم طالوت عند لقائهم بجالوت ربنا افرغ علينا صبراً وثبت اقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين)

ولما سمع الجنود هذا الكلام تشدّدت عزائمهم وتشجعوا ونادوا القتال القتال فكمن بهم ضرار في بيت لهيا ولما اتصل بهم الروم حمل ضرار مع جنوده فدارت رحى الحرب وازداد اتقاد نيرانها وكانت موقعة دموية قتل بها خلق كثير من الجانبين من جملتهم همدان بن قائد عسكر الروم ووقع ضرار اسيراً بعد ان جرحهُ همدان فلحق خبر اسر ضرار بخالد فتكدر واستشار ابا عبيدة فاجمعا على ان خالداً يلحق بجيش ضرار فسار بنخبة من جيشه واقام على الباب الشرقي ميسرة بن مسروق العبسي وكان بطلاً مشهوراً وجعل تحت قيادته الف فارس

ولما اتصل خالد بجند ضرار راى بينهم فارسًا يحمل على الاعداء حملات تزعزع الجبال الرواسخ فاستدعاهُ واستكشفهُ عن امرهِ. فاذا هو خولة بنت الازور اخت ضرار الماسور تقوم باخذ الثار. ثم ان خالدًا حمل مع رجالهِ على الكتائب الرومانية وشتتوها وارسلوا سرية تحت رياسة رافع بن عميرة الطائي استرجعت ضرارًا من اسر العدو وعادوا الى دمشق مشددين عليها الحصار

ولما بلغ الملك هرقل ما اصاب جيش وردان جهز جيشًا عرمرمًا مولفًا من تسعين الف مقاتل وارسلهُ لاجنادين وارسل لوردان يوليهِ قيادة الجيش وامرهُ ان يقطع اتصالات العرب فبلغ خبر هذا الجيش اذان خالد بن الوليد وهو على الباب الشرقي في دمشق فاجتمع بابي عبيدة فقر رايهما على ان يجمعا الجنود من جميع الجهات في اجنادين فرفعا الحصار عن دمشق وسارا قاصدين اجنادين فكان خالد على مقدمة الجيش وابو عبيدة على المؤخرة مع الغنائم والاموال ومعهُ الف مقاتل وعندما اخذا في السير خطب خالد بالجنود قائلاً ايها الناس انكم سائرون الى جيش عظيم فايقظوا هممكم وان الله وعدكم النصر وقرأ عليهم قولهُ. كم فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله والله مع الصابرين. وكان من امرهم ان التقوا بالروم في اجنادين واقتتلوا اقتتالاً عظيمًا ذارت الدائرة فيهِ على الروم وقتل منهم خمسون الفًا على ما قيل وذلك في جمادى الاولى سنة ١٣ ه (واجنادين سهل بين الرملة وبيت جبرين)

وفي يوم الخميس في ٢ جمادى الاخرة كتب خالد لابي بكر يخبرهُ بما كان ويعلمهُ بانهُ راجع الى دمشق ثم رجع الى دمشق فوجدها قد ازدادت تحصنًا فنزل في دير خالد المنسوب اليهِ ويبعد عن المدينة نحو ميل واخذ يرتب كيفية الحصار وبعد ان اتم الامر قسم جيشهُ المؤلف من خمسة عشر الف مقاتل على ما قيل على ابواب المدينة فجعل ابا عبيدة على باب الجابية ويزيد بن ابي سفيان على الباب الصغير (باب الشاغور) وشرحبيل بن حسنة على باب توما وعمرو بن العاص على باب الفراديس وعبس بن هبيرة على باب الفَرَج ونزل خالد على

الباب الشرقي وضرار بن الازور كان يطوف حول المدينة بالفي فارس للحراسة
وكان في دمشق بطل مشهور اسمهُ توما كان متزوجًا بابنة الملك هرقل
فاقامهُ الاهالي قائدًا عليهم فنظم احوالهم وصعد على سور باب توما المنسوب اليهِ
ورمى قوم شرحبيل بالسهام فقتل منهم خلقًا كثيرًا في جملتهم ابَّان بن سعد بن العاص
وكان عريسًا تزوج باجنادين وعروسهُ ابنة عمهِ من النساء المسترجلات فندبت
بعلها ونذرت على نفسها اخذ ثارهِ فتبعت الجيش وكانت ترمي السهام فاصابت
حامل الراية الدمشقية فسقطت الراية الى العرب فعظم الامر على توما وخرج
من المدينة لاسترجاعها وتبعهُ شرذمة من عسكرهِ واوشك ان يسترد الراية واذا
بنبلة رمتهُ بها زوجة ابان فاصابت عينهُ فكرَّ راجعًا وتبعهُ قومهُ واغلقوا الباب
فكتب توما الى الملك هرقل بحالة الحرب وطلب منهُ ان يرسل لهُ نجدة او ان
يدعهُ يصالح العرب. وفي اثناء ذلك شدد العرب الحصار وقطعوا كل اتصال
عن المدينة وداوموا القتال فتضايق الاهالي واي تضايق وطلبوا من خالد
المهادنة فابى الاَّ القتال فظلت رحى الحرب دائرة والنجدات تتوارد على العرب
بكثرة حتى تعاظم جيشهم واهالي دمشق لا يرون بابًا للفرج فانقسموا فئتين فئة
رغبت في الاستئمان وفئة في الدفاع الى النهاية مفضلة اياهُ على الذل فتغلب
حزب الاستئمان واجتمع زعماؤُهُ عند باب الجابية وتكلموا مع ابي عبيدة وقطعوا
معهُ شروط التسليم وخرجوا اليهِ فاكرمهم ثم دخل المدينة ومعهُ مئة رجل فيهم
خمسة وثلاثون صحابيًّا هذا ما كان من امر ابي عبيدة. واما ما كان من امر خالد فانهُ
اتاهُ في تلك الليلة عينها قس اسمهُ يونان نقب سور المدينة من بيتهِ الذي كان
بازاء السور بجانب الباب الشرقي واعلمهُ بما فعل واستأمن اليهِ فامنهُ خالد وارسل
معهُ مئة رجل من اشداء قومهِ واوصاهم اذا صرتم في المدينة هللوا وكبروا وافتحوا
الباب ففعلوا ذلك والناس غافلون فدخل خالد المدينة عنوةً وسار في
الطريق المستقيم يضرب بسيفهِ واهل المدينة على خلف وقد راعهم ما راوهُ مما
لا ينتظرون ولما وصل الى كنيسة مريم (للروم الارثوذكس) التقى بابي عبيدة دون

ان يرى لهُ سيفًا مجرّدًا وكان القوم بين يديهِ يسيرون بهِ باحتفال لهُ فاخذ العجب منهُ كل مأخذ فبادرهُ ابو عبيدة وقال (يا خالد قد فتح الله المدينة على يدي صلحًا وكفى الله المؤمنين القتال) فقال خالد (وما الصلح وقد فتحتها بالسيف وخضبت سيوف المسلمين من دمائهم) فقال ابو عبيدة (اعلم ايها الامير اني ما دخلتها الَّا بالصلح) فقال خالد (وانا ما دخلتها الَّا بالسيف عنوة وما بقي لهم حماية فكيف صالحتهم) وقد طالت المناقشة بينهما على هذا النمط وكان جيش خالد يقتل وينهب فنادى ابو عبيدة (وا ثكلاه خُفِرَتْ والله ونُقِض عهدي) وجعل يشير الى الجنود ويقول (معاشر المسلمين اقسمت عليكم برسول الله لا تمدوا ايديكم نحو الطريق الذي جئت منهُ حتى نرى ما نتفق عليهِ انا وخالد) فلما قال لهم ذلك كفّوا عن القتال. فعقدوا مجلس شورى من امراء العرب ومقدميهم فاجمعوا على ان يقبل خالد بصلح ابي عبيدة الى ان يعلموا الخليفة فينهي الامر فقبل خالد ذلك على انهُ اصرَّ على قتل توما وهربيس (هربيس قائد شجاع كان على نصف المدينة تحت امر توما) فعارضهُ ابو عبيدة وقال لهُ (لا تحتقر ذمتي فاني امنتهما) فتقدم توما وهربيس وطلبا الخروج من المدينة والتمسا ان يخرج معهما من يريد من اهلها باموالهِ فأُذن لهما بذلك بشرط ان لا يكون مع كل واحد من المهاجرين سوى قطعة واحدة من السلاح وانهم يكونون في ذمة العرب ثلاثة ايام ولا اثم على العرب اذا لحقوهم او اوقعوا بهم بعدها فسار المهاجرون آخذين معهم نساءهم واولادهم وما خفَّ من مالهم وغلا ثمنهُ وكان خالد وضرار وغيرهما ينظرون اليهم شذرًا ويأسفون على خلاصهم وبعد الثلاثة الايام لحق خالد بهم مع فرقة من اشد رجالهِ وفي مقدمتهم دليل روماني خان قومهُ في دمشق وكان عارفًا بالطرق ومخارج البلاد فجدوا السير وادركوا المهاجرين بعد ايام في مرج الديباج عند الجبال الباردة بنواحي انطاكية فقتلوا رجالهم ونهبوا اموالهم وسبوا امرأة توما بنت الملك هرقل ورجعوا ظافرين على ان خالدًا رد بنت الملك الى ابيها هدية ورجع الى دمشق . اما مدة منازلة دمشق فكانت سبعين يومًا على ما رواهُ ابو الفداء

وفي الليلة التي فيها فتح المسلمون دمشق وهي ليلة الثلاثا لثمان بقينَ من جادى الآخرة سنة ١٣ للهجرة توفي ابو بكر الصديق وولي الخلافة عمر بن الخطاب فهذا عزل خالدًا واقام ابا عبيدة على قيادة الجيش العامة في سورية واعتبر صلح ابي عبيدة لاهالي دمشق صحيحًا كما يظهر من الكتاب الآتي وهو:

«بسم الله الرحمن الرحيم . من عبد الله عمر بن الخطاب امير المؤمنين الى ابي عبيدة عامر بن الجرّاح سلامٌ عليك فاني أحمَدُ الله الذي لا اله الاّ هو واصلي على نبيهِ محمد صلى الله عليهِ وسلم . وبعد فاني وليتك امور المسلمين فلا تستحي فان الله لا يستحي من الحق واني اوصيك بتقوى الله الذي يبقى ويفنى ما سواهُ والذي استخرجك من الكفر الى الايمان ومن الضلال الى الهدى وقد استعملتك على جند ما هنالك مع خالد فاقبض جندهُ واعزلهُ عن امارتهِ ولا تنفذ المسلمين الى هلكة لاجل غنيمة ولا تنفذ سرية الى جمعٍ كثير ولا تقُل اني ارجو لكم النصر فان النصر انما يكون مع اليقين والثقة بالله واياك بالتغرير بالقاء المسلمين الى الهلكة وغض عن الدنيا عينك والهِ عنها قلبك واياك وان تهلك كما هلك من كان قبلك فقد رايت مصارعهم وخبرت سرائرهم وانما بينك وبين الآخرة ستر الخمار وقد تقدمك سلفك وانت كانك منتظر سفرًا ورحيلاً من دار مضت نضارتها وذهبت زهرتها فاحزم الناس فيها الراحل عنها لغيرها ويكون زادهُ التقوى وراع المسلمين ما استطعتَ واما الحنطة والشعير الذي وجدتَ بدمشق وكثرت في ذلك مشاجرتكم فهو للمسلمين واما الذهب والفضة ففيها الخمس والسهام واما اختصامك انت وخالد في الصلح او القتال فانت الولي وصاحب الامر وان صلحك جرى على الحقيقة انها للروم وسلم اليهم ذلك . والسلام ورحمة الله وبركاتهُ عليكَ وعلى جميع المسلمين . واما هدية ابنة الملك هرقل فهديتها الى ابيها بعد اسرها تفريط وقد كان يؤخذ في فديتها مالاً كثيرًا يرجع بهِ على الضعفاء من المسلمين والسلام عليكَ ورحمة الله وبركاتهُ .»اه . وعند وصول هذا الكتاب عمل ابو عبيدة بحسبهِ وسلك القوم كامر امير المؤمنين وطاعوا قائدهم حق الطاعة

وسادوا دمشق وضربوا عليها الجزية

وعندما حُصِرَت دمشق كان بها كثير من اليهود قاتلوا مع الرومانيين وكانوا يرمون العرب بالنبال والحجارة من اعالي الاسوار ولما فُتِحت دمشق دانوا للجزية كاهل مدينتهم وقد كان في دمشق اربعة كنائس مشهورة فما كان منها من الجهة التي دخلها ابو عبيدة بقي للنصارى يقيمون فيهِ فرائضهم حسب الشروط وما كان في الجهة التي دخلها خالد بالسيف اخذهُ المسلمون . اه . (ملخصًا عن الواقدي وغيره)

ولما فتح المسلمون مدن الشام اشرط الاهالي على انفسهم شروطاً وقدموها لامير المؤمنين عمر بن الخطاب مع عبد الرحمن بن غنم وهي المذكورة في الكتاب الآتية صورتهُ وتعرف بشروط عمر وبالعهدة العمريّة :

« بسم الله الرحمن الرحيم هذا كتاب لعمر بن الخطاب امير المؤمنين من نصارى مدينة كذا وكذا انكم لما قدمتم علينا سألناكم الامان لانفسنا وذرارينا واموالنا واهل ملتنا وشرطنا لكم على انفسنا ان لا نحدث في مدينتنا ولا فيما حولها ديرًا ولا كنيسة ولا قلاية ولا صومعة راهب ولا نحيي منها ما كان في خطط المسلمين ولا نمنع كنائسنا ان ينزلها احد من المسلمين في ليل ولا نهار وان نوسّع ابوابها للمارّة وابن السبيل وان ننزل مَنْ مرَّ من المسلمين ثلاث ليالٍ نطعمهم ولا نواري في كنائسنا ولا في منازلنا جاسوسًا ولا نكتم غشًّا للمسلمين ولا نعلم اولادنا القرآن ولا نظهر شركًا ولا ندعو اليهِ احدًا ولا نمنع احدًا من ذوي قرابتنا الدخول في الاسلام ان ارادهُ وان نوقّر المسلمين ونقوم لهم في مجالسنا اذا ارادوا الجلوس ولا نتشبّه بهم في شيءٍ من لباسهم في قلنسوة ولا عمامة ولا نعلين ولا فرق شعر ولا نتكلم بكلامهم ولا نتكنى بكناهم ولا نركب السروج ولا نتقلد السيوف ولا نتخذ شيئًا من السلاح ولا نحملهُ معنا ولا ننقش على خواتمنا بالعربية ولا نبيع الخمر وان نجز مقادم رؤوسنا وان نلزم زينا حيثما كنا وان نشد زنانير على اوساطنا ولا نظهر الصليب على كنائسنا ولا نظهر صلباننا ولا كتبنا في شيءٍ من طرق المسلمين ولا في اسواقهم ولا نضرب

نواقيسنا في كنائسنا الاضربًا خفيفًا ولا نرفع اصواتنا مع موتانا ولا نتخذ من الرقيق ما جرت عليهِ سهام المسلمين ولا نطلع عليهم في منازلهم .٪ قال فلما اتيت عمر بن الخطاب رضي الله عنهُ بالكتاب زاد فيهِ (ولا نضر باحد من المسلمين شرطنا لكم ذلك على انفسنا واهل ملتنا وقبلنا عليهِ الامان فان نحن خالفنا شيئًا مما شرطناهُ لكم وضمناهُ على انفسنا فلا ذمة لنا وقد حل لكم منا ما حل من اهل المعاندة والشقاق) (وقد روى ذلك الامام البيهقي وغيرهُ اه .) (منقولًا عن انس الجليل والمستظرف) وقيل ان عمر امر اهل الذمة بغير ذلك (اهل الذمة النصارى وغيرهم ممن دفعوا الجزية) وهو ان يجزوا نواصيهم وان يركبوا على الاكف عرضًا ولا يركبوا كما يركب المسلمون وان يشدوا الزنانير والله اعلم . وكيف كان الحال فليست هذه الشروط شريعة لان شروط الفاتحين تتغير بتغير الزمان

وفي سنة ١٥ للهجرة قسم عمر الشام الى قسمين فاعطى ابا عبيدة من حوران الى حلب وما يليها واعطى الساحل لمعاوية بن ابي سفيان وامرهُ بالخضوع لابي عبيدة . ودامت الحرب في بلاد سورية الى ان خضعت لسلطة المسلمين وفي سنة ١٨ هجرية فشا في الشام طاعون شديد فمات بهِ ابو عبيدة وخلفهُ معاذ بن جبل الانصاري فمات ايضًا بالطاعون فخلفهُ عمرو بن العاص وفي هذه السنة اتى الامام عمر بلاد الشام وقسم مواريث الذين ماتوا ورجع الى المدينة ثم سار عمرو بن العاص الى مصر ليفتحها وفي سنة ٢٠ ه توفي في دمشق بلال بن رباح موذن النبي (صلعم) فدُفِن في باب الصغير ولما توجه عمرو بن العاص لفتح مصر تولى بعدهُ على دمشق معاوية بن ابي سفيان عامل الساحل وكان يجبي الاموال من البلاد وفي سنة ٢٣ ه توفي عمر امير المؤْمنين قتيلًا رحمهُ الله في اليوم الاخير من هذه السنة ودُفِن في اليوم الاول من سنة ٢٤ ه بازاء النبي (صلعم) في المدينة المنورة وفي اليوم الثالث من موتهِ خلفهُ عثمان فاقر معاوية على الشام وكان معاوية يقيم في دمشق ويدبر مهامها وجعلها عاصمة ولايتهِ فازداد عدد سكانها وعظم شانها وكان العرب يتواردون اليها من جميع الانحاء وكان ما يرغبهم في سوريا وخصوصًا

دمشق كثرة اثمارها ومياهها وجودة تربتها وهوائها واتساع اراضيها ونضارتها ومع كل رغبة العرب فيها كانوا يقولون من خرج الى الشام نقص عمرهُ وقلّة نعيمهُ

وفي سنة ٢٧ ﻫ سيّر معاوية جنودهُ بامر الخليفة عثمان (ضه) الى قبرس فقتل وسبى من اهلها ثم صالحهم على ان يدفعوا كل سنة سبعة آلاف دينار جزية ورجع الى الشام وفي سنة ٣٣ﻫ تكلم جماعة في الكوفة ضد عثمان فامر عثمان بابعادهم الى الشام فاتوا دمشق وما لبثوا ان تطاولوا على معاوية وكادوا يثيرون فتنة فامر عثمان بارجاعهم من حيث اتوا فارجعوا وفي ١٨ ذي الحجة سنة ٣٥ قتل عثمان (رح) في مكة وخلفهُ علي (ضه) فثارت الفتن في الممالك الاسلامية ووقع الخُلف بين الناس وابى ان يكون معاوية على الشام لتمكنهِ منها فوجه اليها بسهل بن حنيف الانصاري ولما وصل تبوك لقيتهُ خيل فقالوا مَنْ انت قال اميرٌ على الشام قالوا ان كان بعثك غير عثمان فارجع على عقبك قال وما سمعتم بما جرى اجابوا بلى ولا نقبل علينا الاَّ معاوية فرجع سهل الى علي وبقي معاوية على الشام وعاصمة ولايتهِ دمشق

وانقسم الملك بعد قتل عثمان الى قسمين فكان قوم يطالبون بدمهِ وقوم ينتصرون لعلي وكان معاوية عامل دمشق رأس المتحزبين لعثمان وكان عمرو بن العاص في ايام عثمان عاملاً على مصر وعُزِل عنها فاتى وسكن الشام ولما بلغهُ وفاة عثمان كتب الى معاوية يحضهُ على ان يثأَر بدم عثمان فبعث اليهِ معاوية ان يبايعهُ فابى الاَّ اذا اعطاهُ مصر طعمة فاجابهُ كما تروم فقال عمرو:

معاويَ لا اعطيك دَيني ولم انل ... بهِ منك دَنيًا فانظرنْ كيف تصنعُ
فان تعطني مصرًا فاربح صفقة ... اخذتَ بها شيخًا يضرُّ وينفعُ

وبلغ عليًّا ذلك فخرج من الكوفة بجنودهِ وعددها تسعون الف مقاتل فسار معاوية من دمشق للقائهِ بخمسة وثمانين الفًا وكان ذلك سنة ٣٦ ﻫ فالتقى الجيشان بصفين وانقدت بينهما نار الوغى واقاموا بصفين مئة وعشرة ايام جرى بها تسعون واقعة قتل بها من الجانبين سبعون الفًا وكانت الحرب سجالاً ثم كفوا

عن الحرب واتفق معاوية وعلي على التقاضي الى الكتاب العزيز وعيّنا يومًا لذلك وحكّما من كل فريق فاجتمع الحكمان واتفقا على خلع علي ومعاوية وان يوليَ الناس خلافهما من شاءوا وذهبا ليصرّحا بحكمهما امام الجموع فصرّح اولاً ابو موسى نائب علي وقال ايها الناس انّا لم نرَ اصلح لامر هذه الامة من امرٍ قد اجتمع عليهِ رايي وراي عمرو وهو ان نخلع عليًا ومعاوية وولوا عليكم من رايتموهُ لهذا الامر اهلاً . وتنحى . واقبل عمرو نائب معاوية وقال ان هذا قد قال ما سمعتم وخلع صاحبهُ وانا اخلع صاحبهُ واثبت صاحبي فانهُ ولي عثمان والطالب بدمهِ واحق الناس بمقامهِ فقال لهُ ابو موسى لا وفقك الله غدرتَ وفجرتَ وركب ابو موسى ولحق بمكة حياءً من الناس وانصرف عمرو واهل الشام الى معاوية وسلموا عليهِ بالخلافة ومن ذلك الوقت اخذ امر علي بالضعف وامر معاوية بالقوة وجرى هذا سنة ٣٧ هجرية

نبذة من تاريخ الدولة الامويّة

لحسن اقليم سوريا وكثرة خصبهِ وغزارة مياههِ وحسن هوائهِ وجودة تربتهِ لم يُقضَ عليهِ بالخراب بعد ان جرى فيهِ من الدم انهار بل ظلّ عامرًا سكونًا واتاهُ العرب افواجًا افواجًا فازداد عدد سكانهِ ورجع كما كان في ايام تولي الرومان عليهِ كأن لم يحدث بهِ من التغيير الاّ نقل حكومتهِ لايدي قوم اعدل من اسلافهم وانتشار الاسلام في انحائهِ

ولفضل دمشق عما سواها من مدن سوريا وحسن موقعها الطبيعي والتجاري فازت باعظم نصيب من رفعة الشان فعوضًا من ان تكون تابعة لغيرها اصبحت عاصمة مملكة عظيمة وهي مملكة المسلمين الاولى وقد اعتنى بها الامويون فجعلوها من افخر المدن واعلاها قدرًا فرجعت الى عصر الصبا بعد ان شابت ذوائبها بتقلبات الزمان

اما واضع اسس الدولة الاموية في دمشق فهو معاوية بن ابي سفيان المذكور

آنفًا وما لبث ان سلم عليهِ اهل الشام بالخلافة حتى وضع نصب عينهِ اخضاع جميع الممالك الاسلامية فجهز عمرو بن العاص سنة ٣٨ ه وارسلهُ الى مصر فحلَّ عليها وفتحها وكان علي على العراق فجعل معاوية يرسل اليهِ المغازي وينهب ويخرب ويسبي حتى اقلق الاهالين وسلب راحتهم . وفي سنة ٤٠ سيَّر بشر بن ارطة في عسكر الى الحجاز فاتى بشر المدينة المنورة ودخلها واستكره الناس على البيعة لمعاوية بعد ان سفك فيها الدماء ثم سار الى اليمن وغزا بها وذبح الوفا من اهلها. وفي اثناء ذلك اتفق ثلاثة من العرب على قتل معاوية والامام علي وعمرو بن العاص لتستريح الامة واتفقوا ان يحملوا في ليلة واحدة على من اضمروا لهم السوء وهي ليلة ١٧ من رمضان سنة ٤٠ ه فمن ذهب الى علي تمكن منهُ وقتلهُ والذي قصد معاوية الى دمشق وضربهُ فجرحهُ فأُلقي القبض عليهِ واتي بهِ الى امام معاوية فسالهُ معاوية ما فعلت فقال جئتك مبشرًا بقتل علي فقال معاوية وتحاول قتلي وامر بهِ فقتلوهُ واما الذي ذهب لقتل عمرو بن العاص فوصل الى مصر وقتل غير عمرو غلطًا

وبعد مقتل الامام علي (رح) بايع قومهُ ابنهُ الحسن فعلم بذلك معاوية وجهَّز جيشًا لمحاربتهِ فسار الحسن للقائهِ باربعين الف مقاتل على انهُ وقع في جيشهِ خلف وسرت فيهِ فتنة فاتصل خبرها بهِ فقال لا سبيل لنا على معاوية وانّا لعالمون عجزنا في محاربتهِ ثم ارسل لمعاوية كتابًا بالتسليم تحت شروط فقبل معاوية الشروط الاَّ قليلاً منها. ثم سار الى الكوفة فبايعهُ اهلها في ربيع الاوّل سنة ٤١ ه وفي سنة ٤٨ ه وجه عساكرهُ لمحاربة القسطنطينية فرجعوا خائبين وقد اهلكت الحراريق الرومانية عددًا وافرًا منهم وفي سنة ٥٦ دعا الناس لمبايعة ابنهِ يزيد بولاية العهد فبايعهُ اهل الشام والعراق على ان اهل الحجاز ابوا ذلك فسار اليهم بالجيوش واجبرهم على المبايعة وكر راجعًا وفي رجب سنة ٦٠ توفي ودُفِن في باب الصغير وقبرهُ معروف وخلفهُ ابنهُ يزيد .

وقد اسلم معاوية مع ابيهِ سنة الفتح واستكتبهُ النبي واستعملهُ عمر على الشام

اربع سنين من خلافتهِ واقرهُ عثمان اثنتي عشرة سنة مدة خلافتهِ واستولى بعدها على الشام مدة اربع سنين فكانت مدة امارتهِ فيها ٢٠ سنة وفي سنة ٤١ بايعهُ الناس بالخلافة التامة فصار امير الممالك الاسلامية كلها وبقي خليفة الى حين موتهِ وكان حليمًا حازمًا عالمًا بسياسة الملك . وقد فتح حروبًا ومغازي كثيرة يطول شرحها

في سنة ٦٠ ه لما استولى يزيد على عرش دمشق عزم اهل الكوفة على خلع طاعتهِ وارسلوا ودعوا بالحسين ليبايعوهُ الخلافة فانفذ الحسين اليهم من يبايعوهُ نيابةً عنهُ فاغضب الامرُ يزيدَ واشعل غيظهُ فارسل وقاتل الحسين وقومهُ في نواحي بغداد فتغلب جيشهُ وقُتِل الحسين وأُتي بالنساء والاطفال سبايا الى دمشق فارجعهم يزيد الى المدينة المنوَّرة وفي سنة ٦٢ ه اتفق اهل المدينة على خلعهِ فوجه لهم من دمشق قومًا فتغلب عليهم واعادهم الى طاعتهِ وفي ١٤ ربيع الاول سنة ٦٤ كان يزيد بجوارين من اعمال حمص فدهمتهُ المنية بها فنُقِل الى دمشق ودُفن فيها وكانت مدة خلافتهِ اربع سنين وتسعة اشهر

وبويع بعد يزيد ابنهُ معاوية الثاني وكان ضعيف العزم والراي لا يقدر على ادارة المملكة فتنحى عن الخلافة ومات بعد جلوسهِ بثلاثة اشهر

ولما مات معاوية قوي عبد الله بن الزبير في مكة فبايعهُ اهلها واهل مصر واكثر الامصار وبعض اهل الشام وكاد يتم لهُ امر الخلافة فاقام على الشام الضحاك نائبًا عنهُ وكان مروان بن الحكم وهو الرابع من خلفاء بني امية بالشام فمال اليهِ اليمانية ومال القيسية الى الضحاك وجرت مشاحنات كثيرة بين الحزبين والتقيا في مرج راهط بغوطة دمشق واقتتلا فانكسر قوم الضحاك فدخل مروان دمشق ونزل بدار معاوية فاتاهُ الناس ومال اليهِ عمال الشام واستقر على عرش دمشق وفي الثالث من رمضان سنة ٦٥ خنقتهُ زوجتهُ بنت يزيد بن معاوية ودفن في دمشق وكانت مدة خلافتهِ تسعة اشهر وثمانية عشر يومًا

وفي يوم وفاة مروان بويع ابنهُ عبد الملك وكان عالي الهمة استرجع العراق والحجاز واليمن وضرب النقود وهو اول من ضرب السكة في الاسلام توفي في

دمشق في منتصف شوال سنة ٨٦ ولهُ من العمر ستون سنة وكانت مدة خلافتهِ منذ قتل ابن الزبير واجتمع لهُ الناس ١٣ سنة واربعة اشهر وكان حازمًا عاقلاً فقيهًا عالمًا

ويوم توفي عبد الملك بويع ابنهُ الوليد بالخلافة وكان مغرمًا بالبناء فامر ببناء جامع دمشق (هو الجامع الاموي المعروف) واتاهُ بالصنّاع من بلاد الروم وبلاد الاسلام فانى جامعًا لا مثيل لهُ كلفت نفقتهُ على ما قيل الف الف ريال قال ابو الفداء وكان بجانب الجامع كنيسة سلمت للنصارى بسبب انها في نصف البلد الذي أُخِذَ بالصلح يوم الفتح وكانت تُعرَف بكنيسة ماريوحنا فهدمها الوليد وادخلها في الجامع . انتهى . وقال المسعودي في مروج الذهب وفي سنة ٨٩ هجرية ابتدأ الوليد ببناء المسجد الجامع بدمشق ومسجد الرسول (صلعم) في المدينة فانفق عليها الاموال الجزيلة وكان المتولي للنفقة على ذلك عمر بن عبد العزيز. قال . وحكى عثمان بن مرة الخولاني قال لما ابتدأ الوليد ببناء المسجد بدمشق وجد في حائط المسجد لوحًا من حجارة فيهِ كتابة باليونانية فعُرض على جماعة من اهل الكتاب فلم يقدروا على قراءتهِ فوجههُ الى وهب بن منبه فقال هذا مكتوب من ايام سليمان فقرأ فاذا فيهِ (بسم الله الرحمن الرحيم يا ابن آدم لو عاينت ما بقي من يسير اجالك لزهدت في ما بقي من طول املك وقصرت عن رغبتك وحيلك وانما تُلْقي قدمك اذا زلت بك القدم واسلمك اهلك وانصرف عنك الحبيب وودعك القريب ثم صرت تدعي فلا تجاب فلا انت الى اهلك عائد ولا في شغلك زائد فاغتنم الحياة قبل الموت والقوت قبل الفوت قبل ان يؤْخذ منك بالكظم ويحال بينك وبين العمل . وكتب في ايام سليمان بن داود . اه) قال ولما تم بناء المسجد امر الوليد بان يكتب بالذهب على اللازورد على حائط المسجد ربنا الله لا نعبد الاّ الله امر ببناء هذا المسجد وهدم الكنيسة التي بجانبهِ عبد الله الوليد امير المؤمنين في سنة سبع وثمانين (كذا ذكرهُ المسعودي في مروج الذهب)

وفي جادى الآخرة سنة ٩٦ هـ توفي الوليد بدمشق ودُفِن في مقبرة باب الصغير وكانت مدة خلافتهِ تسع سنين وسبعة اشهر وقد بنى ابنية كثيرة في دمشق وغيرها

ويوم توفي الوليد كان اخوهُ سليمان بالرملة فبلغهُ خبر اخيهِ فقصد دمشق وبلغها بسبعة ايام فبويع الخلافة واحسن السيرة بالرعية واتخذ ابن عمهِ عمر بن عبد العزيز وزيرًا وسنة ٩٨ خرج سليمان بجنودهِ لغزو بلاد الروم فدخل بلادهم ووجه اخاهُ مسلمة لحرب القسطنطينية فحل عليها وحصرها مدة على غير طائل فرجع عنها وفي صفر سنة ٩٩ توفي سليمان بدابق من نواحي قنسرين ومدة خلافتهِ سنتان وثمانية اشهر وقبل موتهِ اوصى بالخلافة لعمر بن عبد العزيز بن مروان بن الحكم بن ابي العاص بن امية بن عبد شمس بن عبد مناف

وفي صفر سنة ٩٩ بويع عمر بالخلافة وتوفي سنة ١٠١ هـ بدير سمعان نواحي معرة النعمان فبويع بعدهُ يزيد الثاني بن عبد الملك بن مروان بن الحكم وكانت مبايعتهُ في شهر رجب بعهد من سليمان حيث اوصى ان يزيد يكون خليفة لعمر وبعد ان استقر يزيد على عرش الخلافة في دمشق اربع سنين وشهرًا مات اثر موت حبابة محبوبتهِ. قيل ان يزيد خرج بحبابة للتنزه في بيت راس من قرى وادي بردى وكانت تغني لهُ وهو مطروب من غنائها فاتوهُ برمان من بيت راس مشهور بكبر حبهِ فشرقت حبابة بحبة منهُ فماتت قبل انتصاف النهار فراح حزينًا عليها ولحقها بعد سبعة عشر يومًا كمدًا وحسرة. ودُفِن بدمشق

ثم بويع هشام وكان في نواحي الرصافة فاتاهُ البريد بخبر مبايعتهِ فاتى دمشق ثم رجع الى الرصافة وفي ٦ ربيع الاوّل سنة ١٢٥ توفي ودُفِن بالرصافة وكانت مدة خلافتهِ ١٩ سنة وتسعة اشهر وفي ايامهِ عصت الكوفة بواسطة زيد بن الحسين فتغلب هشام عليها وكان من المشهورين بالسياسة بين بني أُميَّة وكان حازمًا سديد الراي غزير العقل مات عن عدة بنين منهم عبد الرحمن مؤسس الدولة الاندلسية في اسبانيا

ثم تولى الخلافة الوليد الثاني بن يزيد بن عبد الملك بن مروان وكان مولعًا بشرب الخمر كريمًا سخيًّا وفي السنة الثانية من خلافتهِ صار وباء في دمشق وهو خارجها فخرج عاملة بها الى قطنا فعمل يزيد الثالث بن الوليد بن عبد الملك موامرة سرية لخلعهِ فاجتمع لهُ قوم فوثق بهم وقصد دمشق متخفيًا فدخلها ليلاً فبايعهُ اكثر اهلها واجتمع اليهِ الجند وغيرهم ثم جهز جيشًا لمحاربة الوليد بن يزيد تحت قيادة عامل الوليد نفسهِ فعلم الوليد وهو بالاعزف من عمسان فاتى بجنودهِ الى البخرة الى قصر النعمان بن بشير وهناك اقتتل جيش الوليد وجيش يزيد فانكسر جيش الوليد وقتل الوليد نفسهُ فقُطع راسهُ ورُفع على راس سنان واتي بهِ الى يزيد فامران يُطاف بهِ في دمشق وكان قتل الوليد في ٢٨ جمادى الآخرة ومدة خلافتهِ سنة واحدة وثلاثة اشهر

فاستقل يزيد بالخلافة وكان يلقَّب بالناقص بويع في دمشق في ٢٨ جمادى الآخرة سنة ١٢٦ هـ فاظهر اهل حمص العصيان ونهبوا والي مدينتهم وساروا قاصدين دمشق فارسل يزيد جيشًا لردعهم فالتقى العسكران قرب ثنية العقاب فانكسر جيش حمص فرجعت المدينة خاضعة ليزيد ثم عصى اهل فلسطين فحاربهم واخضعهم واخذ البيعة منهم في طبرية ثم عصاهُ اهل خراسان وفي النهاية اظهر لهُ الخلاف مروان بن محمد وعمل على خلعهِ وفي ٣٠ ذي الحجة سنة ١٢٦ توفي في دمشق فقام بالامر بعدهُ اخوهُ ابرهيم اربعة اشهر بدون ان يقر قرار الخلافة عليهِ

وسنة ١٢٧ سار مروان بن محمد بن مروان بن الحكم امير ديار الجزيرة الى الشام لخلع ابرهيم بن الوليد ولما وصل الى قنسرين اتفق مع اهلها فساروا معهُ ووصل الى حمص فاتفق مع اهلها فساروا معهُ بعد ان بايعوهُ ولما اقترب من دمشق بعث ابرهيم لمقاتلتهِ بمئة وعشرين الف مقاتل تحت قيادة سليمان بن هشام بن عبد الملك وكان مع مروان ٨٠ الف مقاتل فاقتتل الجيشان من الضحى الى العصر فانكسر جيش سليمان وتقهقر ودخل دمشق ولما عرف ابرهيم

بانكسار جنوده هرب واختفى فنهب سليمان بن هشام قائد الجيوش بيت المال وقسمهُ على اصحابهِ وهرب من المدينة فاتى مروان اليها ودخلها واستقرَّ بها

ومروان هذا هو ابن محمد بن مروان بن الحكم بويع بالخلافة يوم الاثنين رابع عشر شهر صفر سنة ١٢٧ وهو الرابع عشر من خلفاء بني امية وآخرهم فلما استقر له الحال في دمشق رجع الى منزلهِ بحران وفي ايامهِ تضعضعت احوال المملكة وفسدت ادارتها واختل نظامها فآل الامر الى سقوطها التام . ففي سنة ولاية مروان عصاهُ اهل حمص فسار اليهم وكسرهم وخرب جانبًا من سورمدينتهم ثم عصاهُ اهل غوطة دمشق وولوا عليهم يزيد بن خالد القسري وحصروا دمشق وضيقوا عليها فارسل لردعهم عشرة آلاف مقاتل تحت قيادة ابن الوردي فلما وصل الى دمشق رفع عنها الحصار وشتت شمل اهل الغوطة ونهبهم واحرق المزة وغيرها من القرى . ثم عصاهُ اهل فلسطين فحمل عليهم ابن الوردي وشتت شملهم . ثم سار مروان الى قرقيسيا لخلعهِ سليمان بن هشام بن عبد الملك واجتمع لسليمان من اهل الشام ٧٠ الف مقاتل فعسكر بهم بقنسرين فسار اليهِ مروان واقتتلا فانكسر سليمان واتى حمص فمال اليهِ اهلها وعصوا مروان فاتاهم مروان وضيق عليهم فاستامنوا اليهِ فامنهم

وكان بنو العباس في بلاد خراسان يثيرون الفتنة ضد الامويين فمال اليهم الناس هناك فتمكنوا في تلك الاطراف وتغلبوا على عمّال مروان ثم امتدوا الى الكوفة فتمكنوا منها فقويت شوكتهم ومال اليهم الناس وفضلوهم عمن سواهم . وفي سنة ١٣٢ بايع اهل تلك البلاد ابا العباس السفاح بالخلافة وهو عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس

ولما قوي امر العباسيين جهز مروان جيشًا عددهُ مئة وعشرون الف مقاتل وسار الى الزَّاب فاتتهُ عساكر السفاح وعددها عشرون الف مقاتل فقطع مروان الزاب بجندهِ واجتمع بعسكر السفاح واقتتلا فوقع خلل وخلف في عسكر مروان فالتزم ان ينهزم فقتل وغرق كثير من عسكرهِ . وخسر مهمات

وافرة تقوى بها جيش السفاح وكان ذلك في جادى الآخرة سنة ١٣٢ ثم سار مروان الى الموصل مكسورًا فانكرهُ اهلها فرحل الى حران فتبعهُ عبد الله بن علي قائد عساكر السفاح فانهزم مروان من حران الى حمص ثم الى دمشق واذ لم يقدر ان يستقر بها رحل الى فلسطين فاتى عبد الله الى دمشق وحاصرها اشد حصار وضيق عليها وحاربها باتصال وفي ٥ رمضان سنة ١٣٢ تمكن منها وفتحها عنوةً وقتل كثيرًا من اهلها من جملتهم الوليد والي المدينة ثم طارد قوم السفاح مروانَ وكان يهرب منهم الى ان ادركوهُ في بصير ببلاد الصعيد فقطعوا راسهُ في ٣ ذي الحجة سنة ١٣٢ وارسلوهُ الى السفاح . ولما سقطت دمشق بيد السفاح تمكن من بني امية وقتل منهم خلقًا كثيرًا ولم يفتهُ الّا القلائل منهم عبد الرحمن بن مروان مؤسّس الدولة الاندلسية . ثم اظهر اهالي دمشق العصيان على السفاح فاتاهم قائد جندهِ واعادهم الى الطاعة وقد لحق بدمشق خراب عظيم بهذه الحادثة وتهدم جانب من مبانيها النفيسة التي اقامها الامويون واخذامرها في الانحطاط

وقد تقدمت دمشق في زمن الامويين غاية التقدم واقيم بها من الابنية الجميلة ما يستحق الاعتبار وحصل النصارى على الراحة في ايام بعض خلفائها ودخل بعضهم خدمتها ورقوا اعظم المراتب وارفعها ومن الذين تقدموا القديس يوحنا الدمشقي ووالدهُ . وكانت الصنائع ناجحة والتجارة رائجة لموافقة مركز دمشق فانها ورثت تدمر واضحت مقصدًا للناس من جميع انحاء الممالك الاسلامية الممتدة

وكانت مدة الدولة الاموية بدمشق منذ يوم بويع معاوية بالخلافة الى ان سقطت ٩١ سنة وعدد من تولاها منهم ١٤ خليفة اولهم معاوية وآخرهم مروان الثاني

فصل

في تاريخ دمشق من حين استولى عليها العباسيون الى ان خضعت للسلطان صلاح الدين الايوبي

لما فتح السفاح دمشق جعلها مركز معاملة بعد ان كانت عاصمة مملكة

عظيمة ممتدة في اسيا وافريقيا امتدادًا شاسعًا واول والٍ وضعهُ عليها العباسيون هو عبد الله بن عليٍ بن عبد الله بن عباس عم السفاح فظل هذا عاملاً على دمشق الى ان مات السفاح وخلفهُ المنصور فادّعى عبد الله الخلافة على الشام فارسل اليهِ المنصور جيشًا وتغلب عليهِ واعتقلهُ ووضع على الشام غيرهُ

وسنة ١٧٦ هـ ثارت فتنة عظيمة في دمشق بين المضرية واليمنية دامت اربع سنين وسنة ١٨٠ بعث الرشيد بجعفر بن يحيى الى دمشق من اجل هذه الفتنة فاتاها وسكّن الثائرين ورجع . وبعد ذلك ضمت الشام الى ولاية مصر .
وسنة ٢١٥ وسنة ٢١٦ هـ حمل الخليفة المأمون على الروم دفعتين فمر بدمشق واقام بها اياماً

وسنة ٢٢٧ وهي سنة وفاة المعتصم وخلافة ابنهِ الواثق ثارت القيسية بدمشق وعثوا وافسدوا . فاتاهم رجا بن ايوب بامر الخليفة الواثق وتغلب عليهم وقتل منهم الفًا وخمس مئة وسكن الفتنة ورجع . وفي ذي القعدة سنة ٢٤٣ هـ سار الخليفة المتوكل من بغداد نحو دمشق وفي صفر سنة ٢٤٤ وصل اليها ودخلها وعزم على الاقامة فيها ونقل دواوين الملك اليها فقال يزيد بن محمد المهلبي

اظن الشام يشمت بالعراقِ   اذا عزم الامام على انطلاقِ
فان تدع العراق وساكنيهِ   فقد تبكي المليحة بالطلاقِ

وبعد ان لبث الخليفة المتوكل مدة بدمشق استوبأها واستثقل ماءها فرحل عنها وكان مقامهُ بها شهرين واياماً

وسنة ٢٥٢ هـ في ايام الخليفة المعتز ولي عيسى بن الشيخ على الرملة ولما راى فتنة الاتراك بالعراق سولت لهُ نفسهُ الاستقلال في سوريا فتغلب على دمشق واعمالها وقطع ما كان يحمل من الشام الى الخليفة وبقي على الشام الى خلافة المعتمد على الله فعزل سنة ٢٥٦ هـ وولي عوضاً عنهُ اماجور فهذا استولى على الشام بعد ان جرى بينهُ وبين اصحاب عيسى اشد قتال وسنة ٢٦٤ هـ توفي وكان احمد بن طولون قد تقوى في مصر وخلع طاعة العباسيين فطمع في الاستيلاء على

بلاد الشام فسار بجيوشهِ واتى دمشق واستولى عليها ثم استولى على حمص وحماه وحلب وفتح انطاكية عنوةً وسار الى طرطوس فاشتد بها الغلاء فرجع الى الشام فصارت دمشق وسورية ملكاً للطولونيين الذين استبدوا في مصر

وسنة ٢٧٠ ﻫ تولى خمارويه عوضاً عن ابيهِ احمد بن طولون فانتقضت عليهِ دمشق فبعث اليها بعساكرهِ فعادت الى طاعتهِ ثم اتت عساكر بغداد لطرد خمارويه وكانت تحت قيادة المعتضد فدخل جند المعتضد دمشق في شعبان سنة ٢٧١ﻫ وتبع المعتضد خمارويه الى الرملة وكسرهُ ثم ان خمارويه لمّ شعث جنودهِ وكرّ على المعتضد فكسرهُ فتقهقر المعتضد ورجع الى دمشق فلم يقبلهُ اهلها فرحل عنها فرجعت الى خمارويه الطولوني . وسنة ٢٨١ ﻫ سار طغج والي دمشق من قبل الطولونيين بجيش لمحاربة الروم ففتح في بلادهم وسبي وعاد الى دمشق وكانت مقرًّا لخمارويه وسنة ٢٨٢ ﻫ قتل خمارويه بن احمد بن طولون في دمشق قتلهُ خدمهُ وبايعوا ابنهُ جيشاً وكان صبيًّا وسنة ٢٨٣ﻫ خلع طغج سيدهُ جيشاً لصباهُ بعد مبايعتهِ بتسعة اشهر وبايع مكانهُ اخاهُ هرون بن خمارويه وبقي طغج حاكماً في دمشق وسنة ٢٨٤ ﻫ اختل حال هرون في مصر وانحل نظام مملكتهِ فاستبد طغج بدمشق

وسنة ٢٨٩ ﻫ حمل القرامطة على الشام فكانت حروب بينهم وبين طغج قال ابن خلدون . وانكسر طغج في كل حروبهِ مع القرامطة وسنة ٢٩٠ ﻫ تقوى القرامطة على دمشق فصالحهم اهلها على مال دفعوهُ لهم فانصرفوا عنهم وسنة ٢٩٢ ارسل الخليفة المكتفي جيشاً مع محمد بن سليمان الى دمشق فاستولى عليها ثم سارت عساكر المكتفي الى هرون في مصر فقُتِل هرون . وظهر في تلك السنة الخليجي في مصر وقويت شوكتهُ فذهب اليهِ احمد بن كيغلغ عامل دمشق فطمعت القرامطة بدمشق لغياب عاملها فقصدوها ودخلوها ونهبوا وقتلوا بها خلقاً كثيرًا ثم ساروا الى طبرية ونهبوها وساروا عنها قاصدين جهات الكوفة . وسنة ٣١٨ تولى الاخشيد دمشق بامر الخليفة الراضي وكان احمد بن كيغلغ على مصر فعزِل

فصارت مصر والشام للاخشيد وصار الاخشيد يقيم في مصر ويقيم على دمشق نائبًا من قبلهِ . وسنة ٣٢٧ استولى ابن رائق على الشام وكان معاندًا للخليفة في بغداد فاخضع دمشق وحمص وطرد بدرًا نائب الاخشيد وسار حتى بلغ العريش فخرج اليهِ الاخشيد وجرى بينهما قتال شديد فانكسر ابن رائق الى دمشق ثم جهز الاخشيد جيشًا وارسلهُ لمحاربة ابن رائق فلاقاهُ ابن رائق واقتتلا فانهزم عسكر الاخشيد وقُتل اخوهُ فارسل ابن رائق يعزي الاخشيد باخيهِ ويقول لهُ ان اخاك لم يُقتَل بامري وهوذا ابني مزاحم مرسلهُ لك فاقتلهُ باخيك ان شئت فرقَّ الاخشيد وخلع على مزاحم واعادهُ لابيهِ فانتهى الخلف واستقرت الشام لمحمد بن رائق ومصر للاخشيد . وسنة ٣٢٩ سار ابن رائق الى بغداد واستخلف عنهُ بدمشق ابا الحسن بن مقاتل . وفي ٢٢ رجب سنة ٣٣٠ قتل ابن رائق فبلغ الاخشيد قتلهُ فسار الى دمشق واستولى عليها ووضع فيها نائبًا ورجع الى مصر . وسنة ٣٣٣ استولى سيف الدولة على حلب وحمص وسار الى دمشق والقى عليها الحصار فلم يتمكن منها فرجع عنها وكان الاخشيد قد خرج لمحاربة سيف الدولة لما سمع بقدومهِ على دمشق فالتقيا بقنسرين واقتتلا فلم يظفر احدهما بالآخر فذهب الاخشيد الى دمشق ورجع سيف الدولة الى حلب . وسنة ٣٣٤ مات الاخشيد في دمشق فولي بعدهُ ابنهُ ابو القسم محمود . واذ كان ابو القسم صغيرًا قام بالامر كافور الاسود خادم الاخشيد وسار كافور بعد موت سيدهِ الى مصر فعرف سيف الدولة بذلك فسار الى دمشق وملكها واقام بها . وخرج يومًا للتنزه في غوطتها ومعهُ الشريف العقيقي فقال لهُ سيف الدولة ما تصلح هذه الغوطة الّا لرجل واحد فاجابهُ العقيقي هي لاقوام كثيري العدد فقال سيف الدولة لواخذتها القوانين السلطانية لتبرأوا منها فاعلم العقيقي اهل دمشق بذلك فكرهوا سيف الدولة وكاتبوا كافورًا يستدعونهُ فجاءهم فاخرجوا سيف الدولة من ديارهم فرحل الى حلب واما كافور فرجع الى مصر واقام على دمشق بدرًا الاخشيدي فاقام فيها بدر سنة وخلفهُ ابو المظفر بن طغج . وسنة ٣٣٩ توفي

محمد الغازالي العلاّمة المشهور بدمشق بعد ان لبث بها مدة

وبقيت سورية تابعة للعائلة الاخشيدية في مصر الى ان استقرت لكافور عبد الاخشيد اما حلب وجهاتها فلم ترجع لحكومة مصر بعد ان اخذها سيف الدولة وفي ٢٠ جمادى الاولى سنة ٣٥٧ مات كافور في مصر وكان يخطب له على المنابر في مكة والحجاز والديار المصرية والشامية خلا حلب وتوابعها وعاصر كافورًا ابو الطيب المتنبي وله فيهِ مدائح كثيرة وهجو شديد فمن مدائحهِ له قصيدتهُ التي مطلعها

كفى بك داء ان ترى الموت شافيا وحسب المنايا ان يكنَّ امانيا

وقصيدتهُ التي مطلعها

من الجآذر في زيّ الاعاريبِ حُمْرُ الحلى والمطايا والجلابيبِ

ومن هجوهِ لهُ قولهُ

من اية الطرق ياتي مثلك الكرمُ اين المحاجم يا كافور والجلمُ

جاز الاولى ملكت كفّاك قدرهمُ فعُرفوا بك ان الكلب فوقهمُ

وبعد موت كافور ولي الامر ابو الفوارس احمد بن علي بن الاخشيد . وفي السنة الثانية من ولايتهِ ارسل المعز العلوي جيشًا جرارًا الى الديار المصرية تحت قيادة جوهر غلام والدهِ منصور فاستولى عليها وفي شوال أُقيمت الدعوة للمعز وقوي جوهر بمصر ولما راق له حالها سير جيشًا كبيرًا مع جعفر بن فلاح الى الشام فبلغ الرملة واستولى عليها بعد حروب ثم رحل الى طبرية فوجد اهلها مقيمين الدعوة للمعز فرحل عنها الى دمشق فقاتلهُ اهلها فظفر بهم وملك المدينة ونهب بعضها واقام الخطبة للمعز لدين الله العلوي وقطع الخطبة العباسية وكان ذلك في محرم سنة ٣٥٩ وعند اقامة الخطبة العلوية حدثت فتنة بين اهالي دمشق وجعفر القائد العلوي ووقعت بينهما حروب عنيفة وقطع الاهالي الخطبة العلوية واخيرًا عاد جعفر واستظهر على الدماشقة واقام الخطبة لسيدهِ واخضع المدينة حتى الخضوع للمعز لدين الله العلوي وسنة ٣٦٠ وصل القرامطة الى دمشق وبلغ خبرهم جعفرًا

نائب المعز فاستهان بهم فوقعوا عليهِ بخارج دمشق وقتلوهُ وملكوا المدينة وامنوا اهلها ثم ساروا الى الرملة وملكوها كدمشق فانضم اليهم جماعة من الاخشيدية وقصدوا مصرًا واقتتلوا مع المغاربة فانتصر اولاً القرامطة ثم المغاربة فرجع القرامطة الى الشام وكبيرهم الحسن بن احمد بن بهرام . وسنة ٣٦٣ هجرية سار القرامطة نحو مصر فتغلب عليهم المعز لدين الله فرحلوا عن الشام فارسل المعز القائد ظالم بن موهوب العقيلي الى دمشق فدخلها وعظم حالهُ بها وكثرت جموعهُ وما لبث الاّ ووقعت الفتن في دمشق بين المغاربة وعاملهم المذكور ودامت الى سنة ٣٦٤ فراق الحال وولي على دمشق ريان الخادم . وسنة ٣٦٥ سار افتكين احد موالي معز الدولة الى حمص ثم الى دمشق واتفق مع اهلها فاخرجوا اميرهم ريان وفي شهر شعبان قطعوا خطبة المعز لدين الله واستولى افتكين على دمشق فعزم المعز العلوي على قتال افتكين فادركتهُ المنية وتولى ابنهُ العزيز عوضًا عنهُ فجهز القائد جوهرًا الى الشام فوصل جوهر الى دمشق وحصر افتكين بها فارسل افتكين الى القرامطة ليعينوهُ فساروا الى دمشق ولما اقتربوا منها رحل عنها جوهر راجعًا الى مصر فتاثرهُ افتكين والقرامطة وانضم اليهما خلق كثير فادركوهُ نواحي الرملة فرأى ضعفهُ فدخل عسقلان فحصروهُ بها واشتد الجوع بالمدينة فبذل جوهر لافتكين مالاً جزيلاً فرحل افتكين عنهُ وسار جوهر الى مصر واعلم العزيز بما كان فخرج العزيز الى الحرب وسار الى الشام فوصل الى ظاهر الرملة فاتاهُ افتكين والقرامطة ودارت بينهم رحى الحرب فانكسر افتكين ومن معهُ وأعمل العزيز فيهم القتل والاسر وجعل لمن يحضر اليهِ افتكين مئة الف دينار وهرب افتكين عقب المحاربة حتى نزل بيت مفرج بن دغفل فامسكهُ مفرج واخبر العزيز وقبض منهُ المال ومن ثمَّ سلم افتكين لرسل العزيز اما العزيز فاكرم افتكين واطلق لهُ اسراهُ واجزل نعمتهُ واخذهُ معهُ الى مصر وظل بها في نعمة العزيز حتى مات

وبعد ان اخذ افتكين الى مصر تغلّب على الشام قسام احد اتباع افتكين وصار

يخطب للعزيز فاقرهُ وفي سنة ٣٦٨ اتى ابو تغلب من الموصل وكان حاكمًا ديار مضر والموصل وحاول فتح دمشق فناتلهُ قسام ومنعهُ عنها فسار ابو تغلب الى الرملة فلقيهُ الفضل قائد العزيز فقتل من معهُ واسر النساء وقطع راسهُ وارسلهُ الى العزيز في مصر . ثم عصت دمشق وبلاد الشام على العزيز فارسل العزيز جيشًا مع بكتكين لارجاع الشام لطاعتهِ فاستولى بكتكين اولاً على فلسطين ثم سار الى دمشق فقاتلهُ حاكمها قسام فتغلب بكتكين عليهِ واخذهُ اسيرًا وارسلهُ الى مصر وملك بكتكين دمشق واستقر بها فزالت الفتن

وسنة ٣٧٣ كتب بكجور والي حمص (من قبل ابي المعالي سعد الدين صاحب حلب) الى العزيز في مصر ليوليهُ دمشق فاجابهُ العزيز الى ذلك وكتب لعاملهِ بكتكين ان يسلم دمشق لبكجور ويحضر الى مصر فسلمها لهُ في رجب ورحل فاستقر بكجور على دمشق واساء السيرة فيها فضجر اهلها وكرهوهُ وتشكوا منهُ فسمع العزيز تشكيهم . وفي سنة ٣٧٨ ارسل قائدهُ منير الخادم بجيش الى دمشق ليعزل عنها بكجور ويتولاها ولما قرب منها خرج اليهِ بكجور وحاربهُ عند داريا فانكسر بكجور وانقهر وطلب الامان فامنهُ منير ورحل بكجور عن دمشق فاستولى عليها منير واستقر على امارتها واحسن السيرة في اهلها . وسنة ٣٨٦ توفي العزيز بالله صاحب مصر وفي ايامهِ كانت راحة تامة للنصارى واليهود وقد استخدمهم وقدمهم في المناصب وولي الامر بعدهُ ابنهُ المنصور ابو علي الحاكم بامر الله بعهد من والدهِ وكان عمرهُ يوم ولي احدى عشرة سنة وقام بتدبير ملكهِ خادم ابيهِ ارجوان وكان خصيًّا ابيض وعالمًا بامور السياسة فضبط الملك وحفظهُ لسيدهِ حتى كبر فاستلمهُ وفي ايام الحاكم لم يحدث في دمشق ما يستحق الذكر. وكان الحاكم جوادًا بالمال سفاكًا للدماء ادّعى الالوهية وتوغل في الكفر وكان تارة يتظاهر بغيرة شديدة على دين الاسلام وطورًا يقتل المسلمين ويقطع الحج ويظلم الناس وادعى علم الغيب واستخدم العواهر ليدخلنَ بيوت الناس ويأتينهُ باخبارهم وسنة ٣٩٥ قام ابو ركوة وادّعى انهُ من بني امية والخلافة لهُ ودعا الناس الى نفسهِ فاجابوهُ لكرههم الحاكم فظفر بهِ

الحاكم بواسطة قائده فضل بعد حروب انتصر في اولها ابو ركوة وقتلهُ وحسب ذلك من معجزاته وفي شهر ربيع الآخر سنة ٤٠٢ صرح علماء بغداد وافاضلها علنًا بكفر الحاكم . وسنة ٤١١ اتفقت اخت الحاكم ست الملك مع قائد من قواد اخيها كان أُتهم بها فقتلت اخاها وخلصت الناس من شره فخلفهُ ابنهُ الظاهر لاعزاز دين الله وكان ذلك في ٢ شوال سنة ٤١١ وكان حسن السيرة منصفًا بالرعية وظلت دمشق تابعة لهُ وفي نصف شعبان سنة ٤٢٧ خلفهُ ابنهُ ابو تميم معد ولقب بالمستنصر بالله وفي بداءة حكم المستنصر ارسل صاحب حلب شبل الدولة قائدهُ الدزبري على بلاد الشام فملكها واستقر بدمشق

وسنة ٤٣٣ امر المستنصر العلوي اهل دمشق بالخروج عن طاعة الدزبري فاجابوهُ وطردوا الدزبري فسار الى حماه فعصاهُ اهلها فرحل عنهم الى حلب. وفي هذه السنة كثرت مغازي البدو في بلاد الشام وفقدت امنية الطرقات وسُدَّت المسالك . وسنة ٤٥٥ زلزلت بلاد الشام اشد زلزال فخرب كثير من بلدانها ومات تحت الردم ما لا يحصى من اهلها وفي نهاية الزلزلة ارسل المستنصر امير الجيوش بدرًا واليًا على دمشق فثار بهِ الجند ففارقها . وسنة ٤٦١ ثارت فتنة بين المغاربة والمشارقة فضُربت دار بجوار الجامع الاموي بالنار فاتصلت النار بالجامع وعجز الناس عن اطفائها فاحترق الجامع ودثرت محاسنهُ وزال ما كان فيهِ من الاعمال النفيسة

وسنة ٤٦٣ ه‍ فتح السلطان الب ارسلان التتري ديار بكر وحلب ثم سار احد امراء الب وهو يوسف بن ابتي الخوارزمي وفتح القدس والرملة ثم اتى دمشق وحصرها وضيق عليها بدون ان يتمكن منها فرحل عنها خائبًا سنة ٤٦٧ . وسنة ٤٦٨ عاودها وقت الحصاد وضيق عليها فسلمها اهلها لهُ فملكها في اوائل ذي الحجة وقطع الخطبة العلوية فيها واقام الخطبة العباسية في ٥ ذي القعدة حتى لم يخطب بها للعلويين فيما بعد فصارت دمشق للسلاجقة

وسنة ٤٦٩ خرج اتسز من دمشق لمحاربة مصر فعاد مهزومًا وفي السنة

التالية طمع العلويون في استرجاع دمشق فارسلوا عسكرًا لمحاربتها وفتحها فانجد اهلها تتش صاحب حلب وهزم عسكر المصريين ثم عاد العلويون وارسلوا جنودهم اليها سنة ٤٧٨ مع بدر الجمالي فحصرها وضيق عليها وتتش صاحب حلب فيها يدافع عنها وبعد ان طال الحصار على غير طائل ارتد عنها بدر راجعًا الى مصر وكانت حلب عصت تتشًا فسار اليها بعسكره وفتحها وكر راجعًا الى دمشق واستقر بها وكان ملك شاه اخو تتش قد عظم امره وتسلط على كل الممالك الاسلامية وخطب له على منابرها ولما مات خلفه تتش وخطب له على المنابر واقام واليًا على دمشق ساوتكين الخادم ثم قوي بركيارق بن الب ارسلان على عمه تتش وقتله في نواحي اصفهان فجاء ابنه دقاق الى دمشق واستولى عليها بعد منازعات يطول شرحها وذلك سنة ٤٨٨ وفي السنة الثانية والتي بعدها تحركت في اوروبا الحركة الصليبية وتجمع الافرنج من كل انحائها بتحريضات السائح بطرس المشهور وخرجوا لفتح بلاد فلسطين وتخليص الاراضي المقدسة من ايدي المسلمين

ولما اتت الجنود الصليبية سوريا استولت على انطاكية بعد حروب كثيرة وعنيفة فساء الامر جميع امراء المسلمين فرفعوا ما كان بينهم من المناظراة والخصام واتحدوا على محاربة الافرنج وسار دقاق مع غيره من الامراء سنة ٤٩١ لاسترجاع انطاكية وبعد ان حاربوها رجعوا مقهورين فاخذت فتوحات الصليبيين تمتد . ثم سار دقاق الى جبلة وفتحها ووضع عليها ابنه ورجع وبرجوعه أُخذت من ابنه فتبع اباهُ الى دمشق ثم سار دقاق سنة ٤٩٦ وفتح الرحبة وضمها اليه . وسنة ٤٩٧ توفي دقاق ودفن بها فخطب طغتكين الاتابك احد المقدمين لابن دقاق وكان طفلاً ثم قطع خطبته وخطب لاخي دقاق بلتاش ثم قطع خطبته وعاد وخطب للطفل وولج هو ادارة الامور

وسنة ٥٠٣ حل الافرنج على طرابلس فرحل كثيرون من اهلها واتوا دمشق . وسنة ٥٠٧ اتى صاحب الموصل دمشق فاستقبله طغتكين الى سلمية واتى به الى

دمشق ثم سارا منها وانضم اليهما صاحب سنجار والامير اياز بن ايلغازي وذهبوا جميعًا الى قرب طبرية وقاتلوا الافرنج وكسروهم ورجعوا الى دمشق منصورين فدخلوها في ربيع الاول . ودخل طغتكين ومودود صاحب الموصل الجامع الاموي فحمل باطني على مودود وهو في الجامع وضربهُ بسكين فمات بيومهِ ودُفن في دمشق ثم نُقل منها الى بغداد وسنة ٥٠٨ اتى ايلغازي بن ارتق صاحب ماردين الى دمشق فاتفق مع واليها طغتكين وكتبا الى الافرنج واعتضدا بهم وسار ايلغازي نحو بلادهِ ولما عرف السلطان محمد بن ملكشاه بما فعلا غضب عليهما وسير جيوشهُ سنة ٥٠٩ لمحاربتهما فاتت الجنود ووصلت الى حماه وهي لطغتكين وفتحتها عنوةً واقام بها وعساكر الافرنج مع عساكر طغتكين وايلغازي مقيمة بفامية تنتظر تفرق الجيوش الاسلامية ولما اقبل الشتاء تفرق جيش الافرنج واما طغتكين وايلغازي فذهب كل منهما الى محلهِ ثم ان طغتكين نقض عهد الافرنج ورحل بنفسهِ الى بغداد الى السلطان محمد وقدم لهُ الطاعة وسالهُ العفو فعفا عنهُ وفي ذي الحجة سنة ٥٠٨ مات السلطان محمد بن ملكشاه فصار ابنهُ محمود خليفتهُ . وسنة ٥١٧ ذهب طغتكين وحارب حمص ونهبها ثم استرجع حماه وعاد الى دمشق . وسنة ٥٢٠ اتى الافرنج من جهة فلسطين وحملوا على دمشق ونزلوا في مرج الصفير عند قرية شقحب فارسل طغتكين وجمع التركمان وغيرهم لمحاربة الافرنج فالتقوا في اواخر ذي الحجة واشتد القتال فانهزم طغتكين والخيالة وتبعهم الافرنج وسنة ٥٢٢ مات طغتكين وكانت مدة ملكهِ على دمشق ٢٥ سنة تقريبًا وهو من مماليك تتش بن الب ارسلان وكان عاقلاً خبيرًا ويلقب ظهير الدين وبعد موت طغتكين ملك ابنهُ تاج الملوك نوري بعهد منهُ

ولما ولي نوري استوزر طاهر المزدغاني وكان نافذ الكلمة بالرعية . وفي هذه السنة اتى رجل من الاسماعيلية من بغداد اسمهُ بهرام ودخل دمشق ودعى الناس الى مذهبهِ واعانهُ الوزير فتبعهُ خلق كثير وقوي امرهُ فاعطاهُ الوزير طاهر بانياس فعظم لذلك امر بهرام في الشام وملك عدة حصون في الجبال وقد جرى بينهُ

وبين اهالي وادي التيم مقاتلة قتل بها فاقام الوزير عوضًا عنهُ على بانياس رجلاً اسماعيليًّا اسمهُ اسماعيل واقام ايضًا ابا الوفاء الاسمعيلي في دمشق بمركز بهرام فعظم امر ابي الوفاء وصار الحكم لهُ في دمشق فكاتب الافرنج ان يسلمهم دمشق فيعطونهُ عوضًا عنها مدينة صور فاتفقوا معهُ على ذلك وعلى ان يكون قدومهم الى دمشق يوم الجمعة . فعلم تاج الملوك نوري بالمكيدة فاستدعى وزيرهُ طاهرًا وقتلهُ . وامر بقتل الاسماعيلية الذين في دمشق فثار بهم الدماشقة وقتلوا منهم ستة آلاف نفر . وعند وصول الصليبيين راوا خلاف ما املوا فحصروا دمشق مدة فلم يظفروا بشيءٍ فرفعوا الحصار وعادوا من حيث اتوا . فتاثرهم نوري مسافة وقتل منهم عدة . واما اسماعيل الباطني فسلم بانياس للافرنج . وسنة ٥٢٥ وثب الباطنية وجرحوا نوري انتقامًا فضعف جسمهُ ولازمهُ المرض ومات في ٢١ رجب سنة ٥٢٦ وتولى بعدهُ ابنهُ شمس الملوك اسماعيل بوصية منهُ . وولي اخوهُ شمس الدولة محمد بعلبك بوصية من ابيهِ . ولما استقر محمد ببعلبك فتح حصني الراس واللبوة فكتب اليهِ اخوهُ اسماعيل ليردهما فابى فسار اليهِ اسماعيل واسترجعهما وفتح بعلبك بعد حصار وحصر قلعتها . ثم اصطلحا وبقي محمد على بعلبك ورجع اسماعيل الى دمشق منصورًا . وسنة ٥٢٧ سار اسماعيل على غفلة من الافرنج وفتح مدينة بانياس عنوةً وحصر قلعتها واستلمها بالامان وفي شهر ربيع الآخر وثب على اسماعيل احد مماليك جدهِ وضربهُ بسيف فلم يعمل السيف بهِ فالقي القبض على الضارب واقر بما حملهُ على ما فعل فقتلهُ اسماعيل وقتل جماعة من غير تحقيق فعظم ذلك على الناس فنفروا منهُ وحل بغضهُ في قلوبهم . ثم سار اسمعيل الى حماه وملكها عنوةً في عيد رمضان وكانت قد اخذت منذ سنة ٥٢٣ ورحل عنها الى شيزر فصالحهُ صاحبها على مال فقام عنها ورجع الى دمشق . وفي محرم سنة ٥٢٨ سار وفتح حصن الشقيف وكان بيد الضحاك بن جندل صاحب وادي التيم فعظم ذلك على الافرنج واستكبروهُ فقصدوا بلاد حوران فجمع اسمعيل الجنود وناوش الافرنج واغار على بلادهم من جهة طبرية واخيرًا تهادنوا معهُ فرجع الى دمشق . وكان اسماعيل

ظالمًا جائرًا في الرعية فكرههُ الناس واموا التخلص منهُ. وفي ١٤ ربيع الآخر سنة ٥٢٩ اتفقوا مع والدتهِ وقتلوهُ وكان عمرهُ نحو ٢٤ سنة واقاموا بعدهُ اخاهُ شهاب الدين محمودًا وكان يحافظ المدينة معين الدين اتزمملوك طغتكين ويحسن العمل بالرعية

ولما ولي شهاب الدين اتى عماد الدين زنكي صاحب حلب الى دمشق وضيق عليها فلم يبلغ منها اربًا فاصطلح مع اهلها ورجع . وفي شوال سنة ٥٣٣ غدر ثلثة من غلمان شهاب الدين بسيدهم وقتلوهُ على فراشهِ في القلعة فاتى اخوهُ جمال الدين صاحب بعلبك وولي امر دمشق بعدهُ (وفي سنة ٥٣٢ وسنة ٥٣٣ كانت زلازل كثيرة في بلاد الشام اخربت المدن واهلكت العباد وكان اكثر فعلها في مدينة حلب) فطمع عماد الدين زنكي بدمشق فاتى لمحاربتها ونزل على داريا في ١٣ ربيع اول واخذ ينازل المدينة وفي اثناء الحصار مرض جمال الدين محمد ومات في ٨ شعبان فولي اخوهُ مجير الدين فحارب زنكي واضطرهُ الى الرجوع عن المدينة فرحل عنها ونزل بقرية عدرا واحرق قرى المرج ورحل الى بلادهِ وسنة ٥٤١ سار مجير الدين واسترجع بعلبك وكان قد اخذها صاحب حلب . وسنة ٥٤٢ اتى الصليبيون وحصروا دمشق وكان على تدبيرها معين الدين اتز فارسل اتز الى سيف الدين غازي صاحب الموصل يستنجدهُ فاتى بعسكرهِ الشام ومعهُ اخوهُ نور الدين ونزلوا على حمص فارتاع الافرنج (قال مكسيموس مونروند في المجلد الثاني من كتابهِ تاريخ الحروب الصليبية عند وصفهِ حملة الافرنج هذه ما ملخصهُ : في سنة ١١٤٨ م صار اجتماع احتفالي بعكاء حضرهُ الملك كونراد والسلطان لويس السابع والسلطان بودوين الثالث ملك اورشليم واشراف الصليبيين الحربيون والمدنيون والكنائسيون واجمعوا على ان يتملكوا مدينة دمشق حيث تراءى لهم ان استيلاءهم عليها يسهل لهم اخذ كل سوريا ويجعلهم مامونين من حروب جديدة بينهم وبين المسلمين وفي ايار سنة ١١٤٨ م كانت مهمات الحرب معدة فسار هولاء الثلثة الملوك وقوادهم وجنودهم ونزلوا في

طبرية ثم اجتازوا الى بانياس وقطعوا جبل الشيخ ووصلوا الى دمشق فنازلوها زمانًا طويلاً ولكنهم انقسموا واختلفت كلمتهم فرجعوا بالخيبة بعد ان كاد نسر النصر يخفق فوق رؤوسهم

قال ابو الفداء . وكان بين الافرنج (المحاصرين دمشق) ملك الالمان فارسل انز الى افرنج الشام يبذل لهم تسليم قلعة بانياس فتخلوا عن ملك الالمان واشاروا عليهِ بالرحيل وخوفوهُ من امداد المسلمين فرحل عن دمشق وعاد الى بلادهِ وسلم انز قلعة بانياس الى الافرنج حسبما شرطهم . ومن خسائر دمشق في هذه الحرب احد قوادها المشهورين نور الدولة شاهنشاه ابن ايوب اخو السلطان صلاح الدين الايوبي وفي مدة حصار دمشق كان غلاء شديد في كل بلاد الشام والعراق وخراسان وبلاد العرب . وسنة ٥٤٤ دهمت المنية معين الدين انز وكان هو الحاكم بدمشق فعلاً فندبهُ الناس وحزنوا عليهِ وحسبوا موتهُ اعظم خسارة وبقي على سرير دمشق مجير الدين فاخذ يدبر الامور فتداخل الافرنج بدمشق في مدتهِ تداخلاً جيًّا فقوي نفوذهم فيها وصار لهم كلمة مسموعة فكانوا يفكون كل مملوك وسرية بدمشق اما بفدية او بغير فدية ولما كانت سنة ٥٤٤ هجرية خشي نور الدين صاحب حلب (وهو السلطان نور الدين المشهور) امر نفوذ الافرنج بدمشق وخاف ان يملكوا المدينة فكاتب اهلها واستمالهم في الباطن بدون معرفة اميرهم ثم سار بجنودهِ اليها وحصرها ففتح لهُ الاهالي الباب الشرقي فدخل منهُ وملك المدينة وحصر مجير الدين في القلعة وطال الحصار فبذل نور الدين لمجير الدين اقطاعًا من جملتهِ مدينة حمص اذا سلمهُ القلعة فقبل مجير الدين وسار الى حمص فلم يعطهِ اياها بل بدلها لهُ بغيرها فابى وسار الى بغداد وسكن فيها حتى مات وهكذا انتقلت دمشق الى ملك نور الدين الذي يلقب بالشهيد فوضع عليها اخاهُ نجم الدين ايوب ورجع الى حلب

وفي ذي الحجة سنة ٥٥٩ فتح نور الدين بانياس وضمها اليهِ وقد فتح فتوحاتٍ

كثيرة غيرها واقام بمغازي يطول شرحها واشتغل بمحاربة الافرنج اكثر حياته وفتح كثيرًا من بلادهم وحصونهم وفتح جانبًا من البلاد المصرية. ثم اتخذ دمشق مقرًا له وجعلها مركز حركاته وسكن في قلعتها كغيره من ملوكها. وبنى في دمشق وغيرها عدّة مدارس ونشط بضاعة العلم وخدمها واجرى العدل والانصاف بالرعية وابطل المكوس فاكتسب حب الاهالي وميلهم وبواسطته تقوى صلاح الدين الايوبي الشهير مؤسّس الدولة الايوبية وركنها. ويوم الاربعاء الواقع في ١١ شوال سنة ٥٥٦ توفي نور الدين بقلعة دمشق بعلة الخوانيق ودفن في مدرسته التي بناها في دمشق ولم تزل الى الآن وتُعرف بالنورية نسبة اليه. وقبل موته بقليل كان قد جهز جيشًا لمحاربة صلاح الدين في مصر لانهُ امتنع عن طاعته وصمم ان يسير اليه بنفسه وان يترك ابن اخيه على الشام قبالة الافرنج نائبًا عنهُ فانصرم عمرهُ بغتة. ولهُ مآثر سترى بعضها مذكورًا في ترجمته في باب الترجمات

ولما مات نور الدين قام باعباء الملك ابنهُ الملك الصالح اسمعيل وعمرهُ احدى عشرة سنة فاقام في دمشق وكان مدبرهُ في الامور الامير شمس الدين محمد بن عبد الملك المعروف بابن المقدم. وقد اطاعهُ صلاح الدين بمصر وخطب لهُ فيها وضرب السكة باسمه على ان صاحب الموصل خلع طاعتهُ وذهب وامتلك بلاد الجزيرة. وسنة ٥٥٧ حسّن صاحب حلب للملك الصالح اسمعيل جانب فانقاد اليه وتوجه اليها واقام فيها وكان في حلب سعد الدين كمشتكين متغربًا من المُلك فخافهُ امراء دمشق فراسلوا السلطان صلاح الدين صاحب مصر ودعوهُ ليملك عليهم فاجاب طلبهم

فصل

في تاريخ مدة استيلاء الايوبيين على دمشق

عندما دعا امراء دمشق صلاح الدين بن ايوب ليملكوهُ عليهم عوضًا عن الملك الصالح اسمعيل سار اليهم بسرعة ومعهُ سبع مئة فارس ولما وصل الى

دمشق خرج اليهِ من بها من العساكر والامراء والتقوهُ بالترحاب وملكوهُ البلد على ان القلعة عصت عليهِ وبها من قِبل الملك الصالح اسمعيل خادم اسمهُ ريحان فراسلهُ صلاح الدين واستمالهُ واستلم القلعة منهُ ودخلها واخذ ما بها من الاموال والذخائر فثبت قدمهُ بدمشق فقرر امورها واستخلف عليها اخاهُ سيف الاسلام طغتكين بن ايوب وسار الى حمص في مستهل جمادى الاولى فاستولى عليها وعلى حماه وغيرها. ثم سار نحو حلب فاتاهُ عسكرها ومن انضم اليهم فتغلب عليهم ايضًا وتقدم نحو مدينتهم وحصرها وضيق عليها. ولما كاد ان يتمكن منها صالحهُ الصالح اسمعيل على ان يبقى الذي فتحهُ صلاح الدين بيدهِ وما بقي يكون للصالح. فما قبل صلاح الدين الاَّ بان تكون الخطبة والسكة باسمهِ فنُقِلتا. ورجع عن حلب ظافرًا. وفي شهر شوال سنة ٥٧١ سار صلاح الدين وحارب عسكر الموصل وكسرهُ عند تل السلطان. ثم رجع الى حلب وكانت قد امتنعت عليهِ فضيق عليها فصالحهُ اهلها فرحل عنها في ٢٠ محرم سنة ٥٧٢. وسنة ٥٧٤ حدث وباء عظيم في البلاد مات بهِ كثيرون من سكان دمشق. وبعد هذا عزل صلاح الدين اخاهُ سيف الاسلام عن ولاية الشام ووضع مكانهُ ابن اخيهِ عز الدين فرخشاه. وسنة ٥٧٧ سار البرنس دي شاتيليون صاحب الكرك لفتح الحجاز فجمع عز الدين جنودهُ وسار من دمشق فكسرَ البرنس فعاد الى دمشق

وفي ٥ محرم سنة ٥٧٨ سار السلطان صلاح الدين من مصر قاصدًا الشام فاجتمع الناس لوداعهِ وكان كل يقول شيئًا في الوداع وفراقهِ وكان من الحاضرين معلم لبعض اولاد السلطان فقال

تمتَّع من شميم عرار نجدٍ فما بعد العشية من عرارِ

فانقبض السلطان من ذلك وتنكر المجلس ولم يعد صلاح الدين بعد ذلك الى مصر. وسار فوصل الى دمشق في ١١ صفر

وفيما كان صلاح الدين قاصدًا الشام اجتمعت الافرنج عند الكرك ليعارضوهُ في طريقهِ فانتهز فرخشاه نائب السلطان في دمشق الفرصة وسار بجندهِ

وفتح الشقيف وما يجاورهُ من البلدان وارسل يبشر السلطان بذلك . ومكث السلطان بدمشق الى ربيع الاول ثم سار بجنوده ونزل قرب طبرية وشن الغارة على بلاد الافرنج كبانياس والغور وجنين وعاد راجعًا الى دمشق . ثم سار الى بيروت وحصرها واغار على بلادها ورجع الى دمشق وسار منها الى الجزيرة وقطع الفرات وفتح الرها وغيرها من المدن كقرقيسيا وماكسين والخابور . وحاصر الموصل ولم يفتحها فسار عنها الى سنجار وفتحها ثم سار الى حران . وفي مدة غيابهِ عن دمشق مات عاملها عز الدين فرخشاه فولى عوضًا عنهُ شمس الدين محمد بن عبد الملك المقدم . (وفي هذه السنة مات في دمشق مسعود بن محمد بن مسعود النيسابوري وكان امامًا فاضلاً في العلوم الدينية قدم الى دمشق واقام بها وانف للسلطان عقيدة كان السلطان يقرئها اولادهُ الصغار) . ثم دخلت سنة ٥٧٩ والسلطان يغزو ويفتح ففي العشر الاول من محرم فتح آمد ورحل الى الشام ففتح تل خالد من اعمال حلب ثم فتح عينتاب ورحل عنها وحصر حلب فسلمهُ صاحبها بشرط ان يعوضهُ عنها بغيرها وكان ذلك في صفر فقال احد الفضلاء متفائلاً

وفتحكم حلبًا بالسيف في صفرٍ مبشّر بفتوح القدس في رجبِ

ولبث السلطان بحلب مدة وقرر امورها لولدهِ الملك الظاهر غازي وسار الى دمشق ولبث فيها قليلاً وتجهز لغزو الافرنج فسار وعبر الاردن ونزل على بيسان واحرقها ثم سار الى الكرك وقد اتاهُ اخوهُ الملك العادل من مصر فلم يتمكنا منها ورجعا عنها فاتى السلطان دمشق واعطى اخاهُ الملك العادل حلب ووجههُ اليها واتى بولدهِ الظاهر الى دمشق

وسنة ٥٨٠ كتب الى مصر لتاتيهُ العساكر وسار في ربيع الآخر الى الكرك ونازلها مع عسكر مصر فلم يتمكن منها فرجع عنها وسار الى نابلس واحرقها ونهب ما حولها وقتل واسر وسبى . ثم سار الى سبسطية وهي على مرحلة ساعتين عن شمالي نابلس فاستخلص ما بها من اسرى المسلمين وسار الى جنين وعاد الى دمشق .

وسنة ٥٨١ حل على الموصل وحصرها وتركها بدون ان ينال منها شيئًا وسار الى اخلاط وملكها في سلخ جمادى الاولى ثم اتى الموصل وتصالح مع صاحبها على شروط منها اعطاء السلطان بلادًا وان تكون السكة والخطبة في بلاد الموصل باسمهِ ثم اتى حران واقام بها مريضًا واشتد مرضهُ حتى آيسوا منهُ على انهُ عوفي سريعًا وعاد الى دمشق في محرم سنة ٥٨٦. ثم احضر ابنهُ الملك الافضل من مصر واقطعهُ دمشق ونقل اخاهُ الملك العادل من حلب واقطعهُ مصر. وبعد ترتيب هذه الامور جهز عسكرهُ للفتوحات فسار اولاً نحو الكرك وحصرها خيفة على الحجاج من صاحبها وارسل ابنهُ الافضل الى عكاء. ثم سار من الكرك ونزل على طبرية وفتحها عنوةً وملكها ولما وقعت طبرية بيده اجتمع ملوك الافرنج من كل انحاء سوريا وجمعوا جنودهم وقواتهم وساروا لمحاربتهِ فخرج للقائهم ويوم السبت في ٥ ربيع اوّل اقتتل الجيشان فانكسر الافرنج اعظم كسرة بعد وقعة دموية مهولة لم يجرِ مثلها في فلسطين منذ اتاها الافرنج وهذه الوقعة هي المشهورة في تاريخ الحروب الصليبية بوقعة حطين وفيها تكبد الافرنج اعظم الخسائر وضعفت قوتهم

وبعد هذه النصرة فرق السلطان جنودهُ ففتحوا الناصرة وقيصرية وحيفا وغيرها من البلدان حوالي عكا وارسل فرقة الى نابلس فامتلكت قلعتها بالامان وذهب الملك العادل وفتح مجدل اليابا (اليوم تدعى مجدل اليابا) ثم فتح يافا عنوةً. اما السلطان فسار الى تبنين وفتحها ورحل منها الى صيدا فاخلاها صاحبها فوصل اليها السلطان في ٢٠ جمادى الاولى واستلمها ومنها قصد بيروت فحصرها ثمانية ايام وفي نهاية جمادى الاولى استلمها بالامان ومنها سار جنوبًا واخذ عسقلان في اواخر جمادى الآخرة وارسل عسكرهُ ففتحوا الرملة والداروم وغزة وبيت لحم وبيت جبرين (وكانت من المدن العظيمة المحصنة) وغير ذلك. ثم ارتحل الى القدس ونازلها وبها عدد غفير من الافرنج فطلب اهلها الامان فابى السلطان تامينهم في البداءة على انهُ امنهم اخيرًا على شروط شرطها عليهم واستلم المدينة واعادها اسلامية واقام بها ابنية كثيرة وكان هذا الفتح في رجب فتم قول من

تفاءل وقال

وفتحكم حلبًا بالسيف في صفرٍ مبشر بفتوح القدس في رجبِ

وبعد ان نظم امور القدس رحل الى عكاء وارسل وفتح حصن هونين واقام الحصار على عكا بتشديد وادركهُ الشتاء فشتى امامها والحرب قائمة واذ لم يبلغ منها اربًا لشدة تحصين الافرنج لها ومدافعتهم عنها ببسالة وحمية رحل عنها الى حصن كوكب ووضع عليهِ من يفتحهُ وقصد دمشق فدخلها في بداءة ربيع الاوّل سنة ٥٨٣ فزينت له المدينة واقيمت بها الافراح واستقبلهُ الناس بسرور عظيم واحتفال يليق بكريم فاتح مثلهُ وكان ذلك اليوم يومًا مشهودًا . ثم كتب لعمالهِ بتجهيز العساكر . ولبث في دمشق خمسة ايام ورحل منها في انتصاف ربيع الاول قاصدًا الجهة الشمالية ونزل على بحيرة حمص فاجتمع اليهِ جندهُ فرحل بهم قاصدًا غزو بلاد الافرنج فنزل على حصن الاكراد وفتحهُ ثم زحف على انطرطوس (طرطوس) فاخلاها اهلها فدخلها في ٦ جمادى الاولى . ثم سار الى جبلة فملكها في ٨ جمادى الاولى . ثم زحف الى اللاذقية في ٢٤ جمادى الاولى ونازل قلعتها واستلمها بالامان وجعلها لابن اخيهِ الملك المظفر تقي الدين. ثم فتح فتوحات كثيرة يطول شرحها واخيرًا نازل المعاملات التابعة لانطاكية فامتلك بعضها وتهادن مع صاحب انطاكية الافرنجي لمدة ثمانية اشهر ورحل الى حلب ودخلها في ثالث شعبان. ثم سار منها الى دمشق فدخلها في شهر رمضان فاشير عليهِ ان يترك العساكر ليستريحوا فابى واجاب ان العمر قصير والاجل غير مامون . هذا وقد كان اخوهُ الملك العادل يضايق الكرك وكانت للافرنج فطلب اهلها الامان فاستشار العادل اخاهُ صلاح الدين بهذا فاجابهُ اليهِ فصارت الكرك والشوبك للمسلمين

وفي منتصف رمضان سار السلطان من دمشق جنوبًا فحل على صفد فاستلمها ثم سار الى كوكب واستلمها ثم سار الى اورشليم وعيد فيها عيد الاضحى . وفي اواخر سنة ٥٨٤ ذهب الى عكا فوافاهُ الافرنج من صور والبحر وحدثت وقائع شديدة كان الفوز فيها للصليبيين وكادوا ياخذون عكاء منهُ فخرج منها لمرض اعتراهُ . ثم

عاد لنجدتها سنة ٥٨٦ وكانت قد تضايقت جدًّا واوشكت ان تفتح فاشتغل بمحاربة الافرنج عند ابوابها ودام الحرب كل هذه السنة ودخلت سنة ٥٨٧ والحرب على قدم وساق على انهُ في ١٠ جمادى الاولى تغلب الافرنج على الاسلام وفي مستهل شعبان ساروا الى حيفا وملكوها ثم ملكوا قيصرية وارسوف ويافا وقصدوا عسقلان فخربت بامر من السلطان (وكان السلطان مقيمًا بالنطرون). ثم اخرب قوم السلطان حصن الرملة وكنيسة لد. ثم تقدم الافرنج وملكوا لد والرملة ولما راي السلطان تقدم الافرنج السريع رحل من النطرون الى اورشليم واخذ في بناء اسوارها وتحصينها بجد وسرعة وكان الافرنج وعسكرهُ لا ينقطعون عن المناوشات الى ٢٢ شعبان سنة ٥٨٨ حيث تهادن السلطان والافرنج لثلث سنين وثلثة اشهر من يوم المهادنة اما شروط الهدنة فهي. ان يكون بيد الافرنج يافا وعملها وقيصرية وعملها وارسوف وعملها وحيفا وعملها وعكا وعملها وان تكون عسقلان خرابًا واشترط السلطان بان تكون بلاد الاسماعيلية في عقد الهدنة واشترط الافرنج ان تكون طرابلس وانطاكية في هدنتهم وان تكون لد ورملة مناصفة بينهم وبين المسلمين وقر القرار على هذا وتوقفت الحروب والمغازي فاستقر السلطان مدة في القدس واقام بها ابنية وجوامع ومدارس. ثم سار عنها في ٥ شوال قاصدًا دمشق وفي ٢٥ شوال دخلها وكانت غيبتهُ عنها اربع سنين فاقام بها العدل والانصاف وصرف عسكرهُ وامراءهُ وابقى عندهُ ابنهُ الملك الافضل. وسنة ٥٨٩ مات في قلعة دمشق بداء الحمّى ودُفن في الدار التي مرض بها فاسف الناس لفقدهِ وبكوهُ بكاء مرًّا ورثاهُ اهل الفضل بابلغ المراثي. وقد كان من اجود الملوك وافضلهم واحسنهم خلقًا وديعًا كريمًا جبارًا غازيًا عادلاً

وبعد موت السلطان صلاح الدين قُسِمَت المملكة بين اولادهِ واخوتهِ فكانت دمشق نصيب الملك الافضل نور الدين علي. وسنة ٥٩٠ صارت وحشة بين الملك الافضل واخيهِ العزيز (صاحب مصر) فجرد العزيز جنودهُ واتى وحصر دمشق فاستجار الافضل ببعض اخوتهِ وعمهِ الملك العادل فاتوا

دمشق واصلحوا بين الاخوين . ولما راق الجو للافضل اقبل على ادمان الخمر والاشتغال بالملاهي ليلاً ونهاراً فكثر كلام الناس به وبلغ الخبر عمهُ الملك العادل فارسل ووبخهُ فارتدع وتاب وعكف على التقوى ووكل ادارة مملكتهِ لوزيرهِ ضياء الدين بن الاثير فافسد الامور ولم يحسن السياسة . وسنة ٥٩١ حمل العزيز على بلاد الشام فاستجار الافضل بعمهِ العادل فاجارهُ وحاربا العزيز ووصلا الى مصر فقصد الافضل الاستيلاء عليها فمنعهُ العادل وكاتب العزيزَ العادلُ سرًّا وسالهُ ارسال القاضي الفاضل ليصلح بينهُ وبين اخيهِ الافضل فاتى القاضي واصلح بينهما بالاشتراك مع العادل . ولما تم الصلح رجع الافضل الى دمشق وظل العادل في مصر ليصلح مملكة ابن اخيهِ لان احوالها كانت قد تضعضعت . وكانت احوال دمشق في تاخر لسوء ادارة وزيرها فبلغ العزيز والعادل ذلك فاتفقا على اخذ دمشق من الافضل وان يستولي عليها العادل وتكون الخطبة والسكة بها للعزيز وسارا قاصدين دمشق . فعلم الافضل بقدومها فحصن المدينة ولما اقتربا منها كاتب بعض امرائها الملك العادل على ان يسلموهُ المدينة وفي ٢٦ رجب سنة ٥٩٢ دخل العادل المدينة من باب توما والعزيز من باب الفرج فسلمها الافضل المدينة رسميًّا وخرج منها باهلهِ . وفي ٥ شعبان صارت المدينة للعزيز فسلمها لعمهِ الملك العادل فصارت سكتها وخطبتها باسم العزيز . ورحل العزيز عنها حالاً راجعاً الى مصر وكانت مدة ولاية الافضل عليها ثلث سنين وشهرًا واحدًا

وسنة ٥٩٤ سار الملك العادل من دمشق وحارب الافرنج ورجع اليها ثم سار وحارب ماردين وفي اثناء غيابهِ مات العزيز صاحب مصر واقيم ابنهُ فسار اليهِ الافضل وهناك اشير عليهِ ان يسترجع دمشق من العادل . فجمع الافضل جندًا وسار بهِ فبلغ العادل الخبر فرجع مسرعًا الى دمشق ودخلها قبل وصول الافضل اليها بيومين . ونزل الملك الافضل على دمشق في ١٣ شعبان فانتشب بينهما القتال وبعد وقائع كثيرة يطول شرحها انكسر الافضل وتبعهُ العادل الى مصر ودخلها في ربيع الآخر سنة ٥٩٦ وصادف فيها توفيقًا فاستقل بالمملكة

وقد تخلف عنهُ في دمشق ابنهُ الملك المعظم شرف الدين عيسى ولما استقل العادل بمصر تقوى الظاهر صاحب حلب واخذ بفتح البلاد واتحد مع الافضل وانضم اليهما بعض الامراء وساروا الى دمشق وحاصروها ولما اوشكوا يفتحونها وقع الخلاف بينهم وسببهُ ان الظاهر والافضل اتفقا على ان دمشق عند ما تفتح ترجع للافضل ثم تسير جنود الافضل وجنود الظاهر وتفتح مصر وتصير للظاهر ولما كادت دمشق تقع في يدهم قال الظاهر للافضل ان دمشق تكون لي بحيث املك ممالك الشام كلها ومصر تكون لك فقال الافضل ما على هذا اتفقنا. فقال الظاهر ولا بد من صيرورتهِ فوقع الخلاف بينهما فرحل الظاهر عن دمشق قاصدًا حلب ورحل الافضل الى حمص وهكذا انتهى الحصار . وسنة ٥٩٢ زلزلت سوريا زلزالاً عظيمًا فاندك بهِ كثير من مدنها وقتل عدد وافر من اهلها . وبعد رفع الحصار عن دمشق اتاها العادل واصلح امورها وسار نحو حلب واصطلح مع الظاهر وغيرهِ وجعل الخطبة والسكة باسمهِ فانتظمت لهُ ممالك اخيهِ صلاح الدين بكمايتها فرجع واستقر في دمشق الى سنة ٦١٠ وفيها حمل الصليبيون على القدس فخرج العادل لمحاربتهم وفي اثناء المحاربة عادت الزلازل على سوريا وامتدت الى مصر والجزيرة وبلاد الروم وصقلية وقبرس والعراق وغيرها . اما العادل فداوم محاربة الافرنج على انهُ لم ينجح فاصطلح معهم وسلمهم يافا وتنازل لهم عن نصف لد والرملة . وبعد المصالحة قصد مصر وكان الافرنج يفتحون بها . وسنة ٦١٣ عاد الى دمشق ثم رحل عنها لمحاربة الافرنج وتهادن معهم. وسنة ٦١٤ اقبل راجعًا اليها فاتاهُ رسول الخليفة بخلعة وعلم فاخذهما باحتفال عظيم ووصل الى العادل ايضًا تقليد بالبلاد التي كانت تحت حكمهِ فخوطب بالعادل شاهنشاه ملك الملوك امير المؤمنين . وبعد ذلك اخذ الملك العادل ببناء قلعة دمشق وكانت قد تهدمت بالزلازل والحروب والزم كل واحد من الملوك اهل بيتهِ بعمارة برج من ابراجها واسرع في البناء حتى تمت بوقت قصير . وبقيت دمشق للعادل طورًا يقيم فيها وطورًا يرحل عنها اما للحرب او للاقامة في مصر الى ان

وفدت سنة ٦١٥ فاتى لمحاربة الافرنج عند عكا فنزل ببرج الصفر ثم رحل الى عالقين عند عقبة افيق فاشتد عليه مرض اعتراهُ فمات هناك فاتى ابنهُ الملك المعظم عيسى وكان بنابلس فنقل جثتهُ الى دمشق ودفنها بها وكانت وفاتهُ في سابع جمادى الآخرة وعمرهُ ٧٥ سنة ومدة ملكهِ في دمشق ٢٣ سنة وفي مصر ١٩ سنة وكان كثير الاولاد غنيًّا جدًّا

ويوم دُفن الملك العادل بدمشق استولى ابنهُ الملك المعظم عيسى على جميع ما كان لابيهِ من الاموال والخيول والسلاح وحلف لهُ جميع الناس بالولاية ولبث في دمشق يدبر امورها. هذا وقد كانت حروب الافرنج في مصر على قدم وساق فاستولوا على دمياط وغيرها فخاف الملك المعظم ان تمتد فتوحاتهم في فلسطين ايضًا ويستولوا على اورشليم ويتخذوها حصنًا لهم فامر في سنة ٦١٦ بهدم اسوارها وكانت بغاية المتانة فدكها مأمورهُ باوفر سرعة ورحل كثيرون من اهلها الى دمشق وغيرها وكان اخو الملك المعظم الملك الكامل بمصر يقاتل الافرنج فلما اخذوا منهُ دمياط ابتنى مدينة عند ملتقى البحرين بمصر وسماها المنصورة (وفي هذه السنة ظهر جنكيز خان التتري واشتهر امرهُ واخذ بالفتوحات)

وبعد ان دكت اسوار اورشليم سار الملك المعظم عيسى من دمشق الى بلاد الساحل ونازل قيصرية ففتحها وهدمها ثم سار الى عثليث ونازلها ايضًا (وهي على ساعة ونصف من حيفا جنوبًا) ثم رحل عنها ونزل على الغور واقام بحروب قايلة الجدوى واقفل راجعًا الى دمشق

وسنة ٦١٧ عظم شان الصليبيين في الديار المصرية وعجز صاحبها الملك الكامل عن محاربتهم فكاتب اخوتهُ الملوك ليُنجدوهُ بجنودهم فلبوا دعوتهُ. وسنة ٦١٨ سار الملك المعظم من دمشق بجنودهِ لنجدة اخيهِ وكان قد اجتمع اليهِ كثير من الملوك اخوتهِ وامرائهِ فبلغوا مصر معًا واخذوا يحاربون الافرنج فما انتجت اعمالهم الاَّ بالفشل ولما نظر الملك الكامل ذلك طلب مصالحتهم بشرط ان يرد لهم جميع ما ملكهُ صلاح الدين منهم وان يتركوا لهُ دمياط في مصر والكرك

والشوبك في سوريا فابوا اولاً ثم التزموا الى القبول . ولما تم الصلح رجع الملك المعظم الى دمشق فعصاهُ صاحب حماه وامتنع عن ايداء ما عليهِ من الاموال فسار المعظم بجنوده الى حماه ونازلها فتعسرت عليهِ فسار عنها الى المعرة وسلمية وملكها ولبث في سلمية جاعلاً نصب عينيهِ منازلة حماه ثانيةً فبلغ الملك الاشرف ما عملهُ اخوهُ المعظم بصاحب حماه فساءهُ الامر واتفق مع اخيهِ الكامل ان ينكرا على اخيهما ما فعلهُ فبعثا اليهِ بالرحيل وترك ما اخذهُ فاجاب بالسمع والطاعة ظاهرًا وهو مضمر لها الانتقام . وسنة ٦٢٣ اتفق مع بعض امراء البلاد وسار ونازل حمص فحلَّ بخيلهِ وباءٌ قضى عليهِ بالرجوع عنها فرجع الى دمشق فاتاهُ اخوهُ الملك الاشرف الى دمشق طالبًا المصالحة دفعًا للقلاقل وحسمًا للفتن فحفظهُ المعظم عندهُ كاسير وطلب منهُ شروطًا وكان ظاهرًا يعزهُ ويجلهُ ويكرمهُ واخيرًا في سنة ٦٢٤ سلم الاشرف لاخيهِ بكل ما طلب منهُ فاطلق سبيلهُ فمضى الى بلادهِ وانكر الاتفاق فاتحد المعظم مع اقوام اقوياء وبات ينتظر الفرص للانتقام من اخيهِ فبلغ الكامل ذلك فاخشى العاقبة فاتحد مع امبراطور الافرنج على ان ياتي الامبراطور عكا ويشغل المعظم ويعطيهِ الكامل لقاء هذه الخدمة مدينة اورشليم فذهب الامبراطور الى عكا واتصل الخبر بالمعظم فارسل لاخيهِ الاشرف واستعطفهُ تخفيفًا للمدىان وبينما كانت تجري الامور على هذا النمط وفد شهر ذي القعدة فتوفي الملك المعظم عيسى في قلعة دمشق وعمرهُ ٤٩ سنة ومدة ملكهِ تسع سنين واشهر وكان عالمًا فاضلاً متضعًا بعيدًا عن الكبرياء لا يمنع احدًا عن الدخول عليهِ واحب العيشة البسيطة وكان يخطب لاخيهِ الكامل دون ان يذكر اسمهُ معهُ

ويوم وفاة المعظم تولى بعدهُ ابنهُ الناصر صلاح الدين داود وقام بتدبير مملكتهِ مملوك ابيهِ الامير عز الدين ايبك فارسل الكامل للناصر يطلب حصن الشوبك فتمنع الناصر عن اعطائهِ فاتى الكامل بلاد الشام واستولى على القدس ونابلس وغيرها من البلدان وهمَّ على انتزاع كل مملكة ابن اخيهِ فضاق لذلك

صدر الملك الناصر فراسل عمهُ الاشرف وطلب معونتهُ فاتاهُ في ١٠ رمضان سنة ٦٢٥ فدخلا معًا قلعة دمشق واتفقا وسارا الى نابلس واسترجعاها فاقام بها الناصر وذهب عمهُ الاشرف الى غزة ساعيًا بمصالحة الناصر والكامل معًا فلما اجتمع بالكامل تعاهدا معًا بان تكون دمشق للاشرف وهو يعوض عنها لصاحبها ببعض بلاد من بلاده وانهُ من عقبة افيق جنوبًا يكون حد بلاد الكامل وان يصير تغيير ولايات بعض الامراء . وفي بداءة سنة ٦٢٦ رجع الاشرف واعلم ابن اخيهِ الناصر بما اتفق عليهِ مع الكامل فساء الخبر الناصر فسار مسرعًا الى دمشق فحاصرهُ عمهُ الاشرف وكان الملك الكامل بمحاربة الافرنج فقووا عليهِ فصالحهم وسلمهم اورشليم فاتصل هذا الخبر بالناصر فاخذ يشنع بعمهِ الكامل وجاراهُ الناس وحزنوا على تسليم اورشليم وتشددوا للقتال . ولما انتهى الكامل من محاربة الافرنج سار الى دمشق واشترك في حصارها وضيق عليها وبعد عناء فتحها واقطع الناصر عوضًا عنها واقام الاشرف بها وبقي الاشرف بدمشق حتى مات واقام بها ابنية وقصورًا جميلة ولم يحدث في ايامهِ بدمشق ما يستحق الذكر الَّا انهُ في المدة الاخيرة من حياتهِ صار وحشة بينهُ وبين الكامل فصمم على محاربتهِ وطلب من الناصر داود ان ينضم اليهِ فيجعلهُ ولي عهدهِ على دمشق فابى الناصر فجعل ولاية العهد لاخيهِ اسمعيل صاحب بصرى وتوفي في محرم سنة ٦٣٥ وعمرهُ ستون سنة ومدة ملكهِ على دمشق ٨ سنين وشهور وكان كريمًا يحب التنزه والانبساط ودُفِنَ في تربتهِ قرب الجامع الاموي ولم يخلف غير ابنة واحدة

وبعد موت الاشرف استوى على دمشق اخوهُ الصالح اسمعيل فعند استقرار الملك لهُ بعث الى الملوك اهلهِ والى كيخسرو صاحب بلاد الروم يدعوهم ليوافقوهُ على محاربة الملك الكامل فوافقوهُ الَّا المظفر صاحب حلب فانهُ انتمى للكامل وكذلك الملك الناصر داود انتمى لعمهِ الكامل لانهُ وعدهُ ان يرد اليهِ ملك دمشق وبعد هذه الامور سار الكامل لمحاصرة دمشق فوصل اليها في جمادى الاولى ونازلها فاحرق الصالح اسمعيل حي العقيبة (هو حي متسع واقع خارج سور المدينة

من جهة الشمال الغربي) واذ لم يمكنهُ الثبات سلم المدينة في ١٩ جمادى الاولى لاخيهِ فاقطعهُ اخوهُ عوضًا عنها بعلبكّ والبقاع علاوة على بصرى . وبعد ان لبث الكامل اياماً في قلعة دمشق اصابهُ مرض واشتد عليهِ وفي ٢١ رجب سنة ٦٣٥ توفي وعمرهُ ستون سنة وكانت مدة ملكهِ في دمشق ٢٠ سنة وقبلها كان نائبًا بها ٢٠ سنة ايضًا وكان عالي الهمة عمرت ديار مصر في ايامهِ اتم عمار وامنت الطرقات واذ كان يحب العلوم واهل العلم راجت اسواق المعارف في ايامهِ . ولما مات حلف العسكر بمصر لابنهِ الملك العادل ابي بكر بن الملك الكامل واقاموا على دمشق الملك الجوّاد يونس بن مودود بن الملك العادل ابي بكر نائبًا عن ابن عمهِ صاحب مصر. وفي جمادى الآخرة سنة ٦٣٦ استولى الملك الصالح ايوب ابن الملك الكامل على دمشق واعمالها بتسليم الجواد يونس وعوضهُ عنها سنجار وغيرها من المدن . ولما استوى الصالح بدمشق سار ليحارب الملك العادل في مصر واستناب عنهُ بدمشق ابنهُ الملك المغيث فتح الدين وسنة ٦٣٧ طمع الصالح اسمعيل صاحب بعلبك بدمشق فاتاها ومعهُ جنود حمص وهجم عليها وحصر القلعة وتسلمها من صاحبها وقبض عليهِ . ثم مات الملك العادل صاحب مصر فقام بعدهُ الصالح ايوب فخافهُ الصالح اسمعيل ولكي يأمن غائلتهُ اتفق مع الافرنج وسلمهم صفد والشقيف وغيرهما ليعينوهُ على ابن اخيهِ صاحب مصر فعظم هذا الامر على المسلمين فاخذوا في التشنيع على الصالح اسمعيل وكان ذلك سنة ٦٣٨. وسنة ٦٤١ كانت مراسلات الصلح بين الصالح ايوب والصالح اسمعيل فانتهت على غير اتفاق ولاجل تقوية الصلات بين الصالح اسمعيل والافرنج اتفق مع الناصر داود صاحب الكرك وسلما للافرنج طبرية وعسقلان واورشليم بما فيها من المعابد والزيارات . وسنة ٦٤٣ استنجد الصالح ايوب بالخوارزمية على عمهِ الصالح اسمعيل واتوا الى غزة فسارت اليهم عساكر دمشق مع عسكر حمص والافرنج فجرى القتال بينهم وبين عسكر مصر والخوارزمية فانكسر الصالح اسمعيل ومن معهُ فاستولى الصالح ايوب على غزة والسواحل

والقدس ورجع الصالح اسمعيل الى دمشق مكسورًا . وسنة ٦٤٣ زحف عسكر مصر الى دمشق وحاصرها فسلمها صاحبها الملك الصالح اسمعيل وخرج منها الى بعلبك وكان الخوارزمية معاضدين للصالح ايوب لظنهم بانهُ اذا استولى على دمشق يعطيهم من الاقطاعات ما يرضيهم فخاب املهم اذ لم يعطِهم شيئًا فانحازوا الى الصالح اسمعيل وانضمَّ اليهم صاحب الكرك وساروا معًا الى دمشق وحاصروها اشد حصار فغلت اسعار الاقوات بها وقاسى اهلها الشدَّة العظيمة والضيق الشديد بنوع لم يسمع مثلهُ وطال حصار دمشق فاتفق الحلبيون واهالي حمص مع الصالح ايوب وقصدوا الخوارزمية فرحلت الخوارزمية عن دمشق لمحاربتهم فانكسر الخوارزمية وتشتتوا شتاتًا فضعف امر الصالح اسمعيل فرفع الحصار عن دمشق وسار الى صاحب حلب فقبلهُ واقام عندهُ فطلبهُ الصالح ايوب فابى صاحب حلب تسليمهُ . ثم سار نائب دمشق ونازل بعلبك واستولى عليها واخذ اولاد الصالح اسمعيل اسرى وارسلهم الى مصر فزينت مصر فرحًا . ثم وجهت العساكر الى بلاد الناصر داود صاحب الكرك والشوبك واعمالها فتغلبوا عليهِ وملكوا بلادهُ ولم يبقَ لهُ غير الكرك فقط وكان ذلك سنة ٦٤٤

وبعد فتوح دمشق وبعلبك استناب الصالح ايوب على دمشق الامير جمال الدين بن مطروح . ثم اتى الصالح ايوب الى دمشق واقام فيها بضعة اشهر وعاد الى مصر . وسنة ٦٤٦ اخذ صاحب حلب حمص فاتى الصالح ايوب الى دمشق لاسترجاع حمص على انهُ وهو في الطريق اصابهُ مرض الزمهُ البقاء بدمشق وارسل عسكرًا لاسترجاع حمص وما لبث الاَّ وسمع ان الصليبيين يحاصرون دمياط فتصالح مع صاحب حلب ورجع الى مصر ومرضهُ يشتد عليهِ وقد عزل نائبهُ على دمشق واستناب عوضًا عنهُ جمال الدين بن يغمور . وفي شعبان ٦٤٧ توفي الصالح ايوب بمصر بعد ان ملك عليها تسع سنين وثمانية اشهر وقد اقام بها ابنية كثيرة في محلاَّت عديدة . ثم نودي باسم ابنهِ الملك المعظم توران شاه وكان بحصن كيفا فلما علم بتوليتهِ مكان ابيهِ سار نحو مصر ووصل

الى دمشق في شهر رمضان وعيَّد بها ثم رحل عنها الى مصر فبلغها في ذي القعدة واقام بالامر وكانت عساكر الصليبيين تضايق البلاد المصرية وبيدهم دمياط وغيرها فانشب الحرب بينهُ وبينهم واستظهر عليهم في محرم سنة ٦٤٨ واسر ملكهم القديس لويس الفرنساوي . وفي ذلك الشهر عينهِ قتل الملك المعظم توران شاه بيد بعض امراء ابيهِ الذين عزلهم عن مناصبهم وكان اوّل من رفع السلاح عليهِ بيبرس وهو الذي صار ملكًا فيما بعد كما سياتي واقاموا بعده شجرة الدر زوجة ابيهِ الملك الصالح ايوب وخطبوا لها على المنابر وضربت السكة باسمها وكانت نقش سكتها (المستعصمية الصالحية ملكة المسلمين والدة الملك المنصور خليل) وكانت قد ولدت للملك الصالح ولدًا سمّي بخليل ومات صغيرًا وارسل المصريون الى دمشق ليوافقوهم على مبايعة شجرة الدر فلم يجيبوا بل كاتب امراء القيمرية الذين بدمشق الملك الناصر يوسف صاحب حلب (وهو من سلالة صلاح الدين الايوبي) فسار اليهم ودخل دمشق يوم السبت في ٨ ربيع الآخر وملكها وعزل جمال الدين بن يغمور ورفع منزلة امراء القيمرية واكرمهم . ثم ان الامراء بمصر عزلوا شجرة الدر وولوا عز الدين ايبك الطلاحي عوضًا عنها ولقبوهُ بالملك المعز . ثم تغير راي الامراء وقالوا لا بد من اقامة شخص من بني ايوب فاعتمدوا على صاحب اليمن وهو الملك الاشرف موسى بن يوسف المعروف باقسيس بن الملك الكامل بن الملك العادل ابي بكر بن ايوب فولوهُ في ٥ جمادى الاولى

وفي شهر رمضان جهز الملك الناصر يوسف جنودًا وانضم اليهِ بعض ملوك عائلتهِ لمحاربة الملك الاشرف في مصر واجتمعوا في دمشق . وفي نصف رمضان ساروا منها فالتقوا بعساكر مصر عند العباسية فانكسر المصريون فتبعهم الدمشقيون الى مصر فتقوى المصريون هناك وتغلبوا بفوز مجيد اضعفوا بهِ قوة اعدائهم واستولوا على غزة . وسنة ٦٥١ وقع الصلح بين المصريين والدمشقيين على ان يكون للمصريين لحد نهر الاردن وما وراءهُ للملك الناصر ثم انتقض العهد . وسنة ٦٥٣ صار عهد جديد بان تكون بلاد الشام لحد العريش تابعة صاحب

دمشق وما وراءها جنوبًا للمعز ايبك الذي كان على مصر وهكذا انصرف المشكل بين الدمشقيين والمصريين

وفي ٢٦ جمادى سنة ٦٥٦ توفي الملك الناصر داود بن الملك المعظم عيسى بن الملك العادل ابي بكر بن ايوب بظاهر دمشق بقرية البويضة شرقي المدينة وعمرهُ ٥٣ سنة وكان قد ملك دمشق مدة كما تقدَّم فخرج الملك الناصر من المدينة الى البويضة ونقل جسدهُ باحتفال ودفنهُ بالصالحية في تربة والدهِ المعظم وكان الناصر داود عالمًا بارعًا في النظم والنثر ومن محاسن شعرهِ قولهُ

عيونٌ من السحر المبين تبينُ لها عند تحريك القلوب سكونُ
تصولُ ببيضٍ وهي سودٌ فرندها ذبولٌ فتورٌ والجفون جفونُ
اذا ما رأت قلبًا خليًّا من الهوى تقولُ لهُ كن مغرمًا فيكونُ

وقد احتمل في مدة حياتهِ مشقات وعذابات كثيرة يطول شرحها. وفي هذه السنة استولى التتر على بغداد فانقرضت دولة العباسيين وقتل آخر خلفائهم المستنصر بالله وكانت مدَّة دولتهم ٥٢٤ سنة وعدد خلفائهم ٣٧ خليفة. وقد حدث في دمشق وبلاد الشام وباءٌ عظيم وطال امرهُ قال ابو الفداء واشتدَّ الوباءُ بالشام وخصوصًا في دمشق حتى لم يوجد فيها مغتسل الموتى. اه. وكان امر التتر يتقوَّى فحسب لهم الملك الناصر حسابًا اذ رأى ضعفهُ لدى قوتهم فارسل زين الدين محمد الحافظي من اهالي قرية عقربا القريبة من دمشق بهدايا وتحف الى هولاكو ملك التتر وجاملهُ

ثم ان البحرية المصريين كسروا عسكر الملك الناصر عند غزة والتجأُوا الملك المغيث صاحب الكرك فركب عليهم الناصر سنة ٦٥٧ ونزل على بلاد الكرك فاتاهُ من يستشفع بالمغيث فقال بشرط ان يسلمني البحرية الذين عندهُ فقبل المغيث وسلم القوم غير ان بعضهم ومن جملتهم بيبرس فرُّوا هاربين الى الناصر فامنهم وهكذا وجد الصلح بين الناصر والمغيث ورجع الناصر الى دمشق ظافرًا وعند عودتهِ بلغهُ ان التتر وصلوا الى حلب وشنعوا بها

فرحل بجنوده نحو مصر ونزل بنابلس اياماً ثم خلف بها جيشاً وسار الى مصر فاتى التتر وملكوا بلاد الشام الى غزة على انهم لما اتوا دمشق سلمهم اهلها المدينة بالامان فلم يلحقوا بها ضرراً ووضعوا على قضائها محيي الدين بن الذكي اما القلعة فامتنعت عليهم فحاصروها ونصبوا عليها المجانيق وفي شهر جمادى الاولى تسلموها بالامان واعتقلوا محافظها ونهبوا ما بها واخربوا اسوارها. وفي ١٥ شعبان سنة ٦٥٨ اخرج التتر من الاعتقال نقيب قلعة دمشق وواليها وضربوا عنقيهما بداريا وشاع بين اهالي دمشق خروج عساكر مصر لمقاتلة التتر فسروا بهذا الخبر. وفي ٢٧ رمضان هذه السنة اوقعوا بالنصارى ونهبوهم ودقوا الناقوس واخربوا الكنيسة المريمية العظيمة فكانت ايام شدة وويل على المسيحيين. وفي اواخر شهر رمضان تجهزت العساكر المصرية لمحاربة التتر وساروا فوقع القتال في الغور فانكسر التتر شر كسرة ووقع بهم السيف ففني معظمهم وسار الملك المظفر حتى دخل دمشق ففرح به المسلمون وانشرحت خواطرهم لخلاصهم من شر التتر. وفي حال دخول المظفر دمشق امر بشنق من انتمى الى التتر فشنقوا واخذ في تقرير احوال الشام واناط بنيابة دمشق الامير علم الدين بن سنجر الحلبي وبعد ذلك سار قاصداً مصر. وكان بيبرس بالاتحاد مع قوم قد دبر على قتل الملك المظفر واخذ يتوقع الفرص فتمكن زعماء بيبرس من قتل المظفر فقتلوهُ بنواحي غزة في ١٧ ذي القعدة وكانت مدة ملكهِ ١١ شهراً و١٣ يوماً وحُلِف لبيبرس في اليوم الذي قتل فيهِ المظفر وتلقب بالملك القاهر ركن الدين بيبرس الصالحي فقيل لهُ ان القاهر لقب غير مبارك فلقب ذاتهُ بالظاهر

وفي هذه السنة شرع نائب السلطنة بدمشق الامير علم الدين في عمارة القلعة وجمع لها الصناع وكبراء الدولة والناس وعملوا بها حتى النساء

ولما بلغ الامير علم الدين ما اصاب الملك المظفر دعا اهل دمشق اليهِ وحملهم على مبايعتهِ فبايعوهُ ولقب نفسهُ بالملك المجاهد وخُطِب لهُ بالسلطنة وضربت السكة باسمهِ

ومن راجع هذا التاريخ يرى بان حوادث كثيرة عظيمة متتابعة قد طرأت على دمشق وغيرها في مدة ولاية الملك الناصر يوسف الذي ملك دمشق منذ سنة ٦٤٨ لان في مدة ملكه خرجت مصر من الدولة الايوبية وقامت فيها دولة المماليك وسقطت بغداد والدولة العباسية وفعل الوباء فعلاً ذريعاً في سوريا وخصوصاً في دمشق وفتح التتر البلاد واعدموا معظم اهلها وقُتل النصارى في دمشق ودمرت معابدهم وخرجت دمشق من ايدي الايوبيين هذا فضلاً عمّا قتل من الملوك وقد اغار التتر على سوريا ثانيةً وانكسروا امام حمص الى غير ذلك

وسنة ٦٥٩ سار الملك المنصور واخوهُ الملك الافضل صاحب حمص الى دمشق ونزلا بدورها وصاحبها قد وهن امرهُ فلم يدخلا بطاعتهِ كانا منازعين له

وفي ١٣ صفر اتت جنود الملك الظاهر بيبرس لمحاربة دمشق فخرج اليهم صاحبها والمنصور والافضل لم يخرجا معهُ فانتشب القتال فانهزم صاحب دمشق الملقب بالملك المجاهد ودخل القلعة ولما جن بهِ الليل هرب الى جهة بعلبك فتبعهُ خيالة الظاهر وقبضوا عليهِ وساقوهُ اسيرًا فدخلت دمشق بملك الظاهر بيبرس واقيمت له الخطبة بها وبغيرها كحمص وحماه وحلب وهكذا انتهت دولة الايوبيين بدمشق وصارت الشام ومصر لدولة المماليك واستقر ايدكين البند قداري الصالحي بدمشق لتدبير امورها وعاد المنصور الى حماه والاشرف الى حمص واستقرا بهما

ويوم انكسر التتر كان الملك الناصر يوسف واخوهُ الظاهر وغيرهما من الملوك الايوبيين عند هولاكو ملك التتر فقتلهم انتقاماً وورد خبر ذلك الى دمشق فحزن الناس واقاموا العزاء في الجامع الاموي اما الملك الناصر يوسف فهو من نسل صلاح الدين كما تقدم وملك اولاً بحلب ثم امتد ملكهُ كثيرًا وصارت له سوريا الى غزة وكان شاعرًا شجاعاً كريماً كثير الحلم ولحلمهِ تمرد بعض مماليكهِ ففقدت امنية الطرقات في آخر مدتهِ لانهُ لم يرد ان يقتل مذنباً حيث كان يقول الحي افضل من الميت . وبنى في دمشق المدرسة الناصرية قرب الجامع ووقف لها وبنى تربة بالصالحية وكان موتهُ ببلاد العجم وعمرهُ ٣٢ سنة

فصل

في تاريخ دمشق مدة خضوعها للمصريين وفتح تيمور لها الى استيلاء العثمانيين عليها

ذكرنا سقوط الدولة الايوبية في مصر ودمشق وان بيبرس استولى على الامر واخضع دمشق وبعد وقت قصير من استيلائهِ عليها أُتي برجل الى مصر وادَّعي بانهُ من نسل الخلفاء العباسيين فعضدهُ بيبرس وجهزهُ وسارا معًا الى دمشق فنزل بيبرس في القلعة ونزل الخليفة على جبل الصالحية وبعد بضعة ايام من نزولها سار الخليفة الى بغداد للاستيلاء عليها فصادفهُ التتر وقتلوهُ ونهبوا ما معهُ وفرقوا جماعتهُ واما الظاهر بيبرس فبقي في دمشق وعزل قاضيها وولى القضاء لشمس الدين بن خلكان وسار الى مصر وكان نائب دمشق علاء الدين طيبرس فظلم بالرعية فارسل الظاهر بيبرس وقبض عليهِ واستناب عوضًا عنهُ الامير جمال الدين النجيبي الصالحي

وسنة ٦٦١ اتى الظاهر بيبرس بلاد الشام وقتل المغيث صاحب الكرك واستولى على بلادهِ ثم خرب كنيسة الناصرة وكانت من اعظم كنائس النصارى بفلسطين واغار على عكا وغيرها وغنم الغنائم وافل راجعا الى مصر. وسنة ٦٦٣ اتى لمحاربة الافرنج في سوريا وفلسطين ففتح قيصرية وارسوف وغيرهما من المدن. وسنة ٦٦٤ فتح صفد ودخل دمشق وجمع جيشًا عظيمًا وارسلهُ الى بلاد الارمن فوصل العسكر الى سيس في ذي القعدة وبعد حصار طويل فتحوها عنوةً وغنموا مغنمة عظيمة. ومن سنة ٦٦٦ الى ٦٦٨ كان الظاهر مشتغلاً في الفتوحات والاسفار ففتح يافا وانطاكية وغيرهما من مدن الافرنج واخذ يصاف من الاسماعيلية واتى دمشق مرارًا. وسنة ٦٦٩ اتى من مصر ونازل حصن الاكراد وفتحهُ ثم فتح عكار فهناهُ محيي الدين بن عبد الظاهر بفتحها بقولهِ

يا مليك الارض بشرا لك فقد نلتَ الاراده
انَّ عكَّار لعمري هي عكًّا وزياده

ثم اخذ قلعة العليقة وبلادها من الاسماعيلية واتى دمشق وما لبث بها اياما

الاّ ورحل ونازل حصن القرين (قلعة عظيمة في بلاد عكا لها مسالك واحد حرج وآثارها الباقية الى عصرنا تشهد بما كان لها من العظمة والمتانة في الايام الماضية وقد زرتها في اوائل شهر تموز سنة ١٨٧٧ م) وتسلمهُ وهدمهُ ورحل الى مصر. وسنة ٦٧٠ اتى الى دمشق وعزل نائبها جمال الدين وولى عوضًا عنهُ في مستهل ربيع الاوّل علاء الدين ايدكين الفخري . ثم سار الى حمص وحصن الاكراد ورجع الى دمشق فاغارت التتر على عينتاب وغيرها فاستدعى عسكرًا من مصر وسار بهم الى حلب ثم رجع الى مصر فدخلها في ٢٣ جمادى الاولى ثم خرج منها في شوال الى بلاد الشام واتى دمشق بعساكرهِ في شهر صفر سنة ٦٧١ وكانت قد قويت اخبار التتر فقلق الاهلون واتى الناس من الجهات الى دمشق ملتجئين وكان في جملتهم علي والد اسمعيل المعروف بابي الفداء المؤرخ الشهير (ابو الفداء هو ابن علي بن محمود بن محمد بن عمر بن شاهنشاه بن ايوب ولد هذه السنة في دمشق في دار ابن الزنجيلي) ثم رحل الملك الظاهر عن دمشق لمحاربة التتر والافرنج وبعد ذلك عاد اليها ورحل عنها . وفي محرم سنة ٦٧٥ عاد اليها بعسكر متوافر وخرج لمحاربة بلاد الروم في ٥ رمضان وهي بيد التتر وعاد الى دمشق في ٥ محرم سنة ٦٧٦ وفي ٢٧ منهُ توفي في دمشق فحنط ووضع في القلعة الى ان انتهت تربتهُ المبنية بالقرب من الجامع (وهي معروفة الآن وبها مكتب رشدية) فنقل اليها وكانت مدة ملكهِ ١٧ سنة وشهرين وكان ينقش على سكتهِ بيبرس الصالحي

وفي اوائل شهر ربيع الاوّل سنة ٦٧٦ اقيم بعد الظاهر بيبرس ابنهُ الملك السعيد علي على مملكة مصر والشام وسنة ٦٧٧ اتى دمشق وجرد العسكر منها صحبة سيف الدين قلادون الصالحي وجرد ايضًا صاحب حماه فساروا ودخلوا الى بلاد سيس وشنوا الغارة عليها وغنموا وعادوا الى جهات دمشق فاتفقوا على مخالفة الملك السعيد وخلعهِ من المملكة لسوء تصرفهِ وتدبيرهِ وعبروا على دمشق ولم يدخلوها فارسل الملك السعيد وهو في دمشق واستعطفهم فلم يلتفتوا واتموا السير فركب الملك السعيد وساق فسبقهم الى مصر وصعد الى قلعة الجبل فحاصروهُ

الخارجون عن طاعتهِ فاخذت عساكرهُ بالافتراق عنهُ والانضمام الى اعدائهِ فرأَى ضعفهُ وسلم بانخلاعهِ بشرط ان يُعطَى الكرك فاجابوهُ الى ذلك فخرج في ربيع الاوّل سنة ٦٧٨ فارسلوهُ من وقتهِ الى الكرك واجلسوا اخاهُ شلامس عوضًا عنهُ وعمرهُ سبع سنين وخطبوا لهُ على المنابر وضربت السكة باسمهِ وصار امير جيوشهِ الامير سيف الدين قلادون فهذا الامير وجه بالامير شمس الدين سنقر الاشقر الى دمشق وجعلهُ نائب السلطنة بالشام

وفي ٢٢ رجب سنة ٦٧٨ خُلع الصبي (شلامس) عن كرسي السلطنة بمصر وجلس عوضًا عنهُ امير جيوشهِ وسُمّي السلطان الملك المنصور قلادون الصالحي فاقام العدل واحسن السياسة ودبر المملكة احسن تدبير

ثم ان الملك السعيد المخلوع الذي تولى الكرك مات بها فنقل جسدهُ ودفن في دمشق بتربة ابيهِ

ولما جلس قلادون طمع نائب السلطنة سنقر في المملكة وعمل على التسلط عليها ففي ٢٤ ذي القعدة حلف لهُ الامراء والعسكر الذين عندهُ وتلقب بالملك الكامل شمس الدين سنقر فعلم قلادون فجهز عسكر مصر وارسلهُ مع علم الدين سنجر وغيرهِ من القواد فاتوا دمشق فخرج اليهم سلطانها الجديد وانكسر امامهم فدخلوا المدينة وسلطانها قد هرب وسار وانضم الى التتر وتقدم معهم الى نواحي حلب. وفي ٢٠ صفر سنة ٦٧٩ عيّن الامير لاجين نائبًا للسلطنة في دمشق والشام

وسنة ٦٨٠ اتى السلطان قلادون دمشق وقتل جماعة من الظاهرية كان قد قبض عليهم في بيسان وجرى هذا بينما كان جيش التتر يتقدم نحو دمشق فالتزم السلطان ان صالح سنقر وصاحب الكرك وسار عن دمشق فاجتمع اليهِ العسكر والامراء من كل جانب وجرت مواقع عظيمة مع التتر انكسر بها السلطان اولاً ثم فاز بنصر مجيد وبدّد جيش التتر تبديدًا وكتب بنصرهِ الى جميع الاطراف فكان فرح وزينة عمومية

وفي شعبان سنة ٦٨٢ صار بدمشق سيل عظيم اخذ ما مرّ بهِ من العمارات

وغيرها واقتلاع الاشجار واهلاك من الخلق والخيل والجمال والمواشي شيئًا لا يحصى وقد جرى كل ذلك والسلطان في دمشق . وسنة ٦٨٣ سار السلطان وفتح حصن مرقب وذهب الى مصر . وسنة ٦٨٨ فتح مدينة طرابلس بعد ان لبثت بايدي الصليبيين ١٨٥ سنة ثم جهز عسكرًا لفتح عكا فادركته المنية فمات في ٦ ذي القعدة هذه السنة وله في دمشق مآثر كثيرة

ووقت موت السلطان قلادون جلس على سريره ابنه الملك الاشرف صلاح الدين خليل وسار بجنده سنة ٦٩٠ وحصر عكا ووضع عليها المجانيق الكبيرة والصغيرة وفتحها في ١٧ جمادى الآخرة فخاف الافرنج واخلوا صيدا وبيروت وصور وعثليث وانطرطوس فاستلمها السلطان ولعبت بها ايدي الخراب . وكان هذا الفتح من الموفقات الغريبة وبه انتهى الافرنج من سوريا وفلسطين ورجعت البلاد للمسلمين وانقطعت الحملات الصليبية وارتاحت اوروبا واسيا من تلك الحروب الدموية التي دامت ٢٠٠ سنة . وبعد هذا الفتح اتى الملك الاشرف دمشق واقام بها مدة وعاد الى مصر بعد ان خلع نائبه بدمشق واقام مكانه علم الدين سنجر الشجاعي

وفي اوائل سنة ٦٩١ اتى الملك الاشرف دمشق وذهب منها ونازل قلعة الروم الكائنة على الفرات وفتحها في ١١ رجب وافل راجعًا الى دمشق وصام بها رمضان وعزل نائبه فيها واستناب عوضًا عنه عز الدين ايبك الحموي ورجع الى مصر

وسنة ٦٩٣ تآمر مماليك السلطان قلادون وقتلوا الملك الاشرف صلاح الدين خليل وجلس بعدهُ واحد من القتلة اسمهُ بيدرا فقتلوهُ بعد جلوسهِ بساعات وجلس بعدهُ السلطان الاعظم الملك الناصر وهو ابن المقتول وكان جلوسهُ في اواخر شهر محرم . وفي محرم سنة ٦٩٤ خُلع السلطان الاعظم فجلس مكانهُ الامير زين الدين كتبغا المنصوري ولقب نفسهُ الملك العادل زين الدين كتبغا فخُطِب له في مصر والشام وضُرِبت السكة باسمهِ . وبعد جلوسهِ اتى دمشق وطاف

حواليها في اعمالها ثم رجع اليها وعزل نائبها عز الدين واستناب عوضًا عنهُ مملوكهُ سيف الدين غرلو . وفي محرم سنة ٦٩٦ سار السلطان بعساكرهِ الى مصر فلقيهُ في الطريق لاجين نائبهُ في مصر وقصد خلعهُ فهرب وعاد الى دمشق فالتقاهُ نائبها بالاكرام ودخل القلعة واهتم بجمع العساكر والتاهب لحرب لاجين فلم يوافقهُ عسكر دمشق على قصدهِ فخلع نفسهُ واقام في القلعة وارسل يعلم لاجين بذلك ويطلب منهُ الامان ومحلًّا ياوي اليهِ فاعطاهُ لاجين صرخد فذهب اليها

فجلس لاجين على سرير السلطنة ولُقّب بالملك المنصور حسام الدين لاجين المنصوري وسار الى مصر وعند وصولهِ اليها عزل نائب السلطنة بدمشق وارسل عوضًا عنهُ سيف الدين قبجق المنصوري

وفي ١١ ربيع الآخر سنة ٦٩٨ قام مماليك الملك المنصور حسام الدين وقتلوهُ وكانت مدة ملكهِ سنتان وثلاثة اشهر واتفق كبراء الدولة بعدهُ على ترجيع الملك الناصر المخلوع فاتوا بهِ وارجعوا لهُ الملك واستقرَّ لهُ الحال

وسنة ٦٩٩ سار قازان بن ارغون التتري بجموع عظيمة من المغل والكرج والمزدة وغيرهم وعبر الفرات ووصل بجموعهِ الى حلب ثم الى حماه ثم سار ونزل على وادي مجمع المروج فاتت العساكر الاسلامية مع السلطان ونزلوا بظاهر حمص ثم ساروا الى جهة الاعداء فاشتبكت المقاتلات مرارًا وفي النهاية انكسر المسلمون وانهزموا وتمت بهم الهزيمة الى مصر فتبعهم التتر واستولوا على دمشق وساقوا باثر المسلمين الى القدس وغزّة وبلاد الكرك

وسنة ٧٠٠ رجع التتر يغزون بلاد الشام ونزلوا نواحي حلب فاتى السلطان الى حماه واتت اليهِ العساكر في جملتها جيش جرار من دمشق فهطلت امطار غزيرة غير معهودة فالتزم السلطان ان يرجع ويصرف عساكرهُ وكذلك التتر اقفلوا راجعين ولما عاد السلطان الى مصر اصدر امرًا سلطانيًا بان يتعمم اليهود بعمائم صفراء والنصارى بعمائم سوداء والسامرة بعمائم حمراء فأُجري امرهُ

وسنة ٧٠٢ حمل جمع من التتر على بلاد الشام واتوا ونزلوا على القريتين

فخرجت اليهم الجنود وهزمتهم ثم عادوا ايضًا بجيوش جرارة تحت قيادة قطلوشاه نائب قزان فنزلوا على حماه وكانت العساكر الاسلامية مجموعة عند دمشق فسارت نواحي مرج الصفر فتقدم التتر وعبروا دمشق وتبعوا عساكر المسلمين الى مرج الصفر فصادف وصول السلطان من مصر بعساكر جرارة فالتقى العسكران وتسعرت نيران الحرب فانكسر التتر وقتل منهم عدد غفير وانهزم من بقي فتبعهم عسكر المسلمين الى الفرات واهلكوهم

وسنة ٧٠٨ ذهب السلطان الى الكرك فخلعة الجانشكير وتولى عوضًا عنهُ في ٢٣ شوال ووافق الجانشكير امراء مصر والشام ولُقّب بالملك المظفر ركن الدين بيبرس المنصوري وما لبث الأّ وابتعد عنهُ عسكر دمشق ووجهوا للسلطان الاسبق يعترفون بهِ وكان بالكرك فاتى دمشق ودخلها يوم الثلاثا ثالث شعبان سنة ٧٠٩ فاتاهُ عمال الجهات بعساكرهم وقدموا لهُ طاعتهم فسار بعسكرهِ نحو مصر ولما وصل الى غزة ارسل الجانشكير عسكرًا لمحاربتهِ ولما وصل عسكر مصر الى غزة مال الى السلطان وفضلهُ على الجانشكير

ولما علم الجانشكير خيانة عسكرهِ لهُ خلع نفسهُ وارسل يطلب الامان من السلطان فامنهُ واعطاهُ صهيون ومئة مملوك وسار الى مصر واستولى على عرش المملكة في غرة شوال سنة ٧٠٩

ثم ان التتر رجعوا الى محاربة سوريا فقطعوا الفرات ونزلوا بالرحبة فاتى السلطان دمشق في ٢٣ شوال سنة ٧١٢ ورتب امور العسكر وسار الى الحج. وفي ١١ محرم سنة ٧١٣ رجع من حجهِ الى دمشق واقام بها مدة وعاد الى مصر. وفي نحو سنة ٧١٩ استناب عنهُ بدمشق سيف الدين تنكز

وكان تنكز محبًّا للاصلاح والابنية فعمر باب توما ووسع طرقات المدينة وحسنها واقام ابنية كثيرة عمومية وخصوصية في دمشق والقدس ووقف عليها الاوقاف لتبقى عامرة وقد طالت مدة نيابتهِ وفي ايامهِ صارت حريقة في دمشق واتسعت دائرتها وذهبت فيها الاموال والنفوس وتدمر بها جانب من المدينة

ثم تكررت فاتهم النصارى بها فوقعوا تحت العذاب وغرموا بالف الف درهم وصلب منهم ١١ رجلاً واسلم كثيرون تخلصاً من البلاء والعذاب

وكان نفوذ تنكز عند السلطان عظيماً والسلطان يعزه ويكرمهُ ظاهراً ويبغضهُ ويحب الايقاع بهِ باطناً فاكتشف تنكز على بعض ما اكمنهُ لهُ السلطان فاستوحش منهُ وقصد مخالفة التتر ضدهُ فبلغ السلطان هذا الامر فارسل سرّاً في ذي القعدة سنة ٧٤١ وامر عاملهُ في صفد ان يذهب سرّاً الى دمشق بدون معرفة تنكز ويقبض عليهِ فاتى نائب صفد وفعل كما أُمر وقبض على تنكز وساقهُ الى مصر. وكان تنكز عظيم السطوة شديد الغضب قتل خلقاً كثيراً ووقف الاوقاف الكلية . وقد غضب يوماً على الكلاب في دمشق فقتل كثيراً منها وفرق بين ذكورها واناثها ليقطع نسلها وكان يكره صوت الضفادع فاخرجوها من الانهر والآجام فقال بعضهم فيهِ يوم أُخذ اسيراً

تنكر تنكز بدمشق تيهاً وذلك قد يدل على الذهابِ
وقالوا للضفادع الف بشرى بموتهِ فقلت وللكلابِ

وتولى نيابة السلطنة بعدهُ في دمشق الطنبغا الحاجب الصالحي وفي هذه السنة اي ٧٤١ توفي في مصر السلطان الملك الناصر محمد بن قلادون الصالحي وعمرهُ سبعون سنة وقد اتسع ملكهُ وخطب لهُ في بغداد والعراق والموصل وديار بكر والروم وضربت السكة هناك باسمهِ كما يضرب لهُ بالشام ومصر وحج مراراً كثيرة وكان عادلاً رحيماً ابطل مكوساً (ضرائب) كثيرة وكان الامن والسلام سائدين في زمانهِ وبنى من المعابد والجوامع شيئاً كثيراً وعهد بالمملكة لولدهِ السلطان الملك المنصور واجلسهُ في حياتهِ وكانت مدّة سلطنة الناصر في ولاياتهِ الثلاث ٤٣ سنة وسبعة اشهر . وفي صفر سنة ٧٤٢ خلع السلطان الملك المنصور واقيم اخوهُ الملك الاشرف وعمرهُ ثمان سنين . ثم خلعوا الاشرف واقاموا مكانهُ الناصر احمد سنة ٧٤٢ ثم خلعوا الناصر احمد واقاموا مكانهُ اخاهُ الملك الصالح اسمعيل سنة ٧٤٣ وكان نائب دمشق وقتئذٍ ايدغمش فتوفي

واقيم مكانهُ الامير طقزتمر

وفي ربيع الآخر سنة ٧٤٦ توفي الملك الصالح اسمعيل وجلس مكانهُ اخوهُ السلطان الملك الكامل شعبان فعزل طقزتمر عن النيابة ووضع يلبغاء الناصري فاتفق يلبغاء مع امراء مصر وخلعوا الكامل شعبان وولوا عوضًا عنهُ عمهُ السلطان الملك المظفر امير حاج . وفي جمادى الاولى سنة ٧٤٨ ثقل خاطر السلطان على يلبغا فهرب من دمشق باموالهِ الكثيرة فوقع القبض عليهِ في الطريق فمات ودُفن في قاقون . وفي جمادى الآخرة صار ارغون نائب حلب نائبًا على دمشق . وفي رمضان قتل السلطان الملك المظفر امير حاج واجلس مكانهُ السلطان الملك الناصر حسن . وفي هذه السنة كان في دمشق غلاء فاحش حتى بيعت غرارة الحنطة بثلاث مئة درهم . وتبعهُ في سنة ٧٤٩ وباء عظيم اغتال الناس اغتيالاً

ودامت دمشق خاضعة لدولة الاتراك المماليك في مصر الى ان سقطت وقامت الدولة الجركسية مكانها في مصر ايضًا واوّل الملوك الجراكسة الملك الظاهر برقوق وهو ابو سعيد برقوق بن انس بن عبد الله الجهاركسي الاصل جلس على كرسي السلطنة في ١٩ رمضان سنة ٧٨٤ فخضعت دمشق لهُ كباقي الممالك

وفي ايام سلطنة الملك الناصر فرج كانت الحروب التيمورية منتشبة في سوريا فان تيمور المغولي كان قد صار عظيمًا وفتح مدنًا وامصارًا واذاق الناس اشد المصائب وسقاهم امرّ كاسات النوائب وكان يطمع في اخضاع جميع العالم . وسنة ٨٠٣ زحف من عين تاب على حلب وفيها الجيوش الجرارة وفتحها عنوةً واخذ يتقدّم في الفتوحات بسوريا . وفي اوائل ربيع اوّل سنة ٨٠٣ قصد دمشق على انهُ عند حلولهِ بحلب فرّ منها رجلان اسم احدهما النيوغا الرودار والثاني عبد القصار واتيا دمشق وحرضا اهلها على الرحيل منها خيفة بطش ذلك الفاتح الظلوم فمن الناس من قاومهما وحاول رجمهما لادعائهِ بانهما يقطعان قلوب الرعية ومنهم من سمع مشورتهما وفرّ هاربًا . ولما وصل الى مصر خبر ما حل

بحلب جهز السلطان عساكرهُ وسار بها نحو الشام فاطمانت قلوب الناس وهرع بعض مهاجري دمشق الى اوطانهم وداوم السلطان السير حتى دخل دمشق في اوائل ربيع الاول فاخذ في تحصينها وتقوية اسوارها ووضع فيها الحراس ونظم امورها العسكرية اتم تنظيم ووضع جانبًا من جيوشهِ الجرارة خارج اسوارها باكمل نظام ولبثت تلك العساكر منتظرة قدوم تيمور . وفي ١٠ ربيع الآخر وفد تيمور بجيوشهِ الجرارة ونزل في داريا فاخذت المناوشات تجري بين العسكرين وبعد ذلك ارسل تيمور فرقة مؤلفة من عشرة آلاف مقاتل لمحاربة الجنود الاسلامية عند اسوار دمشق فانكسرت هذه الفرقة وقتل معظم رجالها فعلم تيمور ان لا قدرة لهُ على فتح المدينة بميدان النزال فعمد الى استعمال الحيلة وارسل ابن اختهِ الى السلطان الناصر بالمدينة فتظاهر هذا بالبغضاء لخالهِ تيمور والانحياز الى المدافعين فصدقوهُ وقبلوهُ اما تيمور فتظاهر بالرحيل عن دمشق وتقهقر عنها ففرح الدماشقة . ثم وقع الانشقاق بين عساكرهم وتفرق راي امراء الجند فالتزم السلطان ومن معهُ من الجنود ان يرحلوا عن دمشق فرحل السلطان نحو مصر ظانًّا بان دمشق في امن فعلم تيمور بسفر السلطان فايقن بالفوز السريع وعاد الى دمشق وضيق عليها فتشبث اهلها بالدفاع متكلين على الله وعلى نجدة من السلطان وبعد يومين خاب الامل فاجتمع الاعيان والعلماء والامراء وتشاوروا في امرهم فقر قرارهم على تسليم المدينة لتيمور فاختاروا رهطًا منهم لاجل التسليم من جملتهم قاضي القضاة ولي الدين بن خلدون المؤرخ الشهير فخرج الرهط وعرضوا تسليم المدينة على تيمور فقبل طلبهم . وامن المدينة واستلم مفاتيحها ودخل من الباب الصغير (باب الشاغور) واوصى عساكرهُ بعدم اذى الاهلين ومضرتهم اما القلعة فكانت متمنعة عليهِ وفيها بعض الجند تحت قيادة قائدهم الباسل شهاب الدين احمد الزردكاش فبنى قبالتها ابراجًا اعلى منها واخذت عساكرهُ تقتلع الحجارة من اسافلها فوهن عزم من بها فسلموها لهُ في ٢٩ ايل رجب تحت شروط ودامت محاصرتها ٤٣ يومًا

ولما دخل تيمور المدينة اخذ يطالب اهلها باموالهم فجمعها ونكب الاهالي نكبة عظيمة واختار اشقياء القوم لجمع الاموال ثم امر بتعذيب امرائها اشد عذاب واطلق العنان لجنده لينهبوا ويسلبوا ويفتكوا ويحرقوا فاذاقوا الاهالي من الشدة ما لا يحتمل . قال صاحب عجائب المقدور في اخبار تيمور. وحين ملأ تيمور جراب طمعه من نفائس الاموال ودنه واستندر خلفاءها شيئًا فشيئًا صافيًا ورائقًا حتى صفاها بقطنه امر بتعذيب هولاء الامراء الكبار (قد ذكرهم قبل هذه الجملة) فعذبوهم بالماء والملح وسقوهم الرماد والكلس وكووهم بالنار واستخرجوا جنى الاموال منهم استخراج الزيت بالمعصار ثم اطلق عنان الاذن لعسكره بالنهب العام والسبي الطام والفتك والقتل والاحراق والتقييد بالاسر على الاطلاق فهجم اولئك الكفرة الفجرة على ذلك اشد الهجوم وانقضوا على الناس بالتعذيب والتثريب والتخريب انقضاض النجوم واهتزوا وربوا وفتكوا وسبوا وصالوا على المسلمين واهل الذمم صولة الذئاب الضواري على ضواني الغنم . وفعلوا ما لا يليق فعله ولا يجمل ذكره ونقله واسروا المخدرات وكشفوا غطاء المسترات واستنزلوا شموس الخدور من افلاك القصور وبدور الجمال من سماء الدلال وعذبوا الكبار والاصاغر بانواع العذاب وبدا للخلائق ما لم يكن في حساب وصنفوا في استخراج النفائس من النفوس باصناف العذاب مسائل يقضي منها العجب العجاب وفرقوا بين الوالدة وولدها والروح وجسدها وذهلت كل مرضعة عما ارضعت وجازوا كل نفس بما صنعت وبغير ما صنعت وفرّ المرء عن اخيه وامه وابيه وصاحبته وبنيه وصار لكل يومئذٍ شان يغنيه وذل العزيز الكريم وهان الخطير الجسيم وطم البلاء وعم القضاء وطاشت الحلوم وتبلدت الفهوم وتراكمت غبر الغموم فاقسم بالله لقد كانت تلك الايام علامة من علامات يوم القيام واسفرت تلك الساعة عن اشراط الساعة واستمر هذا البلاء العام نحوًا من ثلثة ايام الى ان يقول

ثم انهم (يريد اصحاب تيمور) لما انهوا العيث والعبث وقضوا في حج فسادهم التفث واتموه بالفسق والجدال والرفث ورموا في البيوت النار وفي القلوب

الجمرات وافاضوا ما اراقوا من دماء المسلمين الواقعين في الاهصار وزملوا في اشواظ الاحراق فارسلوا في حرم المدينة شوظًا من نار وكان فيهم من روافض الخراسانية فاطلقوا النار في جامع بني امية فتشتتت النار بلهيبها وساعدتها الريح بهبوبها فتسابقا في محو الآثار ريحًا ونارًا واستمر على ذلك باذن الله ليلاً ونهارًا فاحترق ما بقي من النفائس والنفوس وانمحى بلسان النار ما سطر على لوح وجود المدينة من الدروس وامست تلك المغاني لا تسمع فيها لاغية ولا الهمس واصبحت حصيدًا كانها لم تغن بالامس وذلك بعد ان اظهروا من الاموال واوثقوا منه الاحمال الى ان قال . وبعد ان امست النار تلعب بانحاء المدينة وتهلك ابنيتها الحسنة الجميلة سار تيمور عنها يوم السبت الواقع في ٣ شعبان سنة ٨٠٣ قاصدًا الجهة الشمالية التي منها وفد وقد اجلا معه بعض الاعيان واصحاب الفضل واهل الصنائع وكل ماهر بفن كالنساجين والخياطين والذين يصنعون السيوف البواتر من اشتهرت بهم دمشق . اه . ومنذ اجلا تيمور عملة السيوف خسرت دمشق هذه الصناعة التي اشتهرت بها ولم ترجع اليها ولولا اضطرار الاهلين للمنسوجات ما رجعت صنعتها للمدينة ايضًا

ومصيبة دمشق هذه هي اعظم المصائب التي دهمتها منذ وجدت بين المدن . فان اموالها فقدت بالكلية وعمرانها اضحى خرابًا وسكانها لعب بهم السيف والنار والسبي والتشتيت ولم يبقَ منهم الا بقية قليلة وهي التي سمعت للمنذر بن المار ذكرها وهاجرت ربوع دمشق ومن حفظهُ الله من تلك البلايا والشدائد بعد ان قاسى من العذاب اشدّهُ ومن الويل امرّهُ

وفي اوائل سنة ٨٠٤ نزح تيمور عن سوريا بالكلية فاخذت تلك البقايا المتفرقة ترجع الى وطنها وتقيم ما تقدر عليهِ من الابنية وتوارد الناس الى دمشق من كل جانب فعمر بعض خرابها ورمم ما تهدّم من اسوارها وما لبثت الاّ ورجعت مدينة تذكر بين المدن واكثر من اتى وسكنها اقوام من حماه . وقد رجعت اليها بعض صنائعها على انهُ لفقدان فطاحل العمال بكل فن وصنعة

كانت مصنوعاتها دون ما كانت عليهِ كما ان المدينة قد تاخرت في الحالة والعمران عما كانت عليهِ قبل افعال تيمور بها ولكن لحسن موقعها التجاري وخصب اراضيها وكثرة مياهها وتوارد الحجاج اليها من جميع الاقطار كل سنة ذهابًا وايابًا اخذ عمرانها يتقدَّم شيئًا فشيئًا ولم يمض عليها من الزمان مدة الاَّ رجعت مدينة من اعظم مدن سوريا بعد حلب وبقيت تحت سلطة دولة المماليك الجراكسة يتناوبها نوابهم الى ايام قانصوه الغوري الذي قتل سنة ٩٢١ وملك بعدهُ ابنهُ الملك الصالح تومان باي وقتل بعد تملكهِ بثلاثة اشهر وبهِ انتهت دولتا الاتراك والجراكسة المماليك في سوريا وعدد من وطئ عرش المملكة من الدولتين ٤٦ ملكًا وخضعت البلاد بعدهم للسلطان سليم العثماني

فصل

في تاريخ استيلاء العثمانيين على دمشق الى وقتنا الحاضر

ان السلطان سليم بعد ان تغلب على قانصوه سلطان مصر في مرج دابق جاء حلب واستولى عليها وصلى بجامعها الكبير فاعطاهُ الخطيب لقب خادم الحرمين الشريفين الذي كان يختص بملوك مصر فخلع السلطان عليهِ حلة وكانت تساوي خمسين الف درهم . ومكث السلطان بحلب مدة وسار الى حماه وسلم ادارتها الى كوزلجي باشا وجعل حمص سنجقًا ثم استولى على دمشق ونصب فيها العلم السلطاني واقام بها اربعة اشهر فحضر اليهِ امراء العرب واصحاب مقاطعات سوريا واوجه جبل لبنان فاكرمهم وفي مدة اقامتهِ في دمشق كان يكثر التردد الى الجامع الاموي

وسنة ١٥١٦ م رجع السلطان سليم الى الشام بعد ان مهد الاقطار المصرية والشامية فعصي عليهِ الامير ناصر الدين بن الحنش صاحب صيدا والبقاعين فساءهُ الامر وارسل يفحص عنهُ واذ لم يجدهُ القى القبض على بعض الامراء المعنيين واخذهم معهُ الى الاستانة ثم أُرسل اليهِ راس ابن الحنش فخلى سبيلهم

وسنة ١٥٨٤ م نهبت خزينة السلطان مراد في جون عكار فامر ابرهيم باشا والي مصر ان يتوجه بعساكره لمقاصة آل سيفا وغيرهم من امراء لبنان فخرجت الجنود من دمشق لنجدته ونزل الجميع في مرج عرجوش فهابهم الامراء وفرّوا ثم سار الى عين صوفر فاتاهُ عقال الدروز بالتقادم فقبلها وصرف العساكر الدمشقية فعادت الى وطنها غانمة. وسنة ١٦٠٠ سار جيش من دمشق واستولى على حلب فذهب نصوح باشا والي حلب واستنجد بحسين باشا والي كلس وتعاضدا معًا واخرجا العساكر الدمشقية من حلب واوقعا بهم

وسنة ١٦٠٦ م جمع احمد باشا الحافظ والي دمشق جنودهُ وسار بهم لمحاربة الامير يونس الحرفوش والامير احمد الشهابي فاستنجدا بالامير فخر الدين المعني فانجدهما ولما عرف بذلك احمد باشا يئس من الفوز وافل راجعًا الى دمشق وسنة ١٦٠٧ م كتب يوسف باشا سيفا الى السلطان احمد ان يجعلهُ سر عساكر الشام متعهدًا ان يقهر علي باشا جان بولاد الذي كان يتعب الدولة فلباهُ السلطان الى ما طلب فاخذ يوسف باشا يجمع العساكر الى حماه وخرجت عساكر دمشق لمعونته فاتى علي باشا وحارب يوسف باشا ففر يوسف باشا من وجهه الى طرابلس وارسل حرمهُ الى دمشق وتشتت شمل عساكره. ثم بارح يوسف باشا طرابلس واتى دمشق واخذ يجيش الجيوش في وادي بردى فجمع ١٠ آلاف مقاتل واما علي باشا فاتحد مع الامير فخر الدين المعني وسارا للحرب فاجتمعا بجيش يوسف باشا في عراد نواحي حماه. اما علي باشا فاستمال بعضًا من قواد عساكر الشام فاتوا اليهِ فانكسر العسكر الدمشقي وتقهقر فتبعهُ علي باشا الى قرية المزة فخاف اهالي دمشق وقفلوا ابواب المدينة فدفع يوسف باشا لقاضي دمشق مئة الف غرش فداءً عن المدينة وفر منهزمًا الى عكار فحنق علي باشا من هرب عدوه وامر جنودهُ فاخذوا ينهبون خارج المدينة فخرج اعيان دمشق واستعطفوا خاطر علي باشا واعلموهُ بالمبلغ الموضوع لهُ عند القاضي ودفعوهُ لهُ معهُ خمسة وعشرين الف غرش جمعوها منهم فكف قومهُ عن النهب

وسار بهم الى البقاع

وسنة ١٦١٢ ذهب احمد باشا الحافظ من دمشق الى حلب واعرض الى واليها بما يضاد الامير فخر الدين المعني وعاد الى دمشق في سنة ١٦١٣ واخذ يحرّك الفتن في بعض جهات لبنان وقصد محاربة الامير علي الشهابي فاستنجد الامير بالامير فخر الدين فانجدهُ ولما علم الوزير بذلك اصطلح مع خصمهِ ورجع بجيوشهِ الى دمشق . ثم اتقدت نيران العدوان بين الحافظ والامير فخر الدين المعني فانهى احمد باشا الحافظ الى الباب العالي بان الامير فخر الدين تغلب على بلاد حوران وعجلون وغيرها وحاصر دمشق فغضب السلطان سليم فارسل من فورهِ اربعة عشر باشا مع خمسين الف مقاتل لاهلاك المعنيين وامر ان تكون هذه الجنود تحت قيادة احمد باشا الحافظ ولما بلغت الجنود محل مأموريتها استدعى الحافظ الامير يونس الحرفوش واستمالهُ اليهِ وسار بجيوشهِ من دمشق للقتال فاخذت تجري المواقع الحربية بين الامير وعسكر الدولة في محلات كثيرة وكان اشد الحرب عند قلعة الصبيبة وقلعة شقيف ارنون ولما اوشك الامير ان يسقط فرَّ من صيدا الى اوروبا وولج ادارة المحاربة باعوانهِ وبعض اقاربهِ فظلت رحى الحرب دائرة وتغلبت جنود الدولة على محلات كثيرة واحرقت دير القمر وغيرها من قرى لبنان . وسنة ١٦١٤ ضعف المعنيون واطاعوا فرجع الحافظ الى دمشق وما لبث بها مدة قصيرة الَّا وعزل عنها وعين عوضًا عنهُ جركس باشا . وسنة ١٦١٥ دخل جركس باشا دمشق باحتفال وقدم لهُ المعنيون طاعتهم ثم سار بامر الدولة من دمشق لمحاربة شاه العجم وبعد مدَّة عاد اليها سالمًا . وسنة ١٦١٦ امر بخراب قلعة شقيف ارنون فدكت الى الارض ولم تزل خرابًا الى يومنا هذا . وسنة ١٦١٧ عزل محمد باشا الجركسي وولي عوضًا عنهُ احمد باشا ثم عزل وولي عوضًا عنهُ مصطفى باشا . وسنة ١٦١٩ عزل وولي عوضًا عنهُ سليمان باشا . وسنة ١٦٢١ عزل وولي عوضًا عنهُ مرتضى باشا وبعد توليتهِ بوقتٍ قصير عزل وولي مكانهُ مصطفى باشا . وسنة ١٦٢٢

كان رجل من اعيان دمشق اسمهُ كرد حمزه فاوشى الى مصطفى باشا بالامير فخر الدين المعني فسار الباشا بنحو عشرة آلاف مقاتل لمحاربة الامير واجتمع الجيشان نواحي المجدل فاشتبك القتال بينهما فدارت الدائرة على العسكر الدمشقي وقتل منهُ عدد وافر وسقط الوزير اسيرًا بيد الامير فاكرمهُ واعزَّهُ وتصالحا ورجع الوزير الى دمشق ولما استقر بها امر بهدم دار كرد حمزه وضبط امواله فكان كذلك وبعد وقت قصير عزل مصطفى باشا ووجهت الولاية على محمد باشا فاتى الى حماه ومعهُ كرد حمزه ثم اتى القطيفة وقصد دخول دمشق فلم يقبلهُ اهلها ومانعوهُ الدخول الى مدينتهم وارسل مصطفى باشا لصلحٍ فرجع الى حماه واستكتب مصطفى باشا قضاة دمشق واعيانها وعلماءها محاضر لبقائهِ على الولاية وارسلها الى الباب العالي فلم تقبل بل تقررت الولاية لمحمد باشا فسار محمد باشا الى دمشق على طريق الزبداني ودخلها من باب وخرج مصطفى باشا من باب آخر وما لبث محمد باشا في دمشق مدة قصيرة الَّا توفي بها فتولج الاعمال بعدهُ موقتًا ابرهيم اغا الدفتردار . ثم رجع مصطفى باشا الى دمشق وتقررت ولايتها لهُ . وسنة ١٦٢٤ انعمت الدولة على الامير فخر الدين المعني بولاية سوريا كلها من حدود حلب الى حدود القدس ولقبتهُ بسلطان البر وربطت عليهِ اموال الولاية كلها فدخلت دمشق بجملة اقطاعهِ فاخذ يدبر الامور ويبني القلاع والحصون في انحاء البلاد . وفي هذه السنة اشتد الغلاء في دمشق فارسل اهلها يشكون حالهم للامير ويطلبون تدبيرهُ فلباهم وارسل لهم حالاً الفي حمل جمل حنطة وفي اليوم الثاني مثلها وجمع جمال حوران ودوابها وامر اصحابها ان ينقلوا الحنطة الى دمشق ففعلوا فامر ان يكون رطل الخبز بقطعتين فكان كذلك فانفرج كرب الناس . ثم اتى بنفسهِ ونزل بمرجة دمشق غربي المدينة فخرج جميع الاهالي لملاقاتهِ واخذوا يدعون لهُ بالنصر وطول البقا . ثم انهُ اتخذ الفًا من الانكشارية ليكونوا بخدمتهِ وطلب من وجوه البلدة مال جزية النصارى فاجابوهُ وسلموهُ دفترها . ولما قويت شوكة الامير ودانت لهُ البلاد

حدّثتهُ نفسهُ ان يستقل بها ويجعل ذاته سلطانًا مطلقًا عليها فاخذ كجك احمد بوشي بالامير امام رجال الدولة العظام في الاستانة ويبين مقاصدهُ (كان كجك احمد جابيًا للاموال الاميرية بوادي التيم تحت يد الامير فوقع خلاف بينهما فترك خدمة الامير وسار الى الاستانة فتقدم في المراتب حتى رقي الى درجة الوزارة وصار لهُ كلمة مسموعة) فبلغ السلطان مرادًا ذلك وساءهُ وزاد تهيجهُ بكتابة وردت عليهِ من حلب تنبئ عن مقاصد الامير وما بناهُ من القلاع والحصون فوجه حالاً عساكرهُ لمحاربة الامير تحت قيادة كجك احمد فاتى كجك احمد دمشق بجيوشهِ ودخلها في شتاء سنة ١٦٣٣ واخذ يجمع العساكر من حدود بلاد الروم الى حدود بلاد مصر. وسنة ١٦٣٤ نهض بالعساكر الى خان سعسع ودعا اليهِ بعض المناصب وارجعهم الى اقطاعاتهم. اما الامير فجهز جنودهُ واصطلت نيران الحرب بينهما فدارت دائرتها على عسكر الامير ووقع اسيرًا مع اولادهِ فاخذهم الوزير الى دمشق وارسلهم منها الى الاستانة واطلق الامان في سوريا فراقت الاحوال مدة. ثم ثارت الفتن فقال الوزير للسلطان ان السبب من دسائس الامير فخر الدين فحنق السلطان على الامير وقتلهُ مع اولادهِ الاَّ واحدًا منهم

وسنة ١٦٥٠ كان على دمشق بشير باشا فحمل على الامير ملحم المعني والتقيا بوادي القرن فانكسر ورجع الى دمشق خاسرًا. وسنة ١٦٥٤ عُزل بشير باشا وتولى عوضًا عنهُ محمد باشا الكبرلي. وسنة ١٦٦٠ تمنع المعنيون والشهابيون عن اداء الاموال فسار اليهم محمد باشا الكبرلي بجنودهِ ففروا من وجههِ فاخذ المال من الاهالي ورجع الى دمشق. وسنة ١٦٩٣ عصى الامير احمد المعني على الدولة وظفر بعساكر صيدا فامر السلطان وزراء سوريا ومنهم اسمعيل باشا والي دمشق ان يسيروا لمحاربتهِ فساروا وكانوا جموعًا كثيرة فاختفى الامير من وجههم ففحصوا عنهُ ولم يجدوهُ فاخذت العساكر تعيث بالبلاد واخيرًا انصرف كلٌّ الى محلهِ. وسنة ١٧١١ وقع خلاف بين الامير حيدر الشهابي ومحمود باشا اليمني فاستنجد محمود

باشا بنصوح باشا والي دمشق وبشير باشا والي صيدا. فوجها عساكرهما وقبل وصولها اشتبك القتال بين الامير ومحمود باشا فانكسر محمود باشا فعلم الوزيران بذلك فاقفلا راجعين كلٌّ الى محلهِ. وسنة ١٧٢٢ قدم عثمان باشا واليًا على دمشق (وكان قبلاً واليًا على صيدا) فاحضر معهُ بعض الامراء اللبنانيين الذين كانوا عندهُ رهينة على مال منذ سنة ١٧١٤ فارسل الامير حيدر الشهابي واستفكهم. وسنة ١٧٣٢ كان على دمشق سليمان باشا العظم واليًا فاخذ قوم الامير ملحم الشهابي يخربون في البقاع فحنق منهم الوزير وخرج من دمشق بعسكرٍ جرار لمحاربة الامير وحل في البقاع فارسل الامير واستعطف خاطرهُ واعتذر عن قومهِ وتعهد لهُ بدفع خمسين الف غرش غرامة ووضع عندهُ اخاهُ مصطفى رهنًا فقبل الوزير بذلك واقفل راجعًا الى دمشق واخذ ببناء خانهِ المعروف بخان سليمان باشا . وسنة ١٧٤١ كانت دمشق تحت ولاية اسعد باشا العظم فجهز عسكرهُ وسار لمحاربة الامير ملحم فوصل الى البقاع وكان لما بلغ الامير قصد الوزير جهز عساكرهُ ووافاهُ بسرعة واذ علم اسعد باشا بان قوة الامير تفوق قوتهُ اقفل راجعًا بجنودهِ الى دمشق فتأثرهُ الامير حتى ابواب دمشق . وسنة ١٧٤٨ ولى اسعد باشا الامير عليًا على بلاد بعلبك فاغتاظ الامير ملحم واخذ ينهب ويخرب في البلاد فجمع اسعد باشا جنودهُ وسار بهم من دمشق واتى وخيم في صحراء بر الياس ففطن الامير لذلك وجمع عسكرهُ بسرعة واتى وخيم بهم في المغيثة . ثم انتشبت بينهم نيران الحرب فانكسر اسعد باشا الى سهل الجديدة فتبعهُ الامير فرحل الى دمشق ودخلها مكسورًا . وبعد ذلك بمدة قصيرة سار اسعد باشا الى الحج فاغتنم الامير الفرصة ودهم بلاد بعلبك وعزل عنها واليها الامير حيدرًا الحرفوش . ولما رجع اسعد باشا من الحج وعلم بما جرى من الامير في غيابهِ كتم لهُ السوء واخذ يترصد الفرص للايقاع بهِ على انهُ لم تطل مدتهُ. وسنة ١٧٥٧ كانت دمشق تحت ولاية عبد الله باشا الشيخي ومن سنة ١٧٥٨ الى سنة ١٧٦١ كان طاعون عظيم في البلاد هلك بهِ خلق كثير. وسنة ١٧٦٣ كانت دمشق تحت ولاية عثمان باشا الكرجي

فهذا لما صار على دمشق صارت منهُ امور مستنكرة مع اهالي غزة وكان على مصر علي بك وغزة تلوذ بهِ فانكر على عثمان باشا ما فعلهُ وجهز خازن دارهِ محمد بك المعروف بابي الذهب لمحاربتهِ والانتقام منهُ فسار ابو الذهب بعساكرهِ الكثيرة سنة ١٧٦٨ قاصدًا الحرب واذ بلغ الدولة العلية خبر ذلك عينت لقتال العساكر المصرية ودفع غائلتها عن البلاد الشامية والي حلب عبد الرحمن باشا ووالي كلس خليل باشا ووالي طرابلس محمد باشا فلما قدم ابو الذهب بعساكرهِ نزل قرب داريا الكبرى فخرج للقائهِ الوزراء الاربعة مع العساكر الشامية وصارت المعركة في سهل داريا فدارت الدائرة على الوزراء ثم ورد كتاب من ابي الذهب الى علماء دمشق واعيانها يطالبهم لمواجهتهِ بشان تسليم المدينة وتوعدهم بحرقها او اسر اهلها اذا ابوا ذلك فالتمسوا منهُ المهلة حتى يجتمعوا ويشاوروا اهل المدينة وباقي اعيانها وعلمائها بهذا الشان . وفي تلك الليلة التي هي ليلة الجمعة في ١٤ صفر سنة ١١٨٥ ه هربت الاعيان وعثمان باشا وولدهُ وروساء العساكر البلدية ولم يبقَ في دمشق مقاتل فاستولى على الناس الخوف والهلع وذهبوا الى العلماء وتوسلوا اليهم ان يواجهوا ابا الذهب ويسلموهُ دمشق ويدفعوا عنهم غائلتهُ فتوجهوا لمقابلتهِ فلما دخلوا عليهِ قابلهم بغاية الاكرام فقالوا لهُ ان البلد لمولانا السلطان مصطفى خان فتسلمها انت واحقن دماء المسلمين وكف عن اموالهم . فامنهم ورفع القتال عنهم . ثم بعد ايام حارب القلعة وضربها بالقنابل وكان بها مصطفى اغا البطرجي فضرَّت القنابل بالمدينة واهلها ضررًا بليغًا فرفع الامر اليهِ فامر برفع الحصار واذ تحقق عندهُ بان عثمان باشا قد فرَّ من المدينة بمن معهُ عزم على العود الى مصر . وبعد ان نصب من قبلهِ قاضيًا ومفتيًا من اهل البلد رحل عن دمشق قاصدًا مصر . وعلى اثر خروجهِ منها عاد اليها عثمان باشا والاعيان والعساكر ورئيس اليرلية يوسف اغا بن جبري من جبل الدروز ومعهُ ٥٠٠٠ درزي وانزلهم في البلدة بامر عثمان باشا وهكذا انتهت هذه الحادثة وسنة ١٧٧٠ حضر احمد الجزار الى دمشق وخدم عند واليها عثمان باشا .

وفيها وقع حرب بين ظاهر العمر الزيداني صاحب عكا واحزابهِ امراء المتاولة في بلاد بشاره والامير يوسف الشهابي فانكسر الامير يوسف فخاف درويش باشا والي صيدا وذهب الى دمشق ملتجئًا وما لبث بها مدة قصيرة الاَّ وتوفي واليها عثمان باشا فارسلت الدولة عوضًا عنهُ عثمان المصري الوكيل واليًا على دمشق ولما بلغها ارسل ودعا خليل باشا والي القدس الى محاربة ظاهر العمر وامر الامير يوسف ان يستعد لمساعدة خليل باشا فوقع القتال قرب صيدا فتغلب ظاهر العمر وفرّ خليل باشا الى دمشق بعد ان قتل من عسكرهِ الف وخمس مئة مقاتل . وسنة ١٧٧٣ وقع نفور بين عثمان باشا والامير يوسف الشهابي فخرج عثمان باشا من دمشق بعساكرهِ ونزل في البقاع بصحراء بر الياس فلما بلغ الامير ذلك جمع عسكرًا ونزل بهِ في المغيثة ثم انحدر لقتال الوزير وحدث بينهما مواقع لم يتم بها الظفر لاحد منهما . ثم استنجد الامير بعلي بن ظاهر العمر وبالشيخ ناصيف النصار كبير بني علي الصغير فانجداهُ بجيش جرار ونزلوا في قرية القرعون . ولما بلغ عثمان باشا ذلك دخلهُ الهلع والرعب وتقلقل عسكرهُ ففر هاربًا تلك الليلة الى دمشق تاركًا المدافع والخيام والعلائف فغنمها عدوهُ . وبعد ذلك عزل عثمان باشا وتولى دمشق محمد باشا العظم . وسنة ١٧٨٣ زحف الوزير احمد باشا العظم من دمشق بجنودهِ لمحاربة الجزار بالاتحاد مع الامير سيد احمد الشهابي ونزل قرب قلعة قب الياس وهناك اصطلت نيران الحرب فانكسر بعسكرهِ وتقهقر حتى دخل دمشق ثم اصطلح هو والجزار واخربا قلعة قب الياس لانهما اعتبراها اصل الفتن . وسنة ١٧٨٧ وجهت ولاية دمشق على احمد باشا الجزار فسار اليها واستلم زمامها فصار والي دمشق وصيدا وسنة ١٧٨٨ عزل عن ولاية دمشق ووجهت ولايتها الى ابرهيم باشا . ثم تقلب الحال ورجعت ولاية دمشق الى الجزار فكان يضع بها نائبًا من قبلهِ ويستقرّ في عكاء وكان قد اخذها من الزيادنة

وكان الجزار ظلومًا عاتيًا متقلبًا سفاكًا للدماء بلاَّصًا للعباد قاسيًا وقد فاز

بشهرة كلية وخشية الناس لشره وجوره مات في عكا سنة ١٢١٩ هجرية ودُفن بها وكان لا يسمع للدولة العثمانية ولا يطيع اوامرها وقد فرح الناس لموته كل الفرح فقال الشيخ مصطفى الرومي مؤرخًا

هلك الجزَّار ولا عجب ومضى بالخزي وبالاثم

وبنيته البارى عنا ارّخ قد كف يد الظلم

وعند موت الجزَّار كان بسجنه اسمعيل باشا فاخرجهُ الشيخ طاها الكردي واجلسهُ عوضًا عن الجزار مدعيًا بان الجزار بايعهُ بالولاية قبل موته . وكتب اسمعيل باشا الى اصحاب الولايات والمناصب يبشرهم بولايته. اما نائب الجزار في دمشق فلم يرد ان يعرف اسمعيل باشا واليًا فكتب للامير بشير عمر الشهابي الملقب بالكبير يطلب منهُ محافظة الطرقات وان يمدهُ برايه فاجابهُ الامير اني فعلت كل شيء قبل ورود رسالتك واما اسمعيل باشا فلم اعرفهُ لان الدولة لم تنصبهُ . وبعد برهة اتى ابرهيم باشا واليًا على دمشق فسار مع عساكر الامير بشير وقتل اسمعيل باشا والي عكا ووضع عوضًا عنهُ سليمان باشا فرجعت دمشق ايالة على حدتها وكان ذلك سنة ١٢٢٠ ﻫ الموافقة سنة ١٨٠٥ م

وسنة ١٨١٠ م او سنة ١٢٢٥ ﻫ كان والٍ في دمشق اسمهُ يوسف باشا فعزلتهُ الدولة وارسلت فرمان الولاية على دمشق الى سليمان باشا والي عكا فتمنع يوسف باشا عن تسليم الولاية وقصد حرب سليمان باشا وارجاعهُ فلم يفز برغوبه لان سليمان باشا ضم الى جنده عساكر الامير بشير الشهابي وبعد موقعة جرت بنواحي قطنا والجديدة سلم اعيان دمشق لسليمان باشا وهرب يوسف باشا فدخل الامير بشير مع سليمان باشا الى دمشق واستلما المدينة

وتقلب الوزراء على دمشق حتى صارت ولايتها لدرويش باشا وولاية عكا لعبد الله باشا الخزندار فجرت وحشة بينهما لان درويش باشا كان يدَّعي بانهُ والي دمشق وصيدا وعبد الله باشا كان يمضي بانهُ والي جميع سوريا وكانت نتيجة هذه المباينة انقطاع المواصلات والاستعداد للحرب فطلب عبد الله باشا مساعدة

الامير بشير فِدَهُ بالجنود اللبنانيين . واما الدولة العلية فاذ كانت ترغب في اذلال عبد الله باشا بعثت باوامرها الى والي حلب ان يساعد درويش باشا والي دمشق على انهُ سبق فتوح الحرب ورودَ الاوامر لوالي حلب فسارت جنود عبد الله باشا وجنود لبنان مع الامير بشير وولدهِ الامير خليل وهزموا عساكر دمشق التي خرجت للقائهم وتقدموا نحو قرية المزة فكانت المدافع تطلق عليهم كراتها والرصاص يمطر فوقهم فثبتت رجال الامير بشير بالنزال وتقدموا رغمًا عن نيران الاعداء وبعد معاناة المتاعب الكلية تمكنوا من الاقتراب من حيطان قرية المزة وتسلقوا عليها واشعلوا فيها النار والقتال مستمر فلما نظر خيالة عسكر دمشق دخان المزة مرتفعًا وخيالة عسكر عكا تضايقهم والرصاص من مشاتهِ يهلك رجالهم وخيولهم ولوا منكسرين كما ولت عساكر المشاة من داخل القرية فتبعهم عسكر عكا الى قرب دمشق فالتزم بعضهم ان يلقوا انفسهم في المياه طلبًا للنجاة واما الامير فلم يسمح بدخول عسكرهِ الى دمشق خوفًا عليها من النهب فرجع بالعسكر واقام بهِ في سهل المزة . اما قتلى عسكر دمشق فكانوا ينيفون على الالف ومئتي نفس على ما قيل وقتلى عسكر عكا وجماعة الامير نحو ٤٠ نفرًا . ولما راى درويش باشا انكسار عساكرهِ تحصن بقلعة دمشق ولبث بها ينتظر قدوم النجدة عليهِ من والي حلب واذنة فلما عرف الامير بشير بان النجدة آتية بسرعة وان الدولة العلية قد صدرت امرها بتولية درويش باشا على دمشق وعكا وانها قد عزلت عبد الله باشا عن ولاية عكا رحل بجنودهِ بعد ان ارسل وخاطب مصطفى باشا والي حلب خطابًا لطيفًا وقد جرت هذه الحوادث المعروفة بوقعة المزة سنة ١٨٢١ م الموافقة سنة ١٢٣٥ ه ولم يزل قوم من الذين عاينوها احياء (١)

(١) انهُ في كل هذه المدة لم يكن راحة لابناء السبيل في دمشق لان تعديات الجندية كانت كثيرة لعدم خضوعها للنظام واذ كان اصحابها اولو السطوة لا يسالون عما يفعلون دخل في سلكها كثير من الاهالي ثم انقسمت المدينة الى حزبين حزب انكشاري وحزب

وسنة ١٢٤٧ ﻫ الموافقة ١٨٣١ م ابتدأت الحوادث المهمة والانقلابات العظيمة في سوريا وكانت نتيجتها انتقال البلاد الى حكومة مصر وادخال انوار التمدن اليها وكان في هذه السنة والٍ على دمشق اسمهُ سليم باشا كان قبلاً صدرًا اعظم واشترك في اهلاك الانكشارية في الاستانة وتنظيم العسكر الجديد فهذا الوالي احدث في دمشق ضريبة طفيفة واجبر الاهالي على دفعها للخزينة وفرضها على المخازن والدكاكين وغيرها وحيث لم يسبق لاهالي دمشق عادة ان يعطوا شيئًا عن ذلك حتى ولا عن دكاكينهم وبساتينهم نادوا على واليهم بالعصيان وقصدوا الايقاع بهِ . والذي زاد جراءتهم هوان هذا الوالي عندما اتى دمشق اتى بعسكر منظم فظنوا ان قصدهُ الايقاع بالانكشارية فخافوا القوم العاقبة فقصدوا ان يفطروا بهِ قبل ان يتعشى بهم(١)

ولما ثار الاهالي على سليم باشا اخذوا يضربون الطبول الكبيرة ويطوفون في انحاء المدينة ولما عرف سليم باشا بانهُ لابد من الايقاع بهِ دخل القلعة مع قبيقولي وكانت العداوة بينهما عظيمة وشديدة حتى انهُ لم يمضِ يوم الاَّ وتحدث فيهِ مشاجرة وفي بعض الاحيان كانت تغلق الحوانيت ويجري الدم بين الثائرين واحيانًا كانوا يخربون احياء برمتها وكانت التعديات على اهل العرض والذمة كثيرة جدًّا وكانت المراة الحسناء لا تجسران تخرج من بيتها بدون ان يحرسها حارس قوي وان لم يكن حارس فتلتزم ان تلبس ملابس رثة وتخفي ظهرها ليظنها من يراها حيزبونًا وكان كل صاحب مهنة يصحب اسلحتهُ معهُ الى محل عملهِ ليكون على استعداد حتى اذا جدَّ شرٌّ ينضم الى حزبهِ وكان اهل الذمة بحالة يرثى لها وكثيرًا ما وقعت التعديات عليهم وكانوا يتكيسون باصحاب السطوة من المسلمين لصيانة انفسهم اما الحكومة فكانت بيد رجل يجلس بباب السرايا يسمونهُ تفكجي باشي فكان يقضي ويمضي بحسب اميالهِ فمن شاء ظلم ومن شاء رحم غير مختشٍ لوم لائم وقد قلت بضاعة المعارف لرواج بضاعة السيوف والعصي

(١) لم يكن للدولة العثمانية وقتئذٍ مكوس على دمشق سوى مال الجمارك على الداخل اليها من خارج ايالة دمشق لا على الصادر منها ويبلغ دخل ذلك نحو الفي كيس سنويًّا وكان لها على النصارى واليهود مال جزية الراس يزيد وينقص بحسب عدد الاشخاص ومال عنب الكنائس واما المسلمون فلا يدفعون شيئًا البتة ومجموع الدخل لم يكن ينيف على ٢٢٠٠ كيس مهما تعاظم

فرقة من جنوده والباقون لبثوا خارجها لعدم وجود علف لهم ولدوابهم داخل القلعة واشتعلت نيران الحرب ففاز الاهالي على العساكر الذين خارج القلعة وقتلوا اكثرهم والتجأ الباقون مع احد ضباط الباشا الاشداء المسمى قاضي قران الى الجامع المعلق قرب المناخلية وكانوا يحاصرون بهِ وسليم باشا يطلق الكرات على المدينة من ابراج القلعة واخيرًا تقدم الاهالي واخربوا السوق الجديد واقاموا متاريسهم وشددوا الحصار واخربوا جانبًا من سور القلعة الجنوبي ما يلي الغرب والباشا ثبت في الحصار ولكن لمَّا نفد ما عندهُ من المؤونة اضطر الى اكل الدواب فنفدت بدون ان يرى نافذة للفرج فاضطر الى التسليم وطلب التامين من اهل البلد فامنوهُ فخرج من القلعة الى بيتٍ في العصرونية على انهُ بينما كان مطمئنًا هاج عليهِ الاهالي ثانيةً مدَّعين بانهُ عامل على مكيدة لهم فدافع عن نفسهِ اشد دفاع واخيرًا نقبوا سقف المحل الذي كان فيهِ والقوا عليهِ النارفات حرقًا واخذوا جثتهُ وعرضوها للناس فرجةً

اما قاضي قران فبعد دفاع عظيم تمكن من النجاة هو ومن معهُ وفرسالماً

وعند حدوث هذه الحوادث وقع الخوف على النصارى من تعديات جهلة المسلمين . ولكن علي اغا الخزنا كبتي الذي كان من ذوي الباس والسطوة والبعد عن التعصب وهو من اكبر اغوات دمشق اخذ على نفسهِ صيانة النصارى واليهود من تعديات الاسافل فصانهم وحفظهم بحيث لم يلحق باحد منهم ضرر

ولما قتل سليم باشا اجتمع الاهالي واقاموا حكومة موقتة واخذوا يتوقعون بطش الدولة بهم ولكن لحسن حظهم بلغ الدولة تقدم ابرهيم باشا في سوريا فصرفت نظرها عنهم واعدت الجيوش التي هياتها للانتقام منهم لمحاربتهِ وارسلت واليًا على دمشق اسمهُ علو باشا فزال الخوف والهلع من قلوب الاهالي

وبينما كان اهالي دمشق مشتغلين مع سليم باشا كان ابرهيم باشا بن محمد علي باشا يحارب عكا ولما انتهى منها وساق عبد الله باشا اسيرًا الى مصر توجه بجنوده مع الامير بشير الشهابي وعساكر لبنان للاستيلاء على دمشق واتوا

وعسكروا في داريا

واما علو باشا والي دمشق فلما عرف بقدوم ابرهيم باشا عليهِ خرج من دمشق بعشرة آلاف مقاتل من الدماشقة والاكراد فالتقاهُ ابرهيم باشا ووجه عرب الهنادي على خيالة الاكراد واصدر امرهُ لعساكر النظام ان تقابل جموع العساكر الدمشقية وتطلق البنادق عليها في الجو . فلما التقى العسكران واطلق جنود ابرهيم باشا نارًا دائمة جزع الدماشقة لذلك وخافوا لانهم لم يعهدوا شيئًا مثل هذا من ذي قبل اما الهنادي فتبعوا الاكراد وقتلوا كل من لحقوهُ منهم . وفي المساء عقد الدمشقيون مجلسًا كبيرًا مؤلفًا من وجوه الاهالي فقر قرارهم بهِ على تسليم المدينة لابرهيم باشا فارسلوا اليهِ رهطًا من جماتهم علي آغا عرمان متسلم القلعة وطلبوا منهُ الامان فامنهم فسلموهُ مفاتيح المدينة ورجعوا وفي اليوم الثاني دخل ابرهيم باشا بجنودهِ المدينة من بوابة الله ومعهُ الامير بشير والامير خليل ولم يوقع باحدٍ ضررًا

واقام ابرهيم باشا بدمشق الى ٥ صفر ثم سافر نحو حمص واخذ معهُ بعض اعيان المدينة وترك بها المعلم بطرس كرامة لترتيب مجلس الشورى

ولما تمكن ابرهيم باشا من فتح سوريا جعل دمشق عاصمتها واقام فيها مجالس القضاء وجعل على ولايتها شريف باشا المصري وكان من مساعديهِ بحري بك

وقد كان الاجانب يُمنعون قبلاً عن الدخول الى دمشق ولكن لما تولى البلاد ابرهيم باشا اخذ يتقاطر السيَّاح اليها. وفي ايامهِ اتاها اوَّل قنصل اجنبي وكان انكليزيًا ورفع الراية الانكليزية فوق بيتهِ واتخذ ترجمانًا لهُ المرحوم نعمة الحضيرية وهو اوَّل ترجمان للاجانب في دمشق وكان رحمهُ الله من اصحاب الوجاهة والذكاء والغنى بين المسيحيين ولهُ شهرة في التقوى وحسن الادارة وقد توفي سنة ١٨٢٨ بعد ان اقام بخدمتهِ بامانة وجدّ . ومن ثمَّ اخذ يتقاطر قناصل الدول والتجار وياتون بالبضائع الافرنجية ويبيعونها بدون ان يصادفوا معارضة . ودامت حكومة ابرهيم باشا في دمشق الى سنة ١٨٤٠ م . وفي تلك

السنة اتت مراكب الدول المتحدة واخذت عكا عنوةً بعد ان حاربتها ثلث ساعات فقط فالتزم ابرهيم باشا ان يترك سوريا للدولة العلية فخرج منها وسار الى مصر برًّا عن طريق العريش. ويوم خرج من دمشق قتل علي اغا الخزنا كتبي وغيرهُ من الاعيان. ولا يليق بالمؤرّخ ان يتغاضى عن ذكر ما اجراهُ ابرهيم باشا من الاصلاحات في سوريا فانهُ اجتهد بامر تعميم زراعة توت الحرير ونشط الصنائع وسعى في ترويج التجارة واوجد الامن في الطرقات وقرّر حق التملك ومنع الرشوة والمحاباة وكان يرسل ماموريهِ الى جهات سوريا ليجبروا الاهالي الذين كانوا قد نسوا الاعمال الزراعية حتى يزرعوا اراضيهم وادخل في البلاد زرع الارز والنيل وادخل دودة القرمز الى غير ذلك من المآثر الحسنة

وبعد ان رحل ابرهيم باشا عن سوريا اخذت الدولة العلية ترسل ولاتها الى دمشق كجاري عادتها فارسلت اولاً علو باشا المار ذكرهُ وكان السنيور وود قنصل دولة انكلترا الفخيمة رقيبًا على اعمالهِ وكان حسن التدبير والسياسة وعلى جانب عظيم من الدعة واللطف والاستقامة فجذب القلوب اليهِ ونفذت كلمتهُ وحصل على اعتبار جميع الناس على اختلاف مذاهبهم. وقد انتفعت البلاد بهِ. وفي تموز سنة ١٨٥٢ اتى دمشق الهواءُ الاصفر من جهات الحجاز وهو اوّل هواءٍ اصفر حدث بهذه المدينة فمات بهِ نحو ٣٠ الف نفس وكان وقتئذٍ صوم رمضان عند المسلمين. ولم تتخذ الكرنتينات لانها لم تكن معروفة في سوريا

وسنة ١٨٥٤ انتشبت الحرب بين الدولة العلية بالاشتراك مع الدول المتحدة والروسية فاتى الانكليز واخذوا يعينون اقوامًا من دمشق للخدمة فانتظم بخدمتهم كثيرون لطمعهم بالاجور الزائدة. (في اواخر هذه السنة ولد مؤلف هذا الكتاب في مدينة دمشق). وفي مدة هذه الحرب التي انتهت في سنة ١٨٥٦ بمعهدة باريز راجت الاشغال بدمشق واي رواج وكثر ربح الاهالي والمرجح ان ذلك من المال الذي صرفتهُ دولتا فرنسا وانكلترا في الممالك العثمانية

وبعد انتهاء الحرب بين الدول وروسيا حدث بين مسيحيي دمشق حادث

مزعج اشغل افكار مسيحيي سوريا اجمع وذلك ان البطريرك اكليمندوس الروم الكاثوليكي اعلن وجوب انتقال حساب كنيسته الشرقي الى الحساب الغربي فهذا الانتقال جعل شغباً في الشعب واحدث اموراً مهمة ليس من متعلقات كتابنا هذا البحث فيها ودامت المجادلات والمناقشات الى سنة ١٨٦٠ م حينما ثارت الفتنة في جبل لبنان بين الدروز والنصارى وامتدّت شرارتها الى دمشق وجرى بها ما جرى من الفتك الذريع بالنصارى وهي المعروفة بحادثة ستين ولي في ذلك رسالة وافية سانشرها اذا وفق المولى

وفي اليوم الثامن من الحادثة اتى معمر باشا والياً على دمشق فارسل المنادين ينادون بالامان ومنع التعدي فخمدت الفتنة ورجع كلٌّ من الثائرين الى محلهِ

وبعد ايام حضر فواد باشا مأموراً مفوضاً من قبل الدولة لاصلاح احوال سوريا بعد ان حضرت مراكب الدول العظيمة الى بيروت لصيانة النصارى وقصاص المتعدين فاتى دمشق حالاً وارسل احمد باشا (الذي كان على دمشق مدة الحادثة) الى الاستانة . ثم اعيد الى دمشق حالاً وقتلوهُ فيها باطلاق الرصاص وقتلوا معهُ القائد الذي حضر مذبحة نصارى حاصبيا والبكباشي الذي حضر مذبحة نصارى راشيا

وحال وصول فواد باشا الى دمشق دخل القلعة ونظر النصارى المصابين جياعاً عراة بحالة تفتت الاكباد وحرارة الشمس تفعل بهم نهارا وبرد الليل ليلاً فاثر بهِ منظرهم المحزن وابكاهُ فامر لهم بعينات يومية لسد جوعهم وباكسية لستر اجسامهم واخذ يلاطفهم بكلام عمومي ويعدهم بتحصيل حقوقهم ومقاصة المتعدين عليهم

وفي اليوم الثاني اصدر اوامرهُ المشددة بجمع مسلوبات النصارى فكانت تجمع بسرعة على انهُ لم يصر جمعها بترتيب اذ لم تقيد بدفاتر فلم يصل منها الا ما قل واما الجواهر والحلى الثمينة فالبعض ممّن نهبوها حرزوا عليها واخفوها والبعض باعوها لليهود بابخس الاثمان . ثم سمح للنصارى بهاجرة الشام فرحل كثيرون

منهم الى بيروت وغيرها من الاساكل وافرغ لمن بقي منهم في دمشق ما يلزم من بيوت المسلمين واسكنهم فيها وكان خرجهم من خزينة الحكومة باتصال وقد وردت لهم مساعدات كثيرة من المحسنين في اوروبا واميركا

ثم انتخب فواد باشا مجلسًا للفحص عمّن قاموا بالثورة فحكم المجلس على بعض من اشتركوا في الحادثة بالقتل والنفي فشنق نحو سبعين رجلًا وقتل بالرصاص مئة وواحد عشر رجلًا ونفى بعض الاعيان والعلماء والوجوه ونحو اربعة ا لاف نفس من العوام ومن كان منهم شابًّا ادخل بالسلك العسكري

وبعد ان انتهت امور جبل لبنان على الوجه الذي نراهُ عليهِ الآن وراقت الاحوال في دمشق وأُنعم على النصارى بتعويضاتٍ عن مسلوباتهم ومحروقاتهم رجع فواد باشا الى الاستانة وصار صدرًا اعظم وانصرف الفرنساويون ومعتمدو الدول وبوارجهم من بيروت فاخذ المهاجرون من دمشق يرجعون اليها شيئًا فشيئًا على انهُ قد استوطن منهم كثيرون في بيروت ومصر والاسكندرية ولا يزالون هناك. ثم اخذ نصارى دمشق يبنون كنائسهم ودورهم ودكاكينهم ولم تمضِ بضع سنين الاَّ اضحت احياؤُهم عامرة . وقد ارتفعت اجور البنائين ومن لهم تعلق بالبناء حتى بلغت اجرة العامل خمسين غرشًا يوميًّا هذا فضلاً عن ارتفاع اثمان مواد البناء فلحق بالنصارى اضرار بليغة بسبب ذلك

وخلف معمر باشا في ولاية دمشق المرحوم شرواني باشا الذي كان في مجلس التحقيقات عقب حادثة دمشق فاحدث تحسينات كثيرة وسنة ١٨٦٤ تشكلت ولايات المملكة العثمانية فصارت دمشق عاصمة ولاية سوريا ووجهت ولايتها الى مخلص باشا ثم لعهدة المرحوم راشد باشا ودام على سوريا ست سنين واجرى بها اصلاحات كثيرة وردع اصحاب التعدي من العربان والنصيرية ودخلت في ايامهِ المبادئ الماسونية في دمشق (وكان ماسونيًّا) وراجت اسواق المعارف والآداب وكثرت المدارس والجرائد في بيروت. وفي اوّل توليهِ كانت الاعمال رائجة والارباح كثيرة وقد احبهُ الناس حبًّا شديدًا ولم يزالوا

يذكرون ايامهُ ويتاسفون على فواتها وسنة ١٨٧١ تولى دمشق صبحي باشا ثم حالت باشا ثم اسعد باشا ثم حمدي باشا ثم ناشد باشا ثم ضيا باشا والي اطنه حالاً وفي غيابهِ احيلت وكالة الولاية لدولتلو عزت باشا مشير العرضي الهمايوني الخامس وذلك سنة ١٨٧٧ م وكانت حربٌ بين الروسية والترك فجرد كثيرًا من العساكر من سورية وارسلها الى ساحة القتال ثم عُيّن عمر فوزي باشا واليًا ولم يلبث ان طُلِب الى الاستانة وفي اوائل سنة ١٨٧٨ اتى جودت باشا واليًا على سوريا وفي تشرين الثاني طُلِب الى الاستانة فاقيم وزيرًا للزراعة واتى مكانهُ مدحت باشا الوالي الحالي فدخل دمشق يوم الثلاثا في ٣ ك ١ سنة ١٨٧٨ ففرح الناس بقدومهِ لما سمعوا عنهُ من الاستقامة والدراية واملوا الاصلاح في ايامهِ . ومنذ سنة ١٨٦٠ الى الآن اي نهاية سنة ١٨٧٨ احدث بدمشق امور مهمة ففي سنة ١٨٦١ و ١٨٦٢ و ١٨٦٣ كانت الاعمال بها رائجة والمصنوعات جيدة والذهب كثير بايدي الناس وسنة ١٨٦٤ دهمها الجراد فاتلف اكثر مزروعاتها ومنذ ذلك الوقت اخذت الاعمال بالتاخر شيئًا فشيئًا والاهالي بالضعف المالي ودخل بينهم روح التفرنج فكاد يهلك ثروتهم وفي صيف ١٨٦٥ اتاها الهواء الاصفر فمات بهِ نحو عشرة الاف نفس وسنة ١٨٦٧ الموافقة سنة ١٢٨٧ كان غلاءٌ شديد وتوقفت الاشغال ودام ذلك الى سنة ١٨٧١ وهبط سعر الحرير فلحق ضرر عظيم باصحابهِ وسنة ١٨٧٣ انحبست الامطار فصار غلاءٌ آخر واشتد ضيق الاهالي وفي اذار هطلت الامطار والثلوج فسدت الطرقات واشتد الغلا حتى بيع جفت الحنطة (٣٥ اقة) بمئة غرش ونيف وكان البعض ياكلون بقول الارض لفقرهم . وسنة ١٨٧٥ عاودها الهواء الاصفر واستقام شهرين فمات بهِ تسعة آلاف ومئتان منهم ٢٥٠ نسمة من النصارى (واوّل من مات بهذا الوبا امرأة الخواجه نقولا السبط وكانت من الفريدات بالتهذيب والجمال) . وفي اواخر ايار في تلك السنة هطلت سيول مفعمة فطاف نهر بردى فاقتلع الجسور المتينة وعلت المياه فوق سطح المرجة ذراعًا ونصفًا ودخلت دائرة الحكومة

وسوق الخيل والحابرية حتى دخلت العمارة فاخذ الصيادون يصيدون الاسماك من اسواق المدينة التي دخلتها المياه . وسنة ١٨٧٦ و١٨٧٧ اخذت الاحوال تتاخر تاخرًا متصلاً لسبب الحروب الاهلية وحروب الروس والدولة العلية حيث غاب كثيرون الى ساحة القتال واسباب أُخر دعت الى الفقر عدلنا عن ذكرها حبًا بالاختصار . وسنة ١٨٧٨ كانت بدايتها كالتي قبلها على انهُ في اواسطها وقع الصلح بين العثمانيين والروسيين فراجت الاشغال قليلاً ثم صار غلاء فبيع جفت الحنطة بخمسة وسبعين غرشًا والشعير بخمسة وخمسين وكانت الامطار في اوائلها كثيرة والثلوج متصلة حتى ان الناس لم يروا الشمس مدَّة شهرين ونصف وقد قال الشيوخ بانهم منذ ملة ابرهيم باشا لم يروا في دمشق امطارًا كهذه

وفي الربيع اتى الجراد فاتلف المزروعات الصيفية واضر بالاشجار ثم تبعهُ مرض ابو هدلان فافنى الابقار

اما الراحة فسائدة الآن في دمشق والاهالي عائشون بالمحبة والالفة مع بعضهم اسفون من جرى حادثة سنة ١٨٦٠ التي سوَّدت تاريخ مدينتهم

خاتمة مختصرة

خضعت دمشق للسلاطين العثمانيين حتى الآن واوَّل من دخلت في ملكهِ السلطان سليم الاوَّل ابن بايزيد وهو الذي اخذها من ملوك مصر وبعدهُ السلطان سليمان الثاني ثم بقية السلاطين

ولا يخفى انهُ بعد انحطاط قدر انطاكية العظمى نقل البطاركة الانطاكيون كرسيهم الى دمشق سنة ١٥٢٩ وقد استوى على ذلك الكرسي كثير من البطاركة الدمشقيين والحلبيين وغيرهم وفي ايام ولاية ابرهيم باشا على دمشق دخل اليها مرسلو البروتستانت وقد انشأُوا فيها وفي قراها عدة مدارس . وسنة ١٨٧٣ دخل دمشق الرهبان اليسوعيون واخذوا يشتغلون بنشاطهم المعتاد

الباب الثاني

في اوصاف دمشق

فصل

في ابنية دمشق

ابنية هذه المدينة شاهقة ملتصقة بعضها ببعض لا فسحة بين الدار والاخرى حتى كأنّ المدينة بناء واحد

وهذه الابنية التي تشاهدها كابراج عالية مبنية بحجارة بسيطة من وجه الارض الى ما فوقه بثلث او اربع اذرع وما فوق ذلك من لبن او لبن وخشب وكلها مازورة بطين احمر او شيد ولا منظر لها من خارج واما من داخل فهي دور فسيحة مزخرفة بانواع الزخارف والنقوش وفي صحنها برك محفوفة بالليمون وغيره من الاشجار مع كثير من النباتات العطرية ذوات الازهار الجميلة والروائح الذكية . ولنساء دمشق غرام زائد بالازهار فيحرصنَ عليها الحرص الشديد

ولا تدخل دارًا من دور دمشق الّا تجد في حجرها فرشًا جميلاً قيمته بحسب اقتدار صاحبهِ وهو معمول بحسب الطراز الشرقي اي من مقاعد ومساند وسجادات وبسط وما اشبه على انهُ في السنين المتاخرة فرش بعض الاغنياء بيوتهم بالاثاث الغربي ولكنهم ابقوا في البيت حجرة فرشها شرقي وفي بعض الدور قاعات رفيعة مدهونة باجمل الادهان في وسطها برك يجري اليها الماء باتصال

ومما يزيد دور دمشق حسنًا لطف اهاليها العجيب وانسهم الغريب فانهم يستقبلون كل من زارهم بالبشاشة والملاطفة والترحاب والدعة ويحفلون بهِ ويعزونهُ ولا يبدون لديهِ الّا المعروف غنيًّا كان ام فقيرًا ولا سيما اذا كان غريبًا عن ديارهم وامصارهم واذا تعرف الغريب باحدهم عرّفهُ بكل اصحابهِ باقصر وقت فصار كواحدٍ من السكان

اما طراز ترتيب الدور داخلاً في هذه الايام فهو غالباً ايوان وعلى كلٍّ من جانبيهِ حجرة وبقية الحجر تقابل بعضها بعضاً وعليها علالٍ لها نوافذ كثيرة يغشاها البلور يسمونها فرنكات وكل دار لا بد لها من صحن وفي بعض الدور اقبية تحت الارض يضعون بها المؤونات

ومن اشهر دور المدينة القديمة دار عبد الله بك العظم واقعة بطرف سوق البزورية الشمالي وهي كبيرة جدًّا وتحتوي على اجل القاعات الشرقية وفيها بضع برك واسعة قلما يوجد نظيرها ويقصد هذه الدار اهل السياحة للفرجة . قيل ان بها ثلاث مئة وستين حجرة بين سفلية وعلوية وقد بنيت منذ اكثر من مئة وعشرين سنة

ومن الدور الحديثة في حي النصارى ما بين باب توما وطالع القبة دار حبيب افندي الصباغ بناها المرحوم متري افندي شلهوب وتم بناؤُها سنة ١٨٦٦ وهي متسعة جدًّا مرصوفة بالرخام فيها كثير من الاعمدة المرمرية البيضاء وكثير من المقاصير والحجر والقاعات الجميلة المزخرفة وحديقتها تحتوي على اجل الازهار قيل ان نفقتها بلغت ٣٦ الف ليرة . ولما توفي بانيها اشتراها حبيب افندي صباغ باربعة آلاف ليرة

ودار المرحوم انطون افندي الشامي وهي اجل واوسع من الاولى تم بناؤُها سنة ١٨٦٦ ايضاً وبلغت نفقتها ٢٠ الف ليرة . ولما زار دمشق ولي عهد امبراطور روسيا سنة ١٨٦٩ نزل بها وشهد بانها احسن الدور التي شاهدها بسياحتهِ في المشرق . وموقعها الى الجنوب من الاولى

ودار يوسف افندي عنبر موقعها في حي المتكنة قال من ساح بلاد سوريا ان ليس لهذه الدار نظير على الاطلاق حتى انهُ يعز وجود نظيرها في اوروبا لانهُ فضلاً عن اتساعها العظيم وانتظام هندستها وسعة بركها وكثرة مياهها ورصف ارضها بالرخام الملون ترى جدرانها قائمة على كل دوائرها من رخام ملون منقوش باجل النقوش بنوع لم يوجد لهُ مثيل في دمشق وخلافها الى ان قال

وهذه الدار تستحق الفرجة وامعان النظر لما بها من دقة صناعة البناء والنقش وانها بنقوشها الكثيرة اشبه بقلعة بعلبك وقال غيرهُ ان دار الخواجه عنبر لو احتوت على عظم الحجارة مع ما بها من غرائب صنعة النقش لساغ لنا القول ان بعلبك جديدةً بنيت في عصرنا وقال آخر من لم يمكنهُ التفرج على نقوش بعلبك الجميلة يقدر ان يستغني عنها بالتفرج على دار الخواجه عنبر . وكان الشروع في بنائها سنة ١٨٦٧ واشتغل بها العملة بضع سنين ولم تكمل بعد لان احوال بانيها قد تأخرت وما بني منها كانت نفقته ٤٢ الف ليرة ومواد البناء والاجور رخيصة ولو شرع في بنائها يوم بنيت دار المرحوم انطون الشامي المار ذكرها لكلفت ٩٠ الف ليرة ومن عرف رخص مواد البناء في دمشق وبخس اجور العملة علم حالة الدار التي كلفت تلك المبالغ العظيمة

ودار شمعايا افندي ودار الخواجه اسلامبولي ودار الخواجه ازبونا ولم يصرف على الواحدة منها اقل من ٣٠ الف ليرة وكل هذه الدور بحي اليهود وقد بنيت بين سنة ١٨٦٥ وسنة ١٨٧٣

ودار سعيد افندي قوتلي بجوار الجامع الاموي من جهة الشمال ودار اخيهِ مراد افندي بزقاق العواميد نزل بها الكراندوق نقولا الروسي وشهد بها ما شهدهُ ولي عهد المانيا بدار الشامي. ودار حسن آغا البارودي ودار سعادة محمد سعيد باشا وكل هذه حديثة العهد انفقت عليها المبالغ العظيمة ويوجد دور كثيرة معتبرة اعرضنا عن ذكرها اكتفاءً بالاشهر

وكان عدد دور دمشق بالتقرير الرسمي سنة ١٨٧١ م الموافقة سنة ١٢٨٨ ه نحو ١٤٦٩٦ دارًا لكل الطوائف

اسواق دمشق

اسواق دمشق كثيرة العدد وهي على نوعين مجموعة ومتفرقة وكلها تحتوي على ٦٩٠٠ دكان اما الاسواق المجموعة فيطلق عليها اسم المدينة وفيها اصحاب

التجارة وارباب البيع والشراء الاغنياء وتباع بها الاقمشة والبضائع الثمينة وغيرها وهي اولاً سوق العلبية يعملون بها العلب الخشبية وما اشبهها (٢) سوق الدقاقين وبها يدقون الاقمشة الحريرية (٣) سوق البزورية وهي سوق العطارين تباع بها السكاكر والمربيات والحلويات وهي سوق جميلة مرتبة (٤) سوق الحبالين يباع فيها المرس والخيطان والحبال (٥) سوق العبيبية تباع فيها العبي (٦) سوق الجقمق ويقال لها السوق الطويلة لطولها وهي جزء من الطريق المستقيم القديم وبها تباع الديما والعبي والاموال المانيفاتورة التي يستعملها الفلاحون (٧) سوق القطن وبها يباع القطن والغزل عمل البلاد . وكل هذه الاسواق الاّ سوق البزورية على خط واحد ممتد من الشرق الى الغرب (٨) سوق باب الجابية وفيها تباع العطارة (٩) سوق السلاح ويقال لها سوق التتن ايضاً (١٠) سوق العقادين وكان فيها عقادون فقط واما الآن ففيها صاغة ايضاً (١١) سوق الصاغة وهي سوق على حدتها متصلة بالعقادين ولها اربعة ابواب ودكاكينها مفصول بعضها عن بعض بالواح خشبية فقط (١٢) سوق القباقبية وبها يعملون القباقيب والصناديق والصواني الجميلة المطعمة بالصدف وهذه السوق تمتاز عن غيرها بكون سقفها معقودًا بالحجارة (١٣) سوق الخراطين (١٤) سوق القوافين وبها تباع الاحذية العربية (١٥) سوق الحرير وكان يقيم فيها باعة الحرير واما الآن ففيها عملة الكنادر وباعة المانيفاتورة (١٦) سوق القلبقجية (١٧) سوق النورية ويقال لها سوق الغزولية ايضاً (١٨) سوق الخياطين وبها باعة الاجواخ والمنسوجات وغيرهم (١٩) سوق باب البريد وهي اجمل اسواق المدينة كلها واحسنها وبها تباع منسوجات هذه البلاد ومنسوجات بلاد الافرنج الثمينة ولا تخلو من مئات بل من الوف من الناس وفي وسطها قبة شاهقة قائمة على اعمدة عظيمة عليها كتابات كثيرة بالعربية والكوفية ومن جملتها هذان البيتان

عرّج ركابكَ عن دمشقَ فانها ... بلدٌ تذلُّ لها الاسودُ وتخضعُ
ما بينَ جابيها وبابِ بريدها ... قمرٌ يغيبُ والفُ بدرٍ يطلعُ

(٣٠) سوق العصرونية بها تباع الاواني البلورية والخزفية وهي مكشوفة لا سقف لها (٣١) سوق باب القلعة مكشوفة ايضًا (٣٢) السوق الجديد وهي مشهورة كباب البريد وبها كثيرون من باعة الجواهر ومن يخيطون الملابس الافرنجية وغير ذلك (٣٣) سوق الاروام وهي سوق الدلالين (٣٤) سوق النسوان وهي جزء من سوق الاروام (٣٥) سوق القميلة ويباع فيها النحاس المستعمل وغير المستعمل والاثاث المستعمل والاسلحة وغير ذلك (٣٦) سوق السروجية وتعمل بها ادوات الخيل (٣٧) سوق الزرابلية وقد احترقت منذ عشرة سنين الى الآن اربع دفعات (٣٨) سوق الدرويشية وهي ممتدة من راس سوق الاروام الى باب الجابية جنوبًا (٣٩) سوق السنانية وبها قوم يعملون العلب وغيرهم تجار وصباغون (٣٠) سوق الارز وهي سوق صغيرة متصلة بالبزورية

هذه هي الاسواق المجتمعة واما المتفرقة فكثيرة جدًا لانهُ لا بد من سوق او اكثر بكل حي كبيرًا كان ام صغيرًا ومن هذه الاسواق ما هو مجموع او متصل بعضهُ ببعض ايضًا كسوق علي باشا الجديدة تمَّ بناؤُها منذ اربع سنين وفي راسها الغربي قراءة خانه وهي الوحيدة في دمشق وسوق الخيل وسوق الجمال وسوق الخضروية تباع فيها الخضر والفواكه بالجملة وسوق الحمير وسوق المحابرية وبها يعملون المحابر والصناديق البسيطة للفواكه وسوق المناخلية والبوابجية وكل هذه متصلة مشهورة وسوق العمارة وهي سوق طويلة مشهورة تباع فيها لوازم القوت وغير هذه الاسواق مما يطول شرحهُ وفي راس سوق السنانية الجنوبي سوق تجتمع فيها الوف من الاغنام كل يوم باكرًا فياتي الجزَّارون ويشترون لوازم يومهم ويمتد من راس هذه السوق الجنوبي طريق متسع مستقيم طولهُ نحو ميلين يخترق الميدان من الشمال الى الجنوب وعلى جانبيهِ دكاكين وقهاوى وحواصل الحنطة وهذا الطريق مكشوف وكان مختلف العرض وغير مرتب وفي ايام ولاية المرحوم راشد باشا تحسَّن وصار صالحًا لسير المركبات وزرع على جانبيهِ اشجار من الازدرخت على بعد متناسب ولعدم الاعتناء بهذه المغروسات يبست ولم يبقَ منها الَّا بقية قليلة

جدًّا وعرض هذا الطريق ينيف على خمسين قدمًا ففي الوسط طريق للعربات والدواب وعلى جانبها رصيفان من حجارة عرض كلٍّ منهما عشر اقدام وهما لسلوك الناس وبين كل رصيف والطريق الوسطى قناة صغيرة مكشوفة عملت لجر الماء صيفًا لرش الطريق الوسطى ولسير الماء شتاءً الى البواليع ولو اعتُني بتلك الاغراس بعد راشد باشا لاضحى الميدان من احسن اقسام المدينة واجملها

وكل الاسواق التي يطلق عليها اسم المدينة مستقيمة عريضة جميلة مرتبة لا ترى الشمس في الصيف ولا الامطار في الشتاء لانها مسقوفة الّا ما استثنيناهُ وكل يوم يرى فيها الوف من الرجال والنساء للبيع والشراء وفي ايام الاعياد الشهيرة تغص تلك الاسواق بجماهير الناس وارض هذه الاسواق كانت من قبل مرصوفة بحجارة على انهُ لتمادي الايام تغطت بتراب ولكثرة رش المياه عليهِ صيفًا وتواصل دوس الاقدام صار كبلاط لا يصدر عنهُ الغبار فلذلك ترى البضائع دائمًا نظيفة وقبل سنة ١٨٦٣ كانت اسواق المدينة ضيقة حيث كان لكل دكان مصطبة امامهُ وفي السنة المذكورة اعتنى المرحوم شرواني باشا بتنظيم طرقات دمشق وتحسينها ورصفها بالحجارة على طراز جديد فاقتلع تلك المصاطب من امام الدكاكين فعرضت الاسواق وتحسَّن منظرها وما بقي قابل الاصلاح اتمهُ المرحوم راشد باشا

ولما اصلح شرواني باشا الطريق خارج المدينة من جهة مسجد القصب نُقش تاريخ ذلك على سبيل بين مسجد القصب وبرج الروس وقد اثبتناهُ هنا وهو

بنى طرق الهدى رشدي البرايا | وزيرًا البس الدنيا جمالا
تدارك خُلّقًا من بعد ضعفٍ | فنالت من عدالتهِ اعتدالا
والّف مجالس التحسين نظمًا | فعمَّ بنفعهِ الشام ارتجالا
وكلّف صالح الافعال سعيًا | بصالحها فكان الاسم فالا
فجدد عندما التاريخ حيًّا | سبيلًا قد جرى عذبًا زلالا

سنة ١٢٨١

اما دكاكين المدينة فكلها عقود وعملت هكذا حذرًا من الحريق وطرازها شرقي على انهُ قد عمل بعضها يوم تصلحت الاسواق بحسب طراز الافرنج . واسقفة الاسواق شاهقة وكلها جملونات خشبية (الاَّ سوق القباقبية) وفي اسواق المدينة كثير من الخانات والحمامات والجوامع وقليل من القهاوى

كنائس دمشق واديرتها

لكل طائفة من طوائف النصارى في دمشق كنيسة او اكثر وكلها (الاَّ كنائس الميدان) تجددت بعد سنة ١٨٦٠ وقد كان اكثرها قبل الحادثة عامرًا مشيدًا وما لم يكن موجودًا انشئ بعدها فلطائفة الروم الارثودكس ثلث كنائس ثنتان في المدينة وواحدة في الميدان فالاولى الكنيسة الكبيرة مبنية على اسم مريم العذراء وتُعرَف بالكنيسة المريمية وهي قديمة العهد يظن بان اسسها وُضِعَت منذ ايام ارخاديوس قيصر المار ذكرهُ وقد كانت عظيمة ولما فتح المسلمون دمشق كانت من القسم الذي استولى عليهِ خالد بن الوليد بالسيف فاخذها المسلمون واهملوها فخربت ولما تولى الخلافة الوليد بن عبد الملك الاموي كان يلاصق الجامع الاموي كنيسة على اسم مار يوحنا فاخذها من النصارى واضافها الى الجامع ولما تولى الخلافة عمر بن عبد العزيز استدعى النصارى اليهِ ان يعوضهم معبدًا عوضًا عن المأخوذ منهم فعوضهم بالكنيسة المريمية فعمروها عمارة عظيمة وبقيت هكذا الى ٢٧ رمضان سنة ٦٥٨ ﮪ اذ اخربها المسلمون عندما ثاروا على النصارى وبعد مدَّة استاذن النصارى واعادوها كما كانت ثم في سنة ١٤٠٠ م اخربها تيمور كغيرها من عمارات المدينة ثم ارجعت وكانت مبنية من حجارة كبيرة على غاية من المتانة (ولها اقبية كبيرة تحت الارض قتل بها سنة ١٨٦٠ عدد وافر من الذين التجأُوا اليها) وكانت تقسم الى كنيستين الاولى على اسم السيدة وبها ايقونة جميلة يسمونها المسكوبية والثانية كنيسة مار نقولا وسنة ١٨٦٠ احترقت الكنيسة المريمية وخربت خرابًا تامًّا وسنة ١٨٦١ شرعوا في تجديدها وعملوها كنيسة واحدة

يبلغ طولها نحو ٧٠ ذراعًا وعرضها نحو اربعين وقد اعتنوا ببنائها فأتت من اجمل كنائس سوريا ومصر. والثانية كنيسة مار يوحنا الدمشقي وهي على بعد قليل من الاولى الى جهة الشمال الشرقي وموقعها في الاسية بناها المرحوم المطران ايوانيكوس المساميري الدمشقي بامداد روسيا عقيب حادثة سنة ١٨٦٠ على اسم مار يوحنا الدمشقي وقد كانت قبلاً دارًا لقنسلاتو روسيا ولما ارتد بانيها الى الكنيسة الكاثوليكية التي خرج منها استرجعها الروم بامر الباب العالي بهمة المرحوم انطون افندي اللاذقاني وغيره وكان ذلك بعد تكريسها بوقت قصير وهي كنيسة صغيرة يلاصقها مدرسة لطائفة الروم الارثوذكس بناها غبطة البطريرك ايروثيوس الحالي اما كنيسة الميدان فموقعها في القرشي تمّ بناؤها في اواخر سنة ١٨٦٢ وهي كنيسة صغيرة وفيها مدرسة للذكور

وللكاثوليك ثلث كنائس واحدة في المدينة وثنتان في الميدان اما كنيسة المدينة فكبيرة وموقعها في حارة الزيتون بجانب السور الى الجنوب الغربي عن الباب الشرقي كانت قديمًا معبدًا او ملكًا لليهود القرائين الذين انقرضوا من دمشق ثم اشتراها الكاثوليك وفي ايام ابرهيم باشا المصري ابن محمد علي وضع اسسها المرحوم البطريرك مكسيموس مظلوم بمساعدة مجري بك وكان بناؤها بين سنة ١٨٣٣ وسنة ١٨٤٠ م على اسم السيدة وسنة ١٨٦٠ احترقت ثم جدّدوها فصارت احسن مما كانت وهي ككنيسة الروم في الاتساع او اصغر منها قليلاً على انها اشد متانةً وقوةً وقد أُنفق على بنائها مال كثير قيل بانهُ ثلاثون الف ليرة. ومن الذين اسعفوا ببنائها الاسعاف الزائد المرحومان متري شلهوب وانطون الشامي ولها قبة شاهقة جدًّا وبجانب الكنيسة دار البطركخانة وسنة ١٨٧٣ انشأ غبطة البطريرك غريغوريوس باحدى زوايا دار الكنيسة من الشرق مدرسة متقنة البناء لذكور طائفته وفي دائرة هذه الكنيسة حديقة واسعة جميلة

واما كنيستا الميدان فالاولى في محلة باب المصلى على اسم القديس جاورجيوس والثانية في القرشي على اسم سيدة النياح وهما صغيرتان بناهما المرحوم البطريرك

مكسيموس ايضًا بعد بنائهِ الاولى ببضع سنين

وللسريان الكاثوليك كنيسة على اسم مار موسى الحبشي واقعة على الطريق السلطاني الى الغرب عن الباب الشرقي على بعد قليل منهُ وهي صغيرة جميلة وبدائرتها مدرسة وبطركخانة احترقت سنة ١٨٦٠ وتجدَّد بناؤُها بمساعي المرحوم المطران يعقوب الريشاني مطران تلك الطائفة

وكنيسة مار سركيس واقعة بجانب الباب الشرقي بلصق السور مختصة بطائفة الارمن القدم وهي قديمة العهد جدًّا احترقت سنة ١٨٦٠ ثم تجدَّدت وفي دائرتها مدرسة صغيرة لذكور تلك الطائفة وبقربها بيت يسكنهُ مرتبيت الطائفة

وكنيسة السريان اليعقوبيين موقعها في حارة حنانيا بالقرب من الباب الشرقي وهي كنيسة صغيرة وقد جُدِّدت سنة ١٨٦٠ على اسم القديس جاورجيوس

وكنيسة الارمن الكاثوليك واقعة امام دير الرهبان العازريين من جهة الشرق وهي صغيرة جدًّا وقد انشئت بعد سنة ١٨٦٠ على اسم القديس غريغوريوس وكان مكانها فرن وقد اختبأ فيهِ المؤلف في اوَّل يوم من حادثة ٦٠

والطائفة البروتستانية كنيستان بنت الاولى منهما مسز موط الانكليزية سنة ١٨٦٨ . وبنيت الثانية سنة ١٨٦٤ بهمة القس يوحنا كروفورد الاميركاني والقس روبصن الانكليزي وفي دائرتها مدرسة للذكور. وفي حنانيا كنيسة صغيرة على اسم القديس حنانيا يقال بانها في المحل الذي كان بهِ بيت حنانيا

اما اديرة دمشق فجميعها مختصة بالطوائف البابا وية وكلها تحتوي على كنائس شهيرة حسنة

اولها دير الآباء العازريين موقعهُ بين داري الشامي وشلهوب وهذا الدير متسع مستطيل يمتد من الشمال الى الجنوب ويُسمَّى دير اليسوعيين ايضًا وقد كان صغيرًا ومنذ ٣٥ سنة بوشر بتوسيعهِ وبنائهِ بناء متينًا فتم في سنة ١٨٦٠ فدهمهُ الحريق وكان فيهِ مدرسة للذكور واخرى للاناث وفي دائرتهِ طبيب يعالج مجانًا كلَّ من ياتيهِ من اي طائفةٍ كانت وصيدليتهُ تعطي الادوية مجانًا ايضًا وعند

تجديدهِ بعد سنة ١٨٦٠ زيد اتساعًا من الجهة الجنوبية وتحسنت كنيستهُ كثيرًا فصارت اجمل مما كانت قبلاً وهندستها بحسب طراز كنائس المغرب ومحرابها متجه الى الغرب وهذا الدير يقسم قسمين قسم للراهبات وفيهِ مدرسة البنات وقسم للرهبان وفيهِ مدرسة يومية للصبيان. ولرهبان هذا الدير وراهباتهِ الاعتناء الزائد في تربية الاولاد ولاسيما الايتام هذا فضلاً عمّا لهم من الايادي البيضاء في عمل الخير لانهم فضلاً عن فضائلهم التي ظهرت لحد الآن دون ان يقدر المنتقد ان يرى فيهم بمكبرتهِ عيبًا تراهم يبذلون الجهد الجهيد والكد الاكيد في ايام الاوبئة والامراض القتالة في خدمة المرضى والمصابين بنوع يحمل على التعجب والتحيُّر ويجبر المؤرّخ ان يذكر ذلك لئلاَّ يضيع ذكر المحسنين وقد ذكرت ما ذكرتهُ شهادة للحق واجابةً لدواعي الذمة

ودير الآباء الفرنسيسكانيين وموقعهُ الى الشمال من سابقهِ على بعد قليل وقد تاسس بحسب ما قيل من نحو ٣٢٥ سنة وتجدد عقب سنة ١٨٦٠ بعد ان اصابهُ بما اصاب غيرهُ فاتسعت دائرتهُ وتحسنت كنيستهُ المعقودة بالحجارة تحسينًا مهمًّا واضحى لها قبة شاهقة العلو في راسها صليب نحاسي كبير. وفي هذا الدير دائرة للرهبان ومدرسة بسيطة وقد انفقوا على بنائهِ ١٢ الف ليرة على ما قيل

ودير مار انطونيوس وهو مقابل الذي قبلهُ من جهة الشمال ويختص بالطائفة المارونية وقد احترق سنة ١٨٦٠ وتجدَّد بعدها وكنيستهُ متوسطة الاتساع وهي على اسم القديس انطونيوس البادواني وفي هذا الدير راهبان احدهما الاب الشهير الخوري يوسف كرم

وفي الصالحية كنيسة صغيرة تختص طائفة السريان الكاثوليك وهي حديثة ايضًا. وعلى هذا النمط تكون كنائس النصارى في دمشق سبعة عشر كنيسة

اما كنائس اليهود فكثيرة جدًّا حتى يكاد يوجد في بيت كل غني حجرة كبيرة مفرزة للعبادة العمومية واما الكنائس العامة فعشرة اشهرها كنيس سوق الجمعة

جوامع دمشق

الجوامع في دمشق كثيرة العدد ومتفرقة في كل انحاء المدينة وتبلغ ٢٥٣ جامعًا هذا فضلاً عن مقابر الاولياء الشهيرة والمدارس العديدة التي تقام بها الصلاة واذا قصدنا ذكرها بالتفصيل ضاق عنها هذا الكتاب فنقتصر على ذكر الجوامع الاكثر شهرةً واعتبارًا وهي

اولاً الجامع الاموي وهو من اكبر جوامع المسلمين واقدمها واشهرها واجملها وانفخها بناهُ امير المؤمنين ابن عبد الملك ابن مروان كما تقدم وذلك بين سنة ٨٩ و٩٦ ﻫ وجمع اليهِ اشهر الصناع من مملكتهِ المتسعة واتاهُ باثني عشر الف صانع من بلاد الروم ايضًا فاتى عظيمًا جميلاً متقنًا بالنقوش الحسنة والفسيفساء البلورية المدهونة بالوان الدهان الجميلة وانفق عليهِ مالاً جزيلاً لا يقل عن مئتين وخمسين الف ليرة

وكان في مكان هذا الجامع هيكل عظيم في ايام الاراميين على اسم الههم رامون وكان لذلك الهيكل مذبح جميل امر آحاز ملك يهوذا بان يعمل مثلهُ في هيكل سليمان في اورشليم. ثم اتخذهُ اليونانيون معبدًا لآلهتهم وكذا الرومانيون وفي ايام ارخاديوس قيصر الروماني تخرب بعضهُ فبناهُ بناءً جميلاً وحوَّلهُ كنيسة مسيحية على اسم مار يوحنا المعمدان ولما فتح المسلمون دمشق دخل نصف هذه الكنيسة بحوزتهم والنصف الآخر وهو الغربي بقي للنصارى فكانوا يصلون فيهِ وكانت كنيسة مار يوحنا هذه من الكنائس الكبيرة العظيمة جدًّا التي لا يوجد لها نظير في سوريا الاَّ بانطاكية وكانت متسعة جميلة متقنة مزينة بافضل نقوش البناء وغيرهِ ومحاطة بسور عظيم شاهق جدًّا وابوابها جميلة وعلى عتبة بابها الجنوبي كتابة باليونانية بقلم كبير لم تزل الى يومنا وترجمتها بالعربية : ملكوتك ايها المسيح ملكوت ابدي وسلطانك يمتد مدى الادوار

ولما قصد الوليد بناء الجامع لزمهُ القسم الذي بيد النصارى فطلبهُ منهم

وعرض عليهم مالاً لبناء كنيسة غيرهُ فابوا فاخذهُ جبرًا وهدمهُ واذ رأوا ذلك طالبوهُ بالمال فابى اعطاءهُ . وفي ايام خلافة عبد العزيز عرضوا عليهِ الامر فعوضهم بالكنيسة المريمية ونفقة بنائها من خزينتهِ وقد دهم هذا الجامع نكبات كثيرة وتهدَّم اكثرهُ بالحريق كما ذكرنا ذلك في اوقاتهِ في الباب الاوَّل فليراجع

وطول هذا الجامع من الشرق الى الغرب مئتا خطوة وعرضهُ من الشمال الى الجنوب نحو مئة وخمسين خطوة ولهُ من داخلهِ رواق على جهاتهِ الاربع قائم على اعمدة وسواري متقنة وارضهُ مرصوفة بالرخام الملون وفي صحنهِ بركتا ماء على كلٍّ منهما قبة قائمة على اعمدة متينة وحرمهُ مستطيل على طول الجامع ويمتد من الشرق الى الغرب وسقف الحرم قائم على اعمدة عظيمة شاهقة وفي وسط السقف قبة شاهقة جدًّا مغطاة بالرصاص وهي اعلى ابنية المدينة كلها سوى موآذن الجامع الثلث وترى من مسافة بعيدة وعلى راسها هلال عالٍ ويسمونها بقبة النسر لعلوها وقيل لانها تشبه النسر لكون الرواقين في شمالها ويمينها كاجنحة لها

وفي وسط الحرم قبة بغاية الجمال والمهابة وتُسمَّى قبة النبي يحيى وهي قائمة على اعمدة متقنة الصنعة وفيهِ ايضًا اربعة محاريب لاصحاب المذاهب الاربعة بنيت سنة ٧٣٨ وبانيها تنكز المار ذكرهُ

وفي الجامع كثير من الحجر المختصة بالزيارات منها مشهد الامام علي والحسين وعائشة وغير ذلك مما يستغرق التكلم عن مفرداتهِ صحفًا كثيرة

وكل يوم يجتمع بهِ عدد غفير من العلماء والمدرسين والائمة والسامعين والقارئين ولهُ خمسة وسبعون موذنًا يتناوبون الاذان بموآذنهِ الثلث باجمل الاصوات وفيهِ كثير من المصاحف منها واحد بخط عثمان يتبرك بهِ الناس ويقسمون عليهِ . وفي كل ليلة يُنار المسجد بالوف من القناديل حتى تخال الليل نهارًا

اما الموآذن الثلث فهي اولاً مأذنة عيسى واقعة بشرقي الجامع لا مثيل لها في العلو وتعلو عن قبة الجامع نيف ومئة قدم واذا صعدت اليها يمكنك ان ترى دمشق وما حولها من القرى الى بعد شاسع واماما من الغرب مأذنة اقصر منها

قليلاً ويقال لها الغزالية وهما قديمتان جداً كانتا في زمن الرومانيين واليونانيين على ما ذهب اليهِ بعض المؤرخين قال البصوري كان بكل زاوية منارة وبنى ذلك اليونانيون للرصد فسقطت الشماليتان وبقيت القبليتان اه . واما الثالثة وهي الشمالية ويقال لها مأذنة العروس بناها الوليد فانت بغاية الاتقان والجمال ومع انها اقصر من سابقتيها تفوقهما حسناً وجمالاً وقد تغزّل فيها الادباء وذكروا محاسنها باشعارهم من ذلك ما قالهُ الفتح بن شهيد لقوم قاسوا حماة ومساجدها بدمشق

قاسوا حماة بجلّقٍ فاجبتهم هذا قياسٌ فاسدٌ وحياتكم
فعروس جامع جلق ما مثلها شتّان بين عروسنا وحماتكم

وقد اشتمل هذا الجامع على اربعة مشاهد في كل جهة مسجد برمقة الحسن ويحفهُ البهاء اما ابوابهُ الخارجية فسبعة ففي جهة القبلة باب العبرانية ويُسمّى باب الساعات وباب الزيادة قال فيهِ ابن نباتة

ارى الحسن مجموعًا بجامع جلّقٍ وفي صدرهِ معنى الملاحة مشروحُ
فان يتغالى بالجوامع معشرٌ فقولوا لهم باب الزيادة مفتوحُ

وفي جهة الغرب باب البريد وفي جهة الشرق باب جيرون وهو اكبر الجميع ومن جهة الشمال اربعة ابواب احدها صغير يفتح تجاه قبر الملك صلاح الدين والثاني كبير يفتح الى الكلاسة والثالث اكبر منهُ يسمّى باب الفراديس والرابع الى الشرق ويُسمّى باب السلسلة او باب الكاملية . وفي هذا الجامع كثير من التحف الثمينة والساعات والمزاول لمعرفة الاوقات وايراداته وافرة لكثرة اوقافهِ

ثانيًا جامع السنانية وموقعهُ امام باب الجابية بناهُ سنان باشا عندما استولى السلطان سليم العثماني على دمشق وهو حسن وشهير لوقوعهِ في نصف المدينة

والجامع المعلق موقعهُ بين العمارة والجابرية وهو قديم ومتين

وجامع السويقة وهو قديم ايضًا وشهير على انهُ قد تخرّب بعضهُ في هذه الايام

وجامع المصلى في باب المصلى بالميدان وهو متسع جدًا وقديم ويقال بانهُ اوّل جامع بني في الاسلام بناهُ ابو عبيدة يوم كان محاصرًا دمشق

وجامع الشيخ محيي الدين بالصالحية جدّدهُ السلطان سليم العثماني عندما اتى دمشق ويقصدهُ الناس للزيارة كل يوم جمعة وهو من اشهر جوامع الصالحية

وجامع تكية السلطان سليم بالمرجة بناهُ السلطان سليم فاتى بغاية الجمال

وجامع البدرقية في محلة القيمرية بالقرب من الجامع الاموي وهو قديم جدًّا وكان في ايام الرومانيين دار الاسقفية ولم تزل جدرانهُ القديمة باقية الى يومنا وتحسب من اثار المدينة واذا امعنت النظر حواليهِ وانت سائر في الطريق ترى اعمدة بغاية العظمة والغلاظ واقعة الآن في الجدران وعددها ليس بقليل ومنها يمكنك ان تستدل على اهمية هذا المحل القديم وما كان عليهِ من الفخامة وقد ظن قوم بانهُ كان قبلاً محل دائرة الحكومة لا الاسقفية الاَّ ان المؤرخين يقولون ان دائرة الحكومة بدمشق كانت بباب البريد

وبالاختصار ان معابد الاسلام في دمشق كثيرة جدًّا فنقتصر على ذكر عددها لتبيان فضل المدينة

جوامع لاكثرها منارات شاهقة ١٥٢ . مساجد ٧١ . تكات ١٤ . ترب اولياء ومحلات زيارات مشهورة ١٩٤ . مدارس ٣٩ . ومجموع ذلك ٤٧١

حمّامات دمشق

اجمع الذين ساحوا في جميع انحاء الممالك العثمانية وبعض الديار الشرقية على تفضيل حمامات دمشق عن غيرها لما فيها من الاتقان والنظام والهندسة وغزارة المياه واتقان الخدمة والاكرام والاعتناء وبخس الاجرة بالمغتسل. وترتيب حمامات دمشق واحد فان الحمام يقسم الى دائرة خارجية في وسطها بركة مستديرة ينسكب فيها الماء من اربعة او خمسة انابيب وحولها مصاطب يخلع عليها المغتسلون ثيابهم ويقدّم لهم ما يلزمهم من البشاكير والمناشف وما شاكل ذلك ودائرة للاستحمام تقسم الى قسمين خارجي وداخلي ولكلّ منها اجران ولكل جرن انبوب ماؤُهُ حار وفي بعض الحمامات لكل جرن انبوبان واحد ماؤُهُ حار وآخر

بارد اما سقف دائرة الاستحمام فهو عقد ذو نوافذ صغيرة مستديرة يغطيها بلور وسقف الدائرة الخارجية قبة شاهقة

وعدد حمامات دمشق ٥٨ حمامًا متفرقة في انحاء المدينة اشهرها حمام الخياطين وحمام القيشاني وجدرانهُ مصفحة بالقيشاني وحمام النوفرة وموقعهُ بالقرب من الباب الاموي الشرقي وحمام المسك وهو انقن الحمامات واجملها موقعهُ في حارة النصارى جدَّدهُ بعد سنة ١٨٦٠ المرحوم متري شلهوب واصلح قناة مائهِ. وحمام الخراب وحمام الناصري في الشاغور. وحمام البكري . وحمام القيمرية وحمام الشيخ ارسلان في باب توما . وغير ذلك من الحمامات المنتشرة في جميع الانحاء

قهاوي دمشق

في دمشق ما ينيف على مئة وعشر قهاوي بين كبيرة وصغيرة . وهي منتشرة بانحاء المدينة ومن اشهرها قهوة السكرية في باب الجابية. وقهوة الفاحين بالقرب منها . وقهاوي الدرويشية كلها في الدرويشية. وقهوة العصرونية وهي متسعة كبيرة موقعها براس العصرونية بنيت منذ اربع سنين . وقهوة المناخلية . وقهوة الجنينة بسوق الخيل . وقهاوي العمارة بالعمارة . وقهوة الجاويش بالقيمرية. وقهوة الرطل بباب توما . وقهوة باب السلام . وغير ذلك وثمن فنجان القهوة بها بغير سكر خمس بارات فيقصدها الناس لاجل التسلية والاجتماع بعضهم ببعض

وفيها قهاوي يسمونها كازينات وهي في سوق الخيل والمرجة وفي الصوفانية خارج باب توما وثمن فنجان القهوة عشرون بارة في بعض هذه القهاوي وعشر بارات في البقيَّة فيقدر الغريب من اي رتبةٍ كان ان يصادف شيئًا من اسباب الراحة واذا قصد الاختلاط بالناس يجد لطفًا ودعة بين يجادثهم وهذا من دلائل اجماع الاهالي على محبة الغرباء

وفي الاربع السنين الاخيرة تجددت قهاوي كثيرة في المرجة فصار الناس يجتمعون بها ليلاً ونهارًا في الفصول الثلاث وفي بعضها نهارًا في فصل الشتاء

وكان للقهاوي اعتبار كلي في الايام السالفة لان جماعة الانكشارية كانوا يجتمعون بها ويصورون عددهم الحربية فوق الوجاق وكانوا يعتبرون تلك الصور كراية يحامون عنها وكان من قتل قتيلاً وتوصل الى وجاق القهوة سلم

خانات دمشق

خانات دمشق كثيرة وعددها ١٢٩ خاناً متفرقة في انحاء المدينة وهي على نوعين نوع يختص باصحاب التجارة وهو في المدينة (اي مجموع الاسواق) ونوع للدواب واواية المكارين وبعض الفقراء وهو متفرّق بكل الانحاء

واشهر خانات التجار خان اسعد باشا وهو اعظم خانات الشام بناؤهُ جميل من حجارة مدماك ابيض ومدماك اسود وفي صحنهِ بركة كبيرة مستديرة حسنة المنظر وفوقها قبة عظيمة شاهقة العلو قائمة على سواري عظيمة متينة ويقسم الى قسمين سفلي وعلوي وفي كلٍّ منها حوانيت للتجار بعضها كالقاعات ويقصد هذا الخان اهل السياحة للتفرج عليهِ لما بهِ من الجمال وصنعة البناء ومن الغرائب انهُ حوى ادق صنعة من عمل الحجارين وقد اظهر بعضهم الاندهاش من انقان بابهِ وجمالهِ. وعلى جانبي بابهِ فستقيتان حسنتان يشرب منهما النابس واذا دخلت اليهِ تجد عن يمينك ويسارك سلمين حجريين يوصلان الى الطابق العلوي وفي هذا الخان حوانيت اكابر التجار وخصوصاً الذين يتجرون الى العراق العربي وبلاد العجم اما بانيهِ فهو اسعد باشا العظم وذلك من نحو قرن ونصف تقريباً. وخان العمود امامهُ. وخان سليمان باشا في الحبالين ويقال لهُ خان الحماصنة لان تجار حمص ينزلون فيهِ وهو ثاني خان اسعد باشا في الجمال والاتساع. وخان الزيت. وخان المرادنية. وخان الخياطين او خان الجوخ. وخان الزعفرنجية. وخان الشيخ قطنا. وخان الجوار. وخان المرادية. وخان الجمرك وكان اولاً مركزاً للجمرك وسنة ١٨٦٤ نقل الجمرك منهُ فاشتراهُ متري افندي شلهوب وعائلة سوقاً ثم اشتراهُ شمعايا افندي والآن يُعرَف بهِ وفيهِ بعض كبار الصيارفة. وكل هذه الخانات

قديمة جميلة متقنة . ويوجد خانات غير هذه اعرضنا عن ذكرها

اما النوع الثاني فاشهر خاناته بسوق الخيل والعمارة وباب المصلى والشاغور والعلبية ويمكن الغرباء النزول بها ولا يلتزمون ان يدفعوا اجرة الحجرة اكثر من ١٥ غرشاً في الشهر

لوكندات دمشق

ليس في دمشق الاَّ لوكندة واحدة للمرحوم ديمتري كره موقعها في سوق الخيل وهي جميلة مرتبة لا يلتزم المسافر ان يدفع فيها يومياً اكثر من خمسين غرشاً

فصل

في اقسام دمشق

تقسم دمشق الى قسمين بالنظر الى القدمية قسم داخل السور وقسم خارجهُ فالاوَّل قديم جدًّا والثاني بني في الاعصر الاسلامية شيئاً فشيئاً وهو جزء كبير من الشاغور والميدان الفوقاني والتحتاني والقنوات والبحصة وحارة الجديدة والعقيبة والعمارة الداخلية والعمارة البرانية ومسجد القصب وكل هذه واقعة الى الغرب وبعض الشمال والجنوب من السور واما الى الشرق فلا عمارة على الاطلاق واما بالنظر لما هو معروف في دفاتر الحكومة فتقسم دمشق الى ثمانية اثمان وهي اولاً ثمن القيمرية ويدخل فيهِ حارة النصارى وحارة اليهود . ثانياً ثمن الشاغور . ثالثاً ثمن الميدان الفوقي . رابعاً ثمن الميدان التحتي . خامساً ثمن القنوات . سادساً ثمن العقيبة . سابعاً ثمن العمارة . ثامناً ثمن الصالحية . وكل ثمن يقسم الى احياء

ابواب دمشق

تقدَّم ان قسماً من دمشق خارج الاسوار وقسماً داخلها فالذي خارج الاسوار لهُ مخارج كثيرة العدد لا يعتبرونها ابواباً للمدينة واما الذي داخل السور فلهُ ثمانية ابواب وهي قديمة العهد جدًّا فمن الشمال اربعة ابواب وهي باب توما جدَّدهُ زنكي المارذكرهُ في ايام السلطان محمد بن قلاوون وذلك سنة ٧٦٤ هـ . وباب

السلام جدّد سنة ٦٤١ هـ . وباب العمارة وهو باب الفراديس له تاريخ لم اتمكن من قراءته . وباب البوابجية وهو باب الفرج جدّد في ايام سيف الدين ابي بكر بن ايوب سنة ٦٠٦ هـ وهذا الباب مشهور جدًّا وكانوا يتفاءلون به بالخير وقد ذكرهُ الشيخ عبد الغني النابلسي بقولهِ

قل ما تشا عن جلّقٍ ... وانسب لها ولا حرج
فالخيرُ واليمنُ بها ... وبابها باب الفرج

ومن الغرب بابان الاوّل باب السرايا بقي كما كان قبلاً الى سنة ١٨٦٣ م عندما اصلحت الطرقات في ايام شرواني باشا فهُدِم. والثاني باب الجابية جدّد سنة ٥٦٠ ومن الجنوب باب الشاغور وهو المعروف بالباب الصغير ومن الشرق الباب الشرقي وهو من زمن الرومانيين كان له على كل جانب باب صغير عمل امامهُ الاسلام ابراجًا ولها باب آخر من الجنوب قريب من الباب الشرقي وهو مسدود في هذا الوقت ويسمّيهِ النصارى باب بولس لانهم يقولون بان بولس الرسول دُلّي من نافذة فوقهُ يوم ثار عليهِ الاضطهاد اما المسلمون فيسمونهُ باب كيسان

حصون دمشق

اشهر حصون دمشق قلعتها وهي قديمة جدًّا يظن بانها اسّست من بداءة الاعصر الاسلامية وهذه القلعة واقعة غربي المدينة مما يلي الشمال وطولها من الشرق الى الغرب ٢٣٠ خطوة وعرضها من الشمال الى الجنوب ١٧٠ خطوة وابراجها عالية جدًّا حتى يكاد يبلغ علو ارفعها نيف وتسعين قدمًا وقد كان قبلاً يسكنها الناس ويقيم بها ملوك دمشق ونوابها وكانت تحتوي على القصور والقاعات المتقنة ودامت كذلك الى ايام ابرهيم باشا واما في ايامنا هذه فاضحى كل ذلك خرابًا ولم يبقَ بها الاّ مخازن المهمات للعساكر الشاهانية وقد داهمها الخراب مرارًا واعيد بناؤها كما ذكرنا ذلك في محلاته. ولهذه القلعة بابان كبيران وباب صغير مردوم وهي بغاية المتانة وحولها خندق عميق تجري فيهِ المياه ويمر نهر بانياس في

وسطها . وسنة ١٨٦٢ م انشأت الحكومة قلعتين صغيرتين واحدة في حارة النصارى في محلة طالع القبة والثانية في الميدان الفوقاني قرب الجزماتية وسنة ١٨٧٣ انشأت محلاً آخر في المرجة عن شمال طريق المركبات المؤدي الى بيروت ووضعت به الذخائر القابلة الاحتراق وهذه المحلات وان تكن صغيرة يمكن ان تُحسب من الحصون . وفي دمشق اكثر من عشرة منازل للعساكر الشاهانية يسمونها قشلاً وكلها بالقرب من سراي العسكرية وتسع نحو عشرين الف جندي بمهماتهم

فصل

في مياه دمشق ومنتزهاتها

قيل ان دمشق تشرب من سبعة انهر وكثر لغط الناس بذلك وهذا اكيد على ان هذه الانهر تتفرع من واحدٍ في الاصل وهو نهر بردى وبعد ان تسقي البساتين والمدينة يرجع الفائض منها اليه ويسير به ويصب في بحيرة المرج شرقي المدينة على بعد ١٥ ميلاً منها . ومخرج هذا النهر من جنوبي قرية الزبداني ومن هناك يسير في سهل الزبداني المتسع الخصب وبعد ان يقطعهُ ياخذ بالانحدار في وادي بردى المسمَّى بوادي البنفسج ووادي الذهب ايضاً ويمر بسوق وادي بردى ومن هناك تفرق منهُ شعبة صغيرة تسير في قناة قديمة محفورة في الصخر لتسقي الاراضي المرتفعة والباقي يسير في ذلك الوادي وتنسكب فيهِ اعين كثيرة فتُسقَى بهِ البساتين والحدائق التي على ضفتيهِ ولما يصل الى قرية الفيجة ينضمُّ اليهِ نبعها المساوي لهُ في الغزارة . ومن هناك يسير النهر الى قرية بسيمة وبينها وبين الفيجة على بعد عشرة دقائق من بسيمة عين الخضراء وما ادراك ما عين الخضراء نبع زلالي لجيني يخرج من سفح الجبل ويسير في قناة قديمة وعلى احد جوانبهِ مرجة صغيرة كستها يد الطبيعة ثوباً سندسياً والنهر من جانبها الآخر يزيدها جلالاً والجبال الشاهقة حولها تعطيها مهابة حتى اضحت سلواناً للغريب وصفواً للقريب وفي كل اسفاري بسوريا لم ارَ ماءً كمائها في النقاوة والجودة . وقد اعتنى الاقدمون

وجرّوا ماءها بقناة بسيمة ونقروا تاريخ ذلك على صخر هناك على انهُ لطول الايام اندرست احرفهُ ولم يبقَ منها الاّ ما قلّ جدًّا

ثم يمرّ بالاشرفية والجديدة والهامة وعند جسر الهامة ينقسم النهر الى قسمين علوي وسفلي فالعلوي يُسمّى يزيد (قال التاجي ان نهر يزيد بسفح الجبل المعروف بقاسيون بدمشق حفرهُ يزيد بن ابي سفيان (اخو معاوية) والسفلي يظل اسمهُ بردى وبالقرب من دمر ينقسم من بردى قسم آخر يُسمّى النهر الديراني يسير نحو داريا مارًّا تحت جسر طريق المركبات المؤدية الى بيروت

واذا سرت مع النهر على طريق العربات وقصدت التوجه الى دمشق يكون بردى عن يمينك ويزيد عن يسارك يبعد عنك قليلاً فعند وصولك الى جسر الخشب الذي يبعد عن دمر نحو ميل واحد ينقسم نهر ثورا ويكون عن يسارك ايضًا وبعد هنيهة يقسم نهر القنوات ثم نهر بانياس وما يبقى يظل اسمهُ بردى اما القنوات وبانياس فيدخلان المدينة في اقنية ويتشعبان في دورها ومعابدها وشوارعها وحماماتها وما يزيد منهما يضمّ الى بردى . والنهر الديراني تقسم منهُ شعبة عند وصولهِ الى داريا وتسير باقنية وتسقي جزءًا من الميدان واما يزيد فيدخل الصالحية ويسقي بساتينها ودورها وما يبقى منهُ يسير فيسقي بعض القرى واما ثورا فيجوز بين بساتين الشام الشمالية ويسقيها ويدخل منهُ شعبتان الى المدينة وما يبقى تسقى منهُ بعض القرى واما بردى فحين يدخل المدينة ويصل الى القلعة يقسم منهُ نهر يُسمّى عقربا فيدخل مع بردى المدينة ويديران ارحية كثيرة بها وبعد ذلك يخرجان من باب توما وتصير المياه الزائدة عن المدينة تنضم اليهما ثم يتفرقان على القرى لسقاء البساتين وبعد ذلك تنضم بقايا جميع الانهر الى واحد يصب في بحيرة المرج وبهذا الاعتبار يقال ان الشام تشرب من سبعة انهر وهي : بردى . يزيد . الديراني . ثورا . قنوات . بانياس . عقربا . وقد جمع ذلك بعض الفضلاء بقولهِ

شوقي يزيد ودمع الصب ما بردا وبان يأس من المحبوب حين بدا

ومدمعي قنوات والعذول حكى ثورًا يلوم الفتى في عشقهِ حسدا
على مغنيةٍ بالجنك جاوبها وخلها مات في خلخالها كمدا

منتزهات دمشق

اجمع الباحثون واهل السياحة على ان دمشق كلها نزهة وعدوها جنة الارض لنضارتها وكثرة مياهها وبساتينها وحدائقها . واجمل اوقاتها ربيعها واجمل اشهر ربيعها اذارها حتى قالوا : دمشق في اذارها جنة في ازهارها . ومع ان طرقات المدينة مخططة لارتفاع الجدران وعلوها والتصاق البناء ترى داخل كل دار نزهة محصورة واذا صعدت على مرتفع او على سطح ترى الاشجار والبساتين تحيط بالمدينة من كل جانب احتياط الهالة بالقمر واذا خرجت من ابواب المدينة لا ترى الأحدائق غناء ومياهًا جاريةً واشجارًا ناميةً وطيورًا مغردةً وحقولاً جميلة خضراء ونسيمًا رقيقًا حتى لا تسير بمحل الاَّ وتجد فيهِ من اسباب الحظ والانبساط ما يسرك وينشرح بهِ خاطرك ومع ان كل مكان خارج دمشق يحسب روضة تجد في كل ناحية جنائن وحدائق خصوصية يقصدها القوم رجالاً ونساء للتنزهة فمن منتزهات دمشق المرجة والصوفانية والطويلة والصالحية التي قيل فيها

الصالحيــة جنَّــةٌ والصالحون بها اقاموا

وغير ذلك مما يطول شرحهُ اقتصرنا بالالماع اليهِ لشهرتهِ

واذ كانت دمشق بهذه الدرجة من النزاهة فبالتدريج قوي في اهلها حب السرور والانشراح وصاروا لا يمضي عليهم يوم بدون صرف شيء منهُ بالتنزه ومهما كانت غمومهم يتركونها خارج ابواب المنتزهات فيضحون كمن لا همَّ لهم وربما تعجب الغريب اذا رآهم منصبين على الصفو بهذا المقدار وقال بانهم لقوم كسالى يأبون الاشغال وينفرون من الاعمال ولكن ان بحث في احوالهم واطال الاقامة بينهم يرى ان لا شيء عندهم مما توهم وما يراهُ منهم من حب الانشراح انما هو ناجم عن امر خدمة الجسد المتعب من الشغل فبالتنزه راحة بعد تعب الاشغال

اما التنزه عندهم فلهُ محلات معلومة وايام معدودة وهي سبع ثلاثات وسبعة سبوت وخمسة اخمسة وتبتدئ في اوائل شهر اذار عندما تاخذ الاشجار تطلق ازهارها ففي الثلاثات يخرجون الى الصوفانية ويجتمعون على شطوط الانهر التي بها ويزورون الشيخ ارسلان وفي السبوت ينتشرون للتنزه في المرجة الوفًا نساءً ورجالاً وكانوا في الايام السالفة لايشتغلون في السبوت بل يتنزهون وفي الاخمسة يقصدون محلاً في جبل قاسيون اسمهُ الاربعين ويقومون بهِ باسباب الانشراح . واذا دخل غريب دمشق في الايام المذكورة من احدى هذه المحلات يظن بان سكان دمشق نحو مليون نسمة كما انهُ لو جاز في اسواقها يوم الجمعة او يوم وقفة عيد ظن ذلك الظن نفسهُ

ومن ايام التنزه العمومية وقت النيروز ويبتدئ في ١٢ اذار فيخرج الناس في ايامهِ باكرًا الى البراري والبساتين ويرجعون بعد الشروق بوقت قصير

فصل

في تربة دمشق ونباتاتها واشجارها وهوائها

تربتها* الاراضي المحيطة بدمشق جميعها سهول حمراء التربة جيدتها كثيرة الخصب واصحابها اولو جدٍّ واعتناءٍ كلي في امر الزراعة وقد برعوا بهذا الفن وفاقوا بهِ جميع السوريين ومع انهم يزرعون الارض الواحدة في السنة مرارًا تراها دائمًا تاتي بمستغلات متنوعة وذلك لكثرة الجد وجودة التربة وغزارة المياه ومناسبة الفصول

محاصيلها* محاصيل دمشق الحنطة والشعير والباقياء والفصة والجلباء والكرسنة والقطاني والذرة الصفراء والبيضاء والفول واللوبياء والباميا والشمر واليانسون والعصفر والقنب والبندورة والباذنجان الاسود والكرنب والقرنبيط والملفوف (يخناء) واللفت والشوندر والبصل والكراث والثوم والفجل والقلقاس والرشاد والارضي شوكي والبطاطا والخيار بانواعهِ والقثاء والكوسا والبطيخ بانواعهِ والسلق وغير ذلك وكل هذه الاصناف يكبر حجمها جدًا ولكثرة محصولها تباع باثمان بخسة جدًا وينبت بدمشق ايضًا انواع الزهور الشرقية وخلافها مع

كثير من العقاقير الطبية

اشجارها ✲ لكثرة اشجار هذه المدينة اصبحت كلها غياضًا مرتبة ذات منظر بهي الى الغاية وتقسم اشجارها الى قسمين مثمرة وعقيمة فالمثمرة منها المشمش بانواعهِ كالحموي والبلدي والسندياني والكلابي . والتفاح بانواعهِ والتوت والخوخ بانواعهِ والدراقن بانواعهِ والعقابية واللوز والقراصية والجوز والكمثرى بانواعهِ والسفرجل والرمان بانواعهِ والزيتون بانواعهِ والكرم بانواعهِ والآس والتين والزعبوب والليمون بانواعهِ الى غير ذلك من الاشجار المثمرة وكل اثمار هذه الاشجار كبيرة الحجم وتباع باسعار بخسة لكثرتها

واما العقيمة فهي الحور والصفصاف والغار والدلب والدردار وكل ذلك كثير الوجود واكثرهُ يزرع على شطوط الماء للانتفاع باخشابهِ

هواؤُها ✲ هواء دمشق جيد حسن في كل الفصول الّا الخريف فان الهواء فيهِ يتغير ويصير مضرًّا بالصحة ولكثرة المياه في دمشق تتولد فيها الامراض العفنية في ذلك الفصل وفي بعض الاحيان تفشو فيها حميات قتالة يموت بها كثيرون من الناس وممَّا يساعد امتداد هذه الامراض عدم نظافة الطرقات والمأمول بان الوالي الحالي ابهتلو مدحت باشا لا يغفل عن هذا الامر

فصل

المعارف في دمشق

تلألأت هذه المدينة بنور المعارف في الايام الغابرة ونالت قصب السبق في مضمار الآداب ولاسيما في زمن الدولة الاموية فقد شاد خلفاء تلك الدولة وغيرهم المدارس والمكاتب وانفقوا عليها الاموال الجزيلة ووقفوا عليها الاوقاف الكثيرة فانصبَّ اهلها على العلم فافلحوا ونبغ منهم جم وافر من العلماء الاعلام ممَّن افتخر بهم المشرق على انهُ لكثرة ما طرأ عليها من الحروب والتقلبات السياسية دالت دولة العلم فيها فاهملت مدارسهُ وتشتت شمل مكاتبهِ . ولكن لما ظهرت تباشير الامن في الايام المتاخرة عزم بعض ذوي الفضل الذين لم تخلُ دمشق منهم قط

على ارجاع شوكة العلم وتعزيز شانهِ واخذوا يبذلون ما بوسعهم لجمع شتيت المكاتب والمامول انهم يفوزون رغمًا على كل مانع يحول دون مقصدهم المبرور. اما عدد المدارس في هذه السنة وتلامذتها فهو كما ياتي منفصلاً

مدارس النصارى

مدارس الذكور تسعة وهي مدرسة الروم الارثوذكس وكلها يومية تدرس فيها العربية بفروعها والتركية والفرنساوية واليونانية والجغرافيا والحساب وفيها سبعة معلمين ومئتان وتسعون تلميذًا ونفقتها السنوية نحو اربعين الف غرش تجمع من ابناء الطائفة ومن ايرادات مختصة بها ولها نشرة سنوية تبين اعمالها. والمدرسة الانجيلية وتدرّس فيها العربية بفروعها والتركية والانكليزية والحساب والجبر والهندسة واللوغرثمات والفلسفة الطبيعية وفيها ستة معلمين ومئة وعشرون تلميذًا ونفقتها من مجمع كنيسة ارلندا القسوسية. والمدرسة البطريركية الكاثوليكية انشأها غبطة البطريرك غريغوريوس وانفق عليها ما ينيف على الف ليرة وكان افتتاحها في غرة اذار سنة ١٨٧٥ وتدرس فيها العربية والتركية والفرنساوية وفيها عشرة معلمين ومئتان وخمسون تلميذًا ودخلها السنوي من التلامذة ثلاثة عشر الف غرش ونفقتها ستة وعشرون الفًا والبطريرك يدفع الفرق من مالهِ الخاص. والمدرسة الكاثوليكية السريانية وتدرس بها العربية والفرنساوية وفيها معلم واحد وخمسون تلميذًا. ومدرسة الارمن القدماء وتدرس بها الارمنية وفيها معلم واحد وخمسة وعشرون تلميذًا. ومدرسة السريان اليعقوبيين تدرس بها العربية والسريانية وفيها معلم واحد وخمسة وعشرون تلميذًا. والمدرسة العازرية وهي مدرسة متقنة تدرس بها العلوم الدينية والعربية بفروعها والفرنساوية واللاتينية والحساب والتاريخ والجغرافيا وفيها ثمانية معلمين ومئة وستون تلميذًا. ومدرسة الفرنسيسكانيين تدرس فيها العربية البسيطة وفيها معلم واحد وخمسون تلميذًا. والمدرسة الانكليزية اليهودية وهي مختصة باليهود وتدرس بها العربية والعبرانية والتركية وفيها ثلاثة معلمين وخمسة وعشرون تلميذًا

وللنصارى ثلاث مدارس اخرى في الميدان وهي المدرسة الكاثوليكية وفيها معلم واحد وستون تلميذًا والارثودكسية وفيها معلم واحد وخمسة واربعون تلميذًا . والانكليزية وفيها معلم واحد وخمسة واربعون تلميذًا وفي جميع مدارس الذكور ١١٤٥ تلميذًا و ٤١ معلمًا

مدارس الاناث سبع وهي : مدرسة الروم وتعلم فيها العربية والفرنساوية والحساب والجغرافيا وفيها اربع معلمات ومئة وخمسون تلميذة . والمدرسة الانكليزية وتعلم العربية والانكليزية والحساب والجغرافيا وفيها خمس معلمات و ١٢٠ تلميذة بعضهنّ من اليهود . والمدرسة اليسوعية تعلم بها العربية والفرنساوية وفيها اربع معلمات ومئة واربعون تلميذة والمدرسة العازرية وهي اتقن مدارس الاناث بدمشق وفيها خمس مئة بنت واربع عشرة معلمة . والمدرسة الانكليزية الاسلامية انشئت سنة ١٨٧٨ وفيها معلمة واحدة وخمس وثلاثون تلميذة . ومدرسة الكاثوليك في الميدان وفيها معلمتان وستون تلميذة . والمدرسة الانكليزية في الميدان وفيها معلمتان وخمس وخمسون تلميذة . وفي الجميع ١٠٧٠ تلميذة و ٣٢ معلمة ونفقة هذه المدارس كلها كل سنة ثلاثة آلاف ليرا نصفها من اهل الوطن ونصفها من الاجانب

مدارس المسلمين

مدارس المسلمين في هذه المدينة كثيرة منها ما هو لدرس العلوم الدينية واللغة والفقه ومنها ما هو لدرس مبادئ القراءة اما مدارس النوع الاوّل فعدد طلبتها نحو ٧٠٠ ولا يمكن الجزم في ذلك لان اكثر العلماء يدرّسون في بيوتهم او في الجوامع واما مدارس النوع الثاني فقد احصتها الحكومة سنة ١٢٨٨ ه فكانت ٧٤ مدرسة للذكور وفيها ١٣٠٠ تلميذ و ٢٨ مدرسة للبنات فيها ٢٤٩ بنتًا . وللحكومة اربعة مدارس رشدية فيها ٢٥٠ تلميذًا ومكتب حربي استعدادي فيه ستون تلميذًا ومدرسة حربية كلية فيها مئة تلميذ . وفي هذه السنة اي سنة ١٨٧٩ اقام حضرة صاحب الدولة والابهة مدحت باشا جمعية دعاها الجمعية الخيرية واناط بها امر تعميم المعارف بين الامة الاسلامية فانشأت حالاً ثماني مدارس

مرتبة وفي نيتها ان تنشي مدارس اخرى للذكور والاناث وقد توارد الطلبة عليها فبلغ عددهم نحو الف ومئة ونفقة هذه المدارس من اهل الاحسان . وقد انشئ مدرسة للبنات بلغ عدد تلامذتها ١٥٠ قيل وفي نية ابهتها انشاء مدارس عالية عمومية لجميع الطوائف

مدارس اليهود

لليهود اثنتا عشرة مدرسة بسيطة فيها ٣٥٠ تلميذًا ويدرسون فيها مبادئ دينهم باللغة العبرانية والعلم عندهم في درجة دنية مع انهم اغنياء وفي وسعهم ان ينشئوا مدارس عالية

الجمعيات الادبية

في دمشق جمعيتان ادبيتان فقط وهما جمعية رباط المحبة وهي فرع من جمعية اتحاد الشبان المسيحيين بلندن تاسست سنة ١٨٧٤ ومقصدها مضادة روح الكفر والملكات الردية كالسكر ونحوه وتهذيب الشبان المسيحيين وتقويتهم في المبادئ الدينية المسلم بها من جميع الطوائف النصرانية ومساعدة المرضى والمحتاجين ولا تتعرض للامور السياسية على الاطلاق وعدد اعضائها ٢٨ من قانونيين واكراميين ومراسلين . والجمعية التاريخية وقد انشئت سنة ١٨٧٥ وغايتها البحث في العلم والتاريخ ولا تتعرض للمسائل السياسية ولا الدينية وعدد اعضائها ينيف على السبعين

مكاتب دمشق

قد ذكرنا آنفًا انهُ كان في دمشق مكاتب شهيرة ولقد لعبت بها ايدي الخراب فلم يبقَ منها الاَّ القليل ومن اشهر ما بقي منها الى يومنا هذا المكتبة العمرية بالمدرسة العمرية بالصالحية فيها كتب نفيسة وكلها خط واكثرها نادر الوجود . ومكتبة الشيخ خالد بالقنوات في بيت الشيخ عمر الحضرة وكل كتبها خط . ومكتبة عبد الله باشا بمدرسة عبد الله باشا وكتبها خط منها تاريخ الشام لابن عساكر في ثمانين مجلدًا . ومكتبة الاشماسية بمدرسة قرب الجامع الاموي وكل كتبها خط

اما مكاتب النصارى فكان فيها من الكتب العربية واليونانية ما لا وجود له في غيرها ولكن دهمها الحريق سنة ١٨٦٠ فلم يبقَ منها شيء . وسنة ١٨٧٦ سعى الدكتور بطرسن الاميركاني بتاسيس مكتبة عمومية توقف للطائفة الانجيلية فجمع مكتبة صغيرة حوت كتبًا مفيدة ولم تزل العناية مبذولة في توسيعها وتحسينها

فصل

في صنائع دمشق وتجارتها

وُجِدَت الصنائع في دمشق منذ زمان طويل واعتنى بها الدماشقة فافلحوا وحُسِبَت مدينتهم من الطراز الاوّل بين مدن الصنائع الشرقية حتى صار اسمها علمًا لبعض المصنوعات المتقنة كما سنرى . ثم سقاها الزمان كما سقى غيرها من مدن المشرق وتناوبتها النكبات فامست وليس لها من صنائعها الكثيرة الاَّ اثر بعد عين لان قسمًا منها هاجرها والقى رحالهُ في بلاد الافرنج كصنعة الوشي المسمَّى عندهم دمسقو الى الآن . وقسم ركب طريق القارظين كصنعة السيوف الدمشقية التي فقدت منها منذ تغلب تيمور عليها . وصنعة القيشاني التي فقدت في القرن الماضي لانحصار عملها في قوم افناهم الزمان ففنيت معهم ولم تزل مصنوعاتهم الى الآن شاهدة بذكائهم وحسن اتقانهم لها . وصنعة دهان البيوت وقد فقدت ايضًا في اواخر القرن الماضي واوائل الحاضر ولم تزل آثارها في بيوت كثيرة من المدينة وقد مرَّ على بعضها نيّف وثلاث مئة سنة ولم تزل برونقها كانها عملت امس وفقدت ايضًا غير ذلك كثيرًا من الحرف مما لا يجدي تعدادهُ الاَّ الاسف

اما القسم الباقي فيكاد يكفي الدماشقة ويغنيهم عن غيرهم اذا سعوا في اتقانهِ وترويجهِ . ويقسم الى خمس حرف اولها النسج وهو اهم عندهم لكثرة العاملين فيهِ ولانهُ محور اعمال المدينة ومصدر تجارتها وثانيها الدباغة وثالثها الصياغة والحدادة ورابعها البناء ومتعلقاتهُ وخامسها الخياطة ولكلٍ منها فروع كثيرة

ولا نقدر ان نعيّن وقت دخول هذه الصنائع الى دمشق على اننا نرجح انها

كانت قبل الاسلام وان المسلمين اخذوها عن سكان المدينة الاصليين ونستنتج هذا من بعض الادلة التاريخية منها ان العرب وجدوا فيها كثيرًا من الصنائع المتقنة وقت الفتح وكانت مصنوعاتها في غاية الاتقان ايام الدولة الاموية وهي اوّل دولة اسلامية قامت في دمشق . ومنها ان كثيرًا من صنائع الدماشقة كالصياغة والبناء واهم فروع النسج لم يزل منحصرًا في الامة المسيحية . هذا ولا يمكننا الآن نقول ان العرب قد حسّنوا اكثر صنائع دمشق وادخلوا بعضها حديثًا فمن ذلك عمل القيشاني الذي لا يوجد منهُ ما هو مصنوع منذ اكثر من ست مئة سنة فلا مراء انهُ من مخترعات العرب . على ان البعض حاولوا نسبة اختراعهِ الى غيرهم وقالوا ان الروم عملوا ما يشبههُ وهو الفسيفساء البلورية الموجودة في الجامع الاموي وفي كنيسة بيت لحم الكبيرة وفي قبة الحرم الاقصى بالقدس الشريف . وذلك مردود لان بين الفسيفساء والقيشاني بونًا عظيمًا في الجوهر والصنعة . وما زالت صنائع دمشق تزداد حسنًا وانتشارًا الى ان فتحها تيمور الفاتك في ربيع الآخر سنة ٨٠٣ هجرية فامّن اهلها وقبِلَ ما قدّموهُ لهُ من نفائس الهدايا ممّا يصنع في مدينتهم ثم نكث ايمانهُ بعد عهدهِ واطلق العنان لرجالهِ فنهبوا المدينة وعثوا فيها واثخنوا في اهلها واضرموا النار في ارجائها . اما الصنائع فكانت مصيبتها مضاعفة لانهُ لم يكتفِ بما لحقها من الضرر بخراب المدينة بل اختار كل من كان ذا شهرة فيها واخذهُ معهُ لمّا قام عنها . وقد ذكر ذلك جماعة من المؤرّخين منهم صاحب كتاب عجائب المقدور اذ يقول "وبعد ان امست النار تلعب بانحاء المدينة وتهلك ابنيتها الحسنة الجميلة سار تيمور عنها يوم السبت في ٣ شعبان سنة ٨٠٣ قاصدًا الجهة الشمالية التي منها اتى وقد اجلى معهُ بعض الاعيان واصحاب الفضل وكل ماهر بفن من النساجين والخياطين والذين يصنعون السيوف البواتر من اشتهرت بهم دمشق". وبما ان تيمور اجلى احذق العملة اقتصر الصنّاع بعدهم على التقليد وكانت صنائعهم تنحط جودةً وقيمةً بتوالي الزمان ولكنها بقيت في المرتبة الاولى بالنسبة الى صنائع سورية

اما صنعة النسج فحافظوا عليها كل المحافظة لشدة لزومها وكثرة دخلها واتساع متجرها ولاسيما في الايام السالفة قبل ان انتشرت البضائع الافرنجية في بلادنا . وبقيت صناعة نسج الحرير على غاية الاتقان مع انهُ لم يحصل تحسين في آلاتها وسبب ذلك انحصارها في الامة المسيحية التي لا املاك لها بل تعيش من صنائعها ورخص الحرير في الايام السالفة واقتصار الاهالي على استعمال منسوجاتهم

اما الآن فقد نكبت صنائع دمشق اعظم نكبة ولاسيما صنعة النسج لسبب غلاء الحرير وكثرة انتشار البضائع الافرنجية مع عدم متانتها . وهذا مما دعا الحاذق السيد عبد المجيد الاصفر ان يقلد الالاجه بالغزل ليتمكن ابناء الوطن من استعمالهِ ولضيق ذات يدهِ انضم الى السيد حسن الخانجي فامدَّهُ وبعد الجهد نال مرادهُ وراج عملهُ بين الخاص والعام واقتدى بهِ بعض العملة وزادوا عملهُ اتقانًا فاضحى نسج الديما صناعة مهمة يتعيش بها الوف . ومنذ نحو عشرين سنة استنبط رجل من بيت مرتضي شكلاً جديدًا منقوشًا نقشًا جميلاً فراج كثيرًا ثم تبعهُ السيد درويش الروماني وقلّد القلاووظ الافرنجي المعرّق بمساعدة الخواجه جرجي ماشطه على ان النساء ابينَ لبسهُ لانهُ غير مشرَّف بوسام افرنجي فعدل عن عملهِ . ومنذ مدة وجيزة رأى الحاذق الخواجه يوسف الخوام انصباب القوم على لبس البنطلون واحتياجهم الى نسيج خفيف يناسب الصيف فغيَّر وزاد في نول الديما واتى بنسيج احسن من النسج الافرنجية وارخص فنال ثناء الجميع ولو اهتمَّ جميع الصناع اهتمامهُ في اصلاح صنائعهم لفازوا فوزهُ واغنوا البلاد عن النسج الافرنجية في برهة قليلة

اما انوال النسج فقد قلَّ عددها في وقتنا الحاضر عمَّا كان في بداءة هذا الجيل وما بقي منها فهو ١٦٠٠ نول الاجه و٦٥٠ قطني و٢٢٠٠ ديما و١٥٠ شالات حرير وشالات غزل و٢٥٠ كفيات حرير وكفيات غزل و٥٠ زنار طرابلسي حرير وزنار طرابلسي غزل و٥٠ فوط وملاية حرير وغزل وبوشيه الخ و٣٠٠ كريشه وهرمزي وسلطانية ومجتمع هذه الانوال ٥٢٥٠ نولاً

وهذه الانوال مع ما يتعلق بها كافية لتشغيل ستة عشر الف نسمة

اما صاغة دمشق فلهم اطول باع في صنعتهم وكذلك الدباغون ويبلغ عددهم نحو خمس مئة نسمة واما النجارون فقد نجحوا نجاحًا مهمًا في صنائعهم في الايام المتاخرة حتى ضارعوا الاعمال الاوربية وفاقوها اتقانًا وكذلك البناؤون والنحاتون والسرجيون واما الحدّادون فاعمالهم متأخرة

وسنة ١٨٦٠ اجتمع بعض الاعيان وعملوا كرخانة تدير آلاتها المياه وانفقوا عليها مالاً جزيلاً على انهُ لعدم حسن غزلها توقف حالها مدّة فتناقص ثمن اسهمها ولكن في المدة المتاخرة صار تشغيلها ويلزمها كل يوم من القطن نحو ستين رطلاً

وفي دمشق صنائع كثيرة اعرضنا عن ذكرها اكتفاء بما ذكر

تجارتها

نجحت تجارة دمشق في الازمنة الغابرة اعظم نجاح وازدادت تقدمًا بعد سقوط تدمر وتحولت تجارة الهند اليها وجمعت بين متجر اوربا واسيا لحسن مركزها فصبت فيها انهر الثروة وتكفل موقعها الحسن مع الصوالح التجارية ان يعيداها عامرة بعد كل بلية تحيق بها ومصيبة تدهمها حتى اصبحت مع كبر سنها وعظم شيخوختها كعروس تنجلي بين مدائن سوريا وبما انها باب الحجاز كان كل سنة يتقاطر اليها الحجاج افواجًا من بلاد العجم وبر الاناضول والروملي والعراق وغيرها فتروج تجارتها على انهُ منذ انتصاف هذا القرن اخذت تنحط انحطاطًا سريعًا لان قوات خارجية ضادتها وتغلبت على مركزها التجاري وسلبتهُ واوّل نكبة دهمتها تسببت عن سير سفن البخار في البحار فخسرت تجارتها البرية مع الاستانة والروم ايلي وبر الاناضول وغيرها وتحوّل ذلك الى المواني البحرية وعندما فتحت ترعة السويس حلّت بلية عظمى وطامة كبرى على تجارة دمشق لانها سلبت كل ما بقي لها من التجارة البرية وفتحت بابًا قريبًا للحجاز فامتنع الحجاج عن الاتيان اليها فخسرت جداول الذهب الغزيرة التي كانوا يسكبونها بها ذهابًا وايابًا حيث كان ياتيها كل سنة ثمانية آلاف ونيّف ويتجهزون منها للحجاز وفي ايابهم يتجهزون

منها الى بلادهم وياخذون البضائع والاقمشة اما هدايا واما للتجارة واذا انفق كل حاج ٥٠ ليرة يكون ما ينفقهُ الحجاج سنويًّا اربع مئة الف ليرة ولا يخفى كم كانت تنتفع دمشق من هذه المبالغ وقد كان كثيرون من اهلها من ذوي العيال الكبيرة الذين لا ثروة عندهم يتعيشون من البيع بالامانة للحجاج او من انزال البعض في بيوتهم . وقد كملت في هذه السنة اضرار ترعة السويس بتجارة دمشق لان ما بقي لها من تجارة العراق فُتح لهُ طريق على السويس فتحوَّل الى مواني سوريا

ومع هذه الاضرار التجارية التي دهمت تجارة هذه المدينة لم يزل لها تجارة متسعة بمنسوجاتها وغيرها مع داخلية المملكة العثمانية وتجارة قليلة مع الممالك الاجنبية اما ما يصدر عنها من المنسوجات الى الاستانة وازمير ومصر وبغداد وحلب وارمينيا وجهات سوريا وانحاء المملكة العثمانية فيبلغ مبالغ عظيمة وفضلاً عنهُ يصدر عنها الى جهات سوريا كثير من العبي وادوات الخيل والحبال والمواد اللازمة للزراعة والمشمش والقمردين وغير ذلك وما يصدر عنها الى اوربا فهو الصوف والخرق والعظام وبزر المشمش ولها تجارة واسعة مع اهل حوران في الحنطة وغيرها ويصدر عنها كل سنة جانب عظيم من الطحين والبرغل الى بيروت

اما وارداتها فكثيرة جدًّا كالاواني والادوات والغزل والمنسوجات الحريرية والصوفية والقطنية والكتانية والدودة والنيل والارز والسكر والقهوة وغير ذلك مما يطول شرحهُ

فصل

في اطوار الدماشقة وبعض عوائدهم

الدماشقة قوم امناء ذوو شهامة وناموس ودعة ومؤانسة رقيقو الطباع حسنو المعاشرة سليمو النية والطوية كرماء يحبون الغرباء ويكرمونهم ويميلون الى السلام ويرغبون في البسط والانشراح ولو لم يكن في دمشق بعض الاشقياء الذين يسوّدون اسم مدينتهم بما يفعلونهُ من الجرائم لساغ ان نقول بان كل اهالي دمشق في مقدمة السوريين في حسن الاخلاق

ملابسهم * كان اهالي دمشق في الايام السالفة يلبسون الملابس الضخمة ويتعمّمون رجالاً ونساء بالعمائم الكبيرة جدًّا وقد اشبهت ملابسهم وقتئذٍ في اكثر الاشياء ملابس الاكراد في وقتنا الحاضر ولكنهم منذ ايام ابرهيم باشا المصري اخذوا يغيرون زيهم حتى صار لطيفًا حسنًا يوافق طباعهم . وفي وقتنا الحاضر يلبس الرجال القنابيز ويتمنطقون فوقها بشالة او زنار حريري اوغير ذلك ومنذ مدة ليست بطويلة اعتاد بعضهم على التسرول وبعضهم لبسوا البنطلون كالافرنج . واليهود والنصارى وبعض المسلمين يلبسون على رؤوسهم الطرابيش الاسلامبولية واكثر المسلمين يتعمّمون بعمائم صغيرة لطيفة من قماش الاغاباني وكانوا منذ عشر سنين يلبسون الطيلسانات الطويلة فوق ملابسهم ولكنهم قد اخذوا يقلعون عن ذلك ويعتاضون عنهُ بالبالطات وكان قبلاً من الامور المعيبة ان يطلق الرجل شعر راسهِ واما الآن فتغير الحال

اما النساء فتكاد تكون ملابسهنَّ واحدة وقد اقلعنَ عن الملابس القديمة بالتمام حتى لم يعد لها اثر وعوضًا عن تلك الربطات (عمائم كبيرة) التي كانت توضع على الراس اضحت رؤوسهنَّ مكشوفة او مغطاة بقماش رقيق جدًّا ومنذ مدة اخذنَ يتبعنَ الازياء الافرنجية فصرت تراهنَّ كل يوم بزي جديد على انهنَّ مع كل اجتهادهنَّ لا يقدرنَ ان يرتّبنَ ملابسهنَّ كالنساء الافرنجيات وقد تولّد فيهنَّ بغض الاقمشة الوطنية وصرنَ يحسبنَ كل قماش غير موسوم بوسام افرنجي كشيطان رجيم على انهُ في المدّات المتأخرة لشدة الضيق الذي صادفهُ رجالهنَّ تغيرت اميالهنَّ قليلاً واعتبرنَ منسوجات الوطن بعض الاعتبار وصرنَ يلبسنها. ولا تخرج امرأة من بيتها بدون ازار ويسبلنَ غالبًا على وجوههنَّ المناديل لكي لا يراهنَّ احد

الخطبة والاعراس * اختلفت عوائد اهل دمشق في الخطبة والاعراس فللمسلمين عادة وللنصارى اخرى ولليهود اخرى

عادة المسلمين . لما كانت عوائد المسلمين لا تسمح للنساء ان يظهرنَ على

الرجال حتى ولو كانوا من اقاربهنَّ لزم عن ذلك انهُ اذا قصد رجل ان يتزوَّج يجتمع بعض نساء عائلتهِ المتقدمات في السن ويذهبنَ ويفتشنَ لهُ على عروس فلما يجدنَ ما يناسبهُ يأتينَ ويخبرنهُ فيرسل بعض رجال عائلتهِ ليخطبوها لهُ من اهلها وعندما يقر القرار بين الخاطبين على المهر الذي يكون للعذراء من ٢٥٠ غرشًا الى ٥٠٠ ليرة يكتب الكتاب (العقد) في بيت اهلها بحسب الشريعة ويقدم لمن يحضر من الخاطبين والشهود شربات بسكر صيفًا وشراب القرفة شتاء ويعين وقت الزفاف في تلك الجلسة التي تكون غالبًا في الليل . ومن ثم يشرع اهل العروس في تجهيزها . اما جهازها فهو اثاث لبيت رجلها و بعض ملابس خصوصية لها وقبل الزفاف بيومين ينقل الحمالون الجهاز الى بيت العريس على رؤوسهم وظهورهم ليراهُ الناس في الاسواق والازقة و يوم الزفاف يذهب نساء من بيت العريس ويأتينَ بالعروس نهارًا مصحوبة ببعض نساء عائلتها وفي المساء تقوم الافراح في بيت العريس ويأتي اصحاب العريس واقاربهُ ويتعشون ويذهبون بهِ الى بيتٍ آخر ويلبسونهُ لباس العرس وفي وقت العشاء يأتون بهِ باحتفال والشبان امامهُ يضجون ويهللون ومعهم المشاعل ولما يصلون الى باب الدار تستلم العريس الماشطة (مدبرة العروس) وتسير بهِ الى الحجرة المعدة لهُ وهو مطرق بنظرهِ الى الارض وهناك تكون عروسهُ مزينة تنتظرهُ . اما افراح العرس فهي للنساء وغالبًا تكون سبعة ايام . وفي صباح ليلة العرس يقدم العريس الى عروسهِ هدية بحسب اقتدارهِ يسمونها صبحة ويخرج الى السوق مالئًا جيبهُ ملبسًا يهديهِ لمن يهنئهُ ويبارك لهُ

عادة النصارى . كان النصارى في ما سلف كالمسلمين لا تظهر نساؤهم على رجالهم فكان اختيار العروس عندهم كاختيار المسلمين وهذه عادة مضرة جدًّا بالنظر الى الامة المسيحية التي لا طلاق عندها وكم ابنة شنيعة المنظر سيئة الطباع تزوجت بجمال اختها لانهم كانوا يرون الخاطبات الجميلة ويبدلونها وقت العرس بالشنيعة الى غير ذلك من الاعمال المضرة بالراحة واما في هذه الايام

فقد تحسنت الحال نوعًا وصار الخطيب قادرًا ان يختار الفتاة التي تناسبهُ وهي تكون بالخيار ان تقبلهُ او ترفضهُ

اما هدية الخطبة في هذه الايام فليست مربوطة بشرط او عادة فان منهم من يعطون الخطيب ومنهم من ياخذون منهُ . اما العرس فكان منذ اربعين سنة سبعة ايام متوالية وكان ياتيهِ المدعوون بهدايا يسمونها حمولة واما في وقتنا الحاضر فقد أُلغي ذلك بالتمام ثم صار ثلثة وبعد سنة ١٨٦٠ م صار يومًا وليلة وفي هذه السنين المتاخرة صار ليلة واحدة

العرس . يُدعَى المدعوون قبل العرس بسبعة ايام باوراق وياتون بيت العريس يوم الاحد مساءً وتاخذ آلات الطرب تعزف الى الساعة الرابعة او الخامسة فيذهبون رجالًا ونساءً لياتون بالعروس والشموع في ايدي الرجال (قد كان لا يسمح للعذارى ان يذهبنَ لياتينَ بالعروس على انهُ منذ اربع سنين سمح لهنَّ بذلك) وحين يصلون الى بيتها يجدون الباب مغلقًا فيطرقونهُ ولا يُفتح لهم بسهولة وهذه عادة قديمة ومعناها ان العروس عزيزة على اهلها وعندما يسمحون ويفتح الباب يدخل الاشبين اولًا (وكيل العريس) ويكرم البواب بدراهم ثم يدخل الناس فيستقبلون احسن استقبال وبعد ان يلبثوا نحو ساعة ببسط وانشراح وشرب يوزع وكيل العريس شمعًا على الرجال الذين في بيت العروس ثم تغطى العروس بازار ويذهبون بها الى بيت العريس بالاغاني والتراتيل والرجال تتقدم النساء كما اتوا وحينما يدخلون البيت تلبث النساء مع العروس في حجرة وحدهنَّ وبعد هنيهة تصير صلاة الاكليل وبعد ذلك يحيط النساء بالعروس ويجلينها برقص وغناء والشموع بايديهنَّ ثم يذهبنَ بها الى حجرة المائدة وتكون عليها المآكل الفاخرة من الحلوى والفواكه وما شاكل وبعد ان ياكل جميع الحاضرين يذهب بالعروس الى حجرة معدَّة لها ولعريسها ثم ياتونها بعريسها وياخذون بالانصراف ولا يبقى من المدعوين الَّا بعض النساء اللواتي هنَّ اشد قربًا للعريس مع والدة العروس وفي صباح ليلة العرس يقدم

العريس هدية لعروسهِ بحسب مقدرتهِ . وفي يوم البطالة الاول بعد العرس يجتمع الرجال من اهل العروس وياتون بيت العريس لزيارة عروسهم والتبريك لها وهذه الزيارة يسمونها سلامًا وتُصرف غالبًا بالاغاني والبسط

وفي اوَّل بطالة بعد هذه الزيارة يذهب العريس وعروسهُ واهلهُ معهُ الى بيت عروستهِ ليلاً لرد الزيارة فتصير ليلة ذات بسط وحظ وفي نهايتها يضعون ماكلاً ومشربًا ثم ينصرف الجميع

عادة اليهود . نظرًا لما عند اليهود من الحرية الكاملة اضحى امر اختيار العروس على الشاب من اسهل الامور على انهُ عندما يقصد ان يخطب فتاة يسأل اهلها عما لها من المال اوما يريدون ان يهبوها فان وافقهُ خطبها والاَّ فلا ويعطي العريس عروستهُ علامة الخطبة في الجنينة غالبًا اما اعراسهم فممزوجة من عوائد النصارى والمسلمين ولذلك لالزوم الى سردها

عوائد الدماشقة في احزانهم

عندما يحل المصاب في بيت ينعى اهل المتوفى واصحابهُ فياتون ويلبسون ملابس سودًا اما النساء فيحللنَ شعورهنَّ وياخذنَ في انواع النحيب وبعضهنَّ يبالغنَ في ذلك حتى يسببنَ ضررًا لذواتهنَّ واقرب الناس الى الميت يلبسون الاسود حزنًا عليهِ مدة طويلة

فصل

في حكومة دمشق ومتعلقاتها

كانت دمشق قبل سنة ١٨٦٤ مركز الايالة المنسوبة اليها على انهُ منذ تلك السنة صارت مركزًا لحكومة سوريا وفيها يقيم الوالي ومشير العرضي الهمايوني الخامس والى مجالسها تعود المسائل الاستئنافية من انحاء الولاية (الاَّ التجارية فانها تستأنف الى بيروت) وفيها مركز ضابطة سوريا ويقيم بها قناصل الدول

اما ولاية سوريا فتُقسَم الى متصرفيات والمتصرفيات الى قائمقاميات ومديريات . اما واردات خزينة الولاية فهي بحسب نشرة الحكومة سنة ١٢٨٨ﻫ

٦٧٥٤١٩٣٦ غرشًا ومصروفها ٣٢٤٩٥٨٩٣٣ فالدخل يزيد عن الخرج كثيرًا ولكن لالتزام الخزينة بالقيام بالمصاريف الحجازية وسوء الادارة الناتجة من عدم استقامة بعض المامورين وقعت الخزينة تحت ديون باهظة جدًا تبلغ نحو ٦٠٠ الف ليرة وهذه الديون تُعرَف بالسراكي وقد استدانتها من الاهلين ثم تمنعت عن دفعها فلحق الخراب باربابها ومن عرف ولاية سوريا وطاف بلادها وفحص احوال بعض مامورِيها يحكم حكمًا جازمًا بان ايرادات الخزينة لو حُفِظَت لكانت مضاعف ما يصل اليها الآن وهذه حالة تقضي بالانتباه والتيقظ فان رامت الحكومة اجراء الاصلاحات في بلادها لا يجب ان تهتم للمصاريف اللازمة لذلك لان ضبط الاموال بواسطة الرجال الامناء يوافيها بزيادة دخل تفوق ما تلتزم لزيادته في اجور مامورِيها وبزيادة العمران الذي يتبع الاصلاح يزداد الدخل لان سوريا بلاد ذات ثروة طبيعية يستبعد الحصول عليها الّا باجراء الاصلاحات اللازمة كاستقامة الحكام وحفظ النظام وما اشبه ذلك

نثريات

كل سنة في نصف شوال يسافر حج المسلمين من دمشق الى مكة المشرفة باحتفال عظيم ويرجع اليها في النصف الاخير من شهر صفر باحتفال ايضًا

في ايام رمضان وليالي الاعياد الاسلامية تزين مآذن دمشق بالمصابيح

معدل الاغنام التي تذبح بدمشق كل يوم ٢٨٠ راسًا . ومقطوعية المدينة كل يوم من الحنطة ٢٣٠٠ كيلة ومن الشعير ٥٠٠ ومن الذرة ٥٠٠

مُدَّت طريق المركبات بين بيروت والشام سنة ١٨٦٠ وكذلك التلغراف

في دمشق خمس مصابن كبيرة واحد عشر معمل نشاء و٣٢ محلاً لطبع الاقمشة واربع مناكن للاقمشة وثماني عشر مصبغة ملونة وخستخانة عسكرية. وثلاثة مسالخ. ومطبعة حجرية للعسكرية. ومطبعة اعتيادية للحكومة يطبع بها جرنال سوريا وهو الرسمي. ومطبعة حجرية للحكومة ☆ ومياه دمشق فيها خاصة لدفع مرض الجذام فلا يصيب اهل دمشق والغريب الذي ياتيها مصابًا به لا يزيد مرضهُ

الباب الثالث

فصل

في من مات بدمشق من الصحابة

ابو الدرداء الصحابي الخزرجي * ولاهُ الامام عمر القضاء بدمشق ومات بها في خلافة الامام عثمان وقبرهُ معروف بباب الصغير

اوس بن اوس الثقفي * نزل دمشق ومات بها في خلافة عثمان

بلال الحبشي بن رباح * مولى ابي بكر الصديق ومؤذن النبي . صلعم حضر مع عمر فتح القدس واختلف في محل دفنهِ فقيل دفن بحلب وقيل بداريا وقيل بدمشق بباب الصغير

سهل بن ربيع الانصاري الصحابي * سكن دمشق ومات فيها في ابتداء خلافة معاوية ودفن بمقبرة باب الصغير

شمعون الصحابي * شهد فتوح الشام وكان من كتاب دمشق وفي باب الصغير بارض الشاغور ضريح يُعرَف بشمعون فيحتمل ان يكون هو

فضالة بن عبيد الصحابي * سكن دمشق وولي قضاها لمعاوية مات بدمشق ودفن بباب الصغير

آثلة بن الاسقع * شهد فتح دمشق ومصر ثم نزل الشام ومات في خلافة عبد الملك بن مروان سنة ٨٣ ودُفن بباب الصغير وقبرهُ معروف يزار

قال الحافظ بن طولون وقبلي باب الصغير قبة بلال بن حمامة وثلاث من ازواج النبي (صلعم) وقبر فضة جارية السيدة فاطمة الزهراء وقبر ام الدرداء هولاء كلهنَّ في تربة واحدة ونقل في كتاب الاشارات في الزيارات ان قبر السيدة زينب بنت الامام علي بن ابي طالب بمقبرة باب الصغير يزار ويتبرك بهِ . وقبر سكينة بنت الحسين بتربة القلندرية داخل القبة . وقبر السيدة فاطمة ابنة الامام

علي ايضًا بمقبرة باب الصغير عليهِ بناء معروف يقصد للزيارة . والمعروف عند اهل دمشق ان قبر السيدة زينب ابنة الامام علي في تربة نسبت اليها يقال لها الآن قبر الست

ابيّ بن كعب بن قيس الخزرجي * قيل انهُ دُفن بالمدينة وقيل بدمشق وهو المشهور . قبرهُ الآن خارج دمشق قرب باب شرقي عليهِ قبة عظيمة يزار ويتبرَّك بهِ

سرحيل بن حسناء * قال الصوري في ظاهر دمشق خارج باب توما بالقرب من ضريح العارف بالله الشيخ ارسلان ضريح اشتهر انهُ ضريحهُ وفي ناحية الغور قبر عليهِ قبة اشتهر ايضًا انهُ قبرهُ وما يدرى ايها الصحيح

ضرار بن الازور الاسدي * مات بدمشق ودُفن خارج باب شرقي وقبرهُ معروف

خولة بنت الازور * اخت ضرار المذكور حضرت فتوح الشام ماتت في دمشق ودُفنت خارج باب توما بالقرب منهُ وقبرها مشهور يقصد للزيارة

اما الجهة الشمالية ففيها قبر ابي الدحداح واما غربي دمشق فلم يدفن فيهِ احد من الصحابة

(ذكر من دُفن من الصحابة في قرى دمشق)

قرية المزة غربي دمشق فيها قبر رضية الكلبي الصحابي المشهور

قرية مرانة نواحي داريا دُفن فيها تميم الداري بن اوس بن خارجة

حرملة بن يزيد الصحابي الانصاري * دُفن بالقرب من قرية جوبر

سعد بن عبادة الخزرجي الصحابي * جاء الشام ومات بها سنة ١٤ في خلافة عمر ودُفن في قرية المليحاء وقبرهُ معروف يقصد للزيارة

السيدة زينب ام كلثوم ابنة الامام علي * ماتت في الشام ودفنت في قرية راوية (هي قبر الست) وفي نهاية العشر الاول من محرم كل سنة يخرج الشيعية لزيارتها ويندبون اهل بيت النبي صلعم

مدرك الفزاري * قدم مع ابي عبيدة بن الجراح في فتوح الشام وتوفي بقرية راوية المذكورة ودُفن بينها وبين حجيرة من غوطة دمشق

ابو مرشد كنان بن يربوع * دُفن في طريق عقربا قبلي فدايا قال الواقدي مات سنة اثنتي عشرة

فصل

في ذكر من مات واشتهر ضريحهُ بدمشق من الاولياء المقربين والعلماء العاملين

ابو البيان بن محفوظ القرشي * من ابناء الطائفة البيانية المنسوبة اليهِ بدمشق كان اماماً عابداً ورعاً يعرف اللغة والنحو والفقه اخذهُ عن شيخ البطائح وكان معاصراً للشيخ ارسلان والياً له وله تآليف كثيرة وتعاليق وطرق واذكار واشعار ربانية وزهدية وكان هو والشيخ ارسلان مجاورين في المسجد الذي عند الباب الشرقي مات سنة ٥٥٥ ه ودُفن بباب الصغير وقبرهُ معروف يزار ويتبرَّك بهِ

ابن عساكر بن حسين بن هبة الله * هو الفخر الحافظ الكبير ابو القاسم فخر الشافعية وامام اهل الحديث الف تاريخ الشام في ثمانين مجلداً وله تآليف غير التاريخ بلغت ثمانية وعشرين مصنفاً توفي سنة ٥٧١ ه ودُفن بباب الصغير شرقي الحجرة التي فيها معاوية

ابن قيم الجوزية الحنبلي * هو محمد بن ابي بكر بن ايوب الزرعي ثم الدمشقي الفقيه الاصولي النحوي المفسر المفنن في علوم كثيرة وله مصنفات عديدة في فنون كثيرة مات سنة ٧٥١ ودُفن بمقبرة باب الصغير تجاه المدرسة الصابونية وبني على قبرهِ قبة

ابن رجب شيخ الحنابلة والمحدثين * هو زين الدين بن رجب الامام الاصولي المحدث الفقيه والواعظ الشهير كان اماماً في الفنون وله مصنفات كثيرة منها شرح البخاري وشرح الاربعين النووية وطبقات الحنابلة والقواعد ورياض الانس وغيرها مات بدمشق ودفن بباب الصغير عند قبر معاوية

ابرهيم الناجي شيخ المحدثين بدمشق * كان اماما ورعا عارفا بالصحابة ورجال الحديث مات بدمشق ودفن بباب الصغير غربي معاوية وقبره على الطريق

احمد ابو العباس المغربي * شيخ المالكية بدمشق كان اماما بارعا مات بدمشق ودُفن بباب الصغير بين بلال الحبشي والشيخ حماد

اسمعيل بن علي المفتي المعروف بابن الحائك * العالم الاصولي انتهت اليهِ الرئاسة والافتاء مات سنة ١١١٣ ودُفن بباب الصغير شرقي اوس الثقفي

بدر الدين بن جمال الدين بن مالك * المشهور العالم العلامة النحوي اللغوي الصرفي المحقق الشافعي مات بدمشق سنة ٦٨٦ ودُفن بباب الصغير

الحافظ الذهبي * شمس الدين صاحب التاريخ المشهور اخذ الفقه عن الكمال الزملكاني وابن قاضي شهبة مات سنة ٧٤٨ ودُفن بباب الصغير وتاريخ وفاتهِ لفظة الذهبي

الشيخ عمر بن حسن الخرقي * من تابعي اصحاب الامام احمد ومن علماء مذهبهِ المعتبرين ومن المعوَّل عليهم بالفقه كان زاهدًا عالمًا قانعًا بالقليل رحل من بغداد وسكن بدمشق فراى يومًا منكرًا فانكرهُ ونهى عنهُ فقتل لاجل ذلك ودُفن بباب الصغير مقابل الجراح

عبد الرحمن بن ابرهيم بن سباع المفتي * هو تاج الدين المصري الدمشقي العالم العلامة المعروف بابن فركاح تفقه وبرع في مذهب الشافعي وهو شاب وكتب في الفتاوي وكانت تاتيهِ من الاقطار وتصانيفهُ كثيرة مات بدمشق سنة ٦٩٠ ودفن بباب الصغير

عبد الله بن عمر العجلوني الحنفي النحوي * فاق اهل عصرهِ في علم النحو ولد في عجلون ورحل الى دمشق واشتغل في العلوم ودرس وافاد وانتفع بهِ الجم الغفير مات سنة ١١١٣ ودفن بباب الصغير شرقي بلال الحبشي

محمد علاء الدين بن علي الحصني الاثري الحصكفي الفقيه الواعظ المحدث المفتي الحنفي لهُ تآليف في الفقه وغيرهِ منها الدر المختار في شرح تنوير

الابصار وشرح الملتقى الذي شاع ذكرهُ في الامصار وشرح المنار في الاصول والقطر في النحو واختصر الفتاوي الصوفية ولهُ تعليق على تفسير البيضاوي ولهُ مؤلفات أُخر غير هذه توفي سنة ١٠٨٨ ودفن بمقبرة باب الصغير

كعب الاحبار (ض‌ه) ✲ من اكابر المحدثين روي عنهُ اشياء كثيرة وعولوا عليهِ وحصل لهُ اعظم اعتبار عند المسلمين قال الهروي مات في دمشق ودفن بباب الصغير

محمد اليتيم ✲ العارف بالله الشافعي الصوفي مات سنة ١٠٠٥ ودفن بباب الصغير بقرب نصر المقدسي

محمد بن محمد بن سلطان الحنفي ✲ شرح الكنز ومات بدمشق سنة ٩٠٥ ودفن بباب الصغير بتربة القلندرية

نصر المقدسي ابن ابرهيم النابلسي ✲ شيخ الشافعية بالشام مات سنة ٤٩٠ ودفن بباب الصغير بجانب ابي الدرداء (١)

سيدنا ارسلان ✲ ويقال لهُ الشيخ رسلان هو ابن يعقوب بن عبد الرحمن الجعبري مات سنة ٥٤٠ ودفن بمسجد خالد بن الوليد وقبرهُ معروف يقصدهُ الناس للزيارة ويتبركون بهِ وعند الشيخ ارسلان مقبرة كبيرة دفن بها بعض من اهل الفضل والصلاح

تقي الدين بن الصلاح ✲ هو عثمان بن عبد الرحمن الكردي الشهرزوري كان مفتيًا في مذهب الشافعية امامًا في التفسير والحديث والفقه متجرًا في الاصول مات في دمشق سنة ٥٤٢ ودفن بمقابر الصوفية بطرفها الغربي على الطريق

(١) يقال ان بباب الصغير قبور جملة من اهل البيت وغيرهم كقبر سهل بن حنظلة وقبر ام الحسن بنت حمزة بن جعفر الصادق وقبر علي بن عبد الله بن عباس وقبر زوجتهِ ام الحسن بنت جعفر بن الحسن بن الحسين بن فاطمة الزهراء وقبر خديجة بنت زين العابدين هولاء في تربة واحدة وقبر سكينة بنت الحسن وقبر محمد بن عمر بن علي بن ابي طالب وبها قبور كثيرة لم تعرف لما قيل بان مقبرة باب الصغير حرثت وزُرعت نحو مئة سنة

ابن عساكر * هو الفخر شيخ الشافعية بالشام كان زاهدًا عابدًا منقطعًا للعلم والعبادة مات بدمشق سنة ٦٢٠ ودفن بمقابر الصوفية مقابل قبر ابن صلاح

ابرهيم بن عبد الرزاق * الحنفي المحدث الفقيه شارح القدوري مات بدمشق سنة ٨٠٩ ودفن بمقابر الصوفية

ابرهيم بن سليمان الحموي * من علماء الحنفية شرح الجامع الكبير في ست مجلدات وشرح المنظومة في جلد ين ولم يُعرَف تاريخ موته قال العدوي مات بدمشق ودفن بمقابر الصوفية

مسعود بن محمد النيسابوري * الامام البارع الشافعي انفرد برئاسة الشافعية وكان فصيحًا بليغًا مات سنة ٥٧٨ ودفن بمقبرة الصوفية

احمد بن عبد الحليم بن عبد السلام * المعروف بابن تيمية الحنبلي ولد سنة ٦٦١ وبرع وافتى ودرس وصنف التصانيف البديعة الكثيرة سرد الامام صلاح الدين الصفدي اسماها في ثلاث اوراق كبار وجرت له محن كثيرة الى ان توفي مسجونًا بقلعة دمشق سنة ٧٢٨ ودفن بمقبرة الصوفية

يوسف بن عبد الرحمن المعروف بالحافظ المزّي كان امامًا عالمًا علّامة ولد سنة ٦٥٠ وله تصانيف جميلة منها تهذيب الكمال في اسماء الرجال في ثلثة عشر مجلدًا واطراف الكتب السنية في خمسة مجلدات وله امال وفوائد وشعر حسن توفي سنة ٧٤٢ ودفن بمقبرة الصوفية غربي قبر ابي تيمية

عماد الدين بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي كان عالمًا بالاصول والحديث وصنف التصانيف البديعة مات سنة ٧٧٤ ودفن بمقبرة الصوفية عند شيخو ابي تيمية

ابو شامة شهاب الدين عبد الرحمن بن اسمعيل المقدسي ثم الدمشقي الامام العلامة الفقيه الشافعي المقري النحوي المحدث كتب الكثير من العلوم وصنف فيها واتقن الفقه ودرس وافتى وبرع في العربية وكان كثير التواضع

مات سنة ٦٦٥ ودفن بباب الفراديس على يسار الداخل من الباب الى مرج الدحداح

الحسن بن محمد البوريني الشافعي * كان فريد وقتهِ في الفنون صنف التصانيف البديعة منها حاشية على المطول وشرح ديوان ابن الفارض وتحريرات على تفسير البيضاوي وله تاريخ عظيم وله رحلة حلبية ورحلة طرابلسية وله رسائل كثيرة وجمع ديوانًا من شعرهِ وكان عالمًا محققًا ذكي الطبع متين الحفظ مات سنة ١٠٢٤ ودفن بمقبرة باب الفراديس

ابرهيم بن منصور المعروف بالفتال الدمشقي الحنفي العالم المحقق والماهر المدقق شيخ مشايخ الشام له تعليقات منها حاشية على شرح القطر للفاكهي وتحريرات على مواطن من التفسير وكان ينظم الشعر الحسن مات سنة ١٠٩٨ ودفن بمقبرة الفراديس

ايوب بن احمد بن ايوب الحنفي الخلوتي الصالحي * له تحريرات ورسائل لا يمكن حصرها واكبر ما روي له رسالتهُ التي ساها ذخيرة الفتح ودونها عقيلة التفريد وخميلة التوحيد وذخيرة الانوار وسيرة الافكار جمع بين علم الشريعة والحقيقة ولد سنة ٩٩٤ ومات سنة ١٠٧١ ودفن بباب الفراديس

عبد الله بن محمد بن هبة الله بن ابي عصرون * هو قاضي القضاة شرف الدين التيمي الدمشقي كان امام الشافعية في عصرهِ واليهِ المنتهى في الفتاوي والاحكام (وكان من اكبر تلامذتهِ الفخر بن عساكر) مات سنة ٥٨٥ ودفن بمدرستهِ المعروفة بهِ قرب قلعة دمشق وقبرهُ يزار

الشيخ الاكبر محيي الدين بن العربي بن محمد بن احمد بن عبد الله امام الصوفية ورب طريقهم ولد بمرسية سنة ٥٦٠ وكان مسكنهُ في دمشق وظهورهُ فيها وبها نشر علومهُ توفي في دمشق سنة ٦٣٨ ودفن بسفح قاسيون وقد اعتنى سلاطين آل عثمان باظهار قبرهِ وبنى عليهِ المرحوم السلطان سليم خان المدرسة العظيمة وبجوارها الجامع المعمور ورتب له الاوقاف الحسان وقد الف بمناقب

الشيخ محيي الدين ومواهبهِ الامام السيوطي مولفًا جليلاً سماهُ تنبيه الغبي على تنزيه العربي والف فيهِ ايضًا الشيخ عبد الغني النابلسي مؤلفًا حسنًا سماهُ السر المختبي في ضريح ابن العربي والف فيهِ ايضًا كتابًا جليلاً سماهُ الرد المتين على منتقص العارف محيي الدين. والقوم لا ينقطعون عن زيارة الشيخ محيي الدين ويعتبرونهُ من اعظم الاولياء وفي كل يوم جمعة ترى مئات من الناس حول ضريحهِ للصلاة والزيارة

ولدهُ محمود * المدعو سعد الدين ولد بملطية سنة ٦١٨ وتوفي بدمشق سنة ٦٥٠ ودفن عند والدهِ بسفح قاسيون

العلامة تاج الدين السبكي * صاحب الطبقات جمع الجوامع والتصانيف المفيدة وتولى قضاء الشام وخطابة الجامع الاموي مات بالطاعون سنة ٧٧١ ودفن بقاسيون بتربة السباكيين المشهورة بهم

الشيخ ابو عمر الدمشقي الصالحي * هو محمد بن احمد بن قدامة المقدسي الزاهد جمع بين المعارف الالهية والعلوم الشرعية وكان كثير الصلاة ويجمع الحطب ويحملهُ للارامل والايتام وكان مسموع الكلمة عند رجال الدولة وبنى المدرسة المعروفة بهِ بالصالحية مع مصنعها مات سنة ٦٠٧ ودفن بالتربة المعروفة بهِ بسفح قاسيون

الامير الكبير ركن الدين * قال الذهبي كان عفيفًا دينًا كثير الصدقات مات سنة ٦٢١ ودفن بجبل قاسيون

قاضي القضاة بن خلكان * احمد بن محمد بن خلكان صاحب التاريخ المشهور المسمى بوفيات الاعيان كان امامًا عالمًا فقيهًا نحويًا مات سنة ٦٨٠ ودفن بسفح قاسيون مقابل الرباط الناصري والعادلية

عبد الرحمن بن ابي بكر بن داود * العالم الرباني القادري صنّف عدة مؤلفات منها نزهة النفوس والافكار في خواص النبات والحيوان والاحجار ومنها تسلية الواجم في الطاعون الهاجم . مات سنة ٨٥٦ وقبرهُ مشهور بُزَّار

٢٠٢ القاضي محمود ابو عبد الله بن مالك صاحب الالفية * هو جمال الدين محمد

بن عبد الله بن مالك الامام العلامة الاوحد الطائي النحوي المالكي حين كان بالغرب والشافعي حين انتقل الى الشرق ولد سنة ٦٠٠ كان اماماً في القراءة وصنّف فيها قصيدة دالية وكان في اللغة اليه المنتهى واما النحو والصرف فبلغ فيهما الغاية القصوى اقام في دمشق يصنّف ويشتغل بالجامع والتربة العدلية وقدم القاهرة ثم رحل الى دمشق وكان ينظم الشعر مات سنة ٦٧٢ ودفن بسفح قاسيون وكان ذا وقار ودين وصلاح

ابرهيم بن احمد الموصلي * من ائمة الحنفية شرح القدوري ومات سنة ٦٧٥

علي بن خليل الحنفي * الاديب الفقيه عرف بابن قاضي عساكر مات سنة ٦٥١ ودفن بسفح قاسيون ومن نفيس شعره قوله

تطلّبت في الدنيا خليلاً فلم اجد　　وما احدٌ غيري لذلك واجدُ
فكم مضمر بغضاً يريك محبةً　　وفي الزند نار وهو في اللمس باردُ

الشيخ عبد الرحمن العيني * نسبة الى راس العين ولد بصالحية دمشق سنة ٨٢٧ وتصانيفهُ كثيرة جليلة شرح الكنز والبخاري والفية العراقي والشمسية والدرر للقونوي والوشاح في المعاني والفية ابن مالك والتهذيب للسعد والجزرجية واختصر التلخيص وشرحهُ ونظم اللغة التركية في قصيدة سماها الدرة المضية مات سنة ٨٩٣ ودفن بتربة الجامع الجديد بصالحية دمشق

الشيخ ابو مسعود الولي مات سنة ٦٠٥ ودفن بسفح جبل قاسيون

العلامة جمال الدين محمد بن احمد الشريشي صاحب التصانيف مات سنة ٧٦٩ ودفن بسفح قاسيون • ولدهُ بدر الدين محمد بن محمد امام اهل اللغة في عصرهِ مفتي الشام المعروف بابن الشريشي شارح المقامات وغيرها من الكتب البديعة مات سنة ٧٧٠ ودفن بجانب والدهِ عند جامع الافرم

ملخص ترجمات بعض مشاهير علماء القرن الثاني عشر واوائل هذا القرن اعني بهِ القرن الثالث عشر

الشيخ محمد بن الشيخ عبد الرحمن الكزبري الدمشقي الشافعي مدرس

الحديث تحت قبة النسر في الجامع الاموي ولد في ١٢ شعبان سنة ١١٤٠ وتوفي في ٢١ ربيع الاوّل سنة ١٢٢١ ودفن بمقبرة باب الصغير . الشيخ عبد الرحمن الكزبري والد المقدم ذكرهُ هو محمد بن زيد الدين الدمشقي الشافعي ولد في صدور سنة ١١٠٠ وتوفي يوم الجمعة في ١٧ محرم سنة ١١٨٥

المنلا علي بن محمد بن سالم التركماني امين الفتوى بدمشق ولد سنة ١١٠٢ وتوفي سنة ١١٨٢ ودفن بمقبرة الحقلة عند داره بميدان الحصا

الشيخ احمد بن عبد الله بن احمد البعلي الاصل الدمشقي المولد كان زاهدًا صوفيًا فقيهًا حسابيًا فرضيًا محدثًا ولد سنة ١١٠٨ ومات يوم السبت في ٦ محرم سنة ١١٨٩ ودُفِن بباب الصغير ولهُ من المؤلفات الرائقة الروض الندي في شرح كافي المبتدي والآخر الحرير بشرح مختصر التحرير ومنية الرايض لشرح عمدة كل فارض

٥ الشيخ العلاَّمة المحقق علي افندي الداغسطاني هو علي افندي بن صادق بن محمد بن ابرهيم الداغسطاني ولد سنة ١١٢٥ واتى دمشق سنة ١١٥٠ ونزل بجامع من جوامعها وقد وجهت عليهِ وظيفة في الحديث تحت القبة سنة ١١٧٣ﻫ بعد وفاة مدرسها احمد افندي المنيني ووظيفة التدريس في الفقه في المدرسة السليمانية ووظيفة التدريس في تفسير ابي السعود عند مقام سيدنا يحيى سنة ١١٨٥ وغير ذلك وتوفي في ١٣ ذي الحجة سنة ١١٩٩ ودفن بسفح قاسيون بالقرب من قبة البلخي فوق الافرم ولهُ كتابات منها ما كتبهُ على خلاصة الحساب وحاشية في الاسطرلاب وشرح حديث الرحمة وغير ذلك . اه

٦ الشيخ علي بن محمد بن علي بن سليم الشافعي الدمشقي الصالحي الشهير بالسليمي ولد سنة ١١١٣ توفي في ثاني جمادى الاولى سنة ١٢٠٠ ودفن بسفح قاسيون بالقرب من الداودية ولهُ من التآليف تكملة شرح تفسير البيضاوي للنجم عمر الرومي في سورة الاسراء وشرح على شرح غاية الاختصار لابن قاسم وشرح على نظم الاجرومية وغير ذلك

٧ الشيخ مصطفى الرحمني ولد بدمشق في ١٤ محرم سنة ١١٣٥ وكان من علماء عصره وسنة ١١٨٧ جاور في المدينة وتوفي بها سنة ١٢٠٥

٨ الشيخ محمد ابو الفتح العجلوني الاصل الدمشقي المولد كان عالمًا ولد في رمضان سنة ١١٢٨ وتوفي سنة ١١٩٣ ودفن بباب الصغير وله تصانيف جليلة

٩ السيد عبد الرزاق البهنسي ولد سنة ١١٣٥ وكان شاعرًا اديبًا بارعًا فقيهًا توفي في ٢ رجب سنة ١١٨٩ ودفن بتربة مرج الدحداح

الشيخ احمد العطار الحمصي الاصل الدمشقي المولد حج اربع مرات ولما اتى بونابارتي عكاء تجند مع اولاده لمحاربة الفرنسيس وحرض الناس على القتال . توفي في ٩ ربيع الثاني سنة ١٢١٨ ودفن بتربة مرج الدحداح وكان عالمًا ماهرًا

الشيخ امين الصابحاني ولد بغزة هاشم سنة ١١٣٣ تعلم الفقه والفلك بالقاهرة فبرع جدًا جاء دمشق والف رسالة في الربع المقنطر واخرى في العروض وغير ذلك توفي بدمشق في ١٧ شعبان سنة ١١٩٧

الشيخ مصطفى اللقيمي الملقب باسعد الشافعي ولد بدمياط سنة ١١٠٥ وكان عالمًا بارعًا سكن دمشق وتوفي فيها سنة ١١٧٨ وقبل موته نظم تاريخًا لقبره وهو

قبرٌ بهِ من اوثقتهُ ذنوبهُ   وغدا لسوء فعالهِ متخوفا
قد ضاع منهُ عمرهُ ببطالةٍ   والعيش منهُ بالتكدر ما صفا
ماذا ثوى قبر اللقيمي ارخوا   مستمنح للعفو اسعد مصطفى ١١٨٧

ولهُ من المؤلفات الرحلة المسماة بموانح الانس بالرحلة لوادي القدس ورسائل في الحساب والآداب وديوان شعر وغير ذلك ودفن بتربة الدحداح

الشيخ محمد الجاويش ولد في دمشق ونشأ على محبة العلم فلازم العلماء فصار عالمًا درّس في الجامع الاموي فافاد توفي سنة ١١٩١ ودفن بتربة باب الصغير

الشيخ محمد العجبي الحموي الاصلي ولد في دمشق وكان خطيبًا في جامع سنان باشا عاش نيف على خمسين سنة وتوفي سنة ١١٧٤ ودفن بتربة باب الصغير

الشيخ محمد امين بن عمر بن عبد العزيز بن احمد بن عبد الرحيم بن عابدين

والد بدمشق سنة ١١٩٨ وتوفي في ٢١ ربيع الثاني سنة ١٢٥٢ وعمرهُ اربع وخمسون سنة واخذ عن علمائها وتفقه بالشيخ شاكر العمري العقاد واخذ عنهُ العلوم العربية والعقلية وعن غيره باقي العلوم وانتفع بهِ خلق كثير لم يزل بعضهم احياء . منهم الشيخ محمد الحلواني مفتي بيروت والشيخ عبد الغني الميداني شارح القدوري امين الفتيا بدمشق سابقًا والشيخ حنين الرسامة والشيخ عبد القادر شارح العلائي والشيخ محمد افندي الجابي قاضي بغداد والمدينة المنورة حالاً

وكان لهُ ذوق في حل مشكلات العلوم والاعتقاد العظيم في طائفة القوم واخذ الطريقة على الشيخ شاكر المذكور ولهُ التآليف الكثيرة التي تبلغ الخمسين وكان عالمًا فقيهًا يضيق كتابنا عن ذكر مآثرهِ الحميدة دفن في مقبرة باب الصغير بالتربة الفوقانية قريبًا من الشيخ العلائي

وقد تعلق خاطرنا بسرد تراجم بعضٍ من علماء جيلنا الحالي وافاضلهِ الذين نشأوا بدمشق على انهُ لسوء الحظ حال مانع وهو عدم حصولنا على اخبار مدققة عنهم فعدلنا عمّا قصدنا ونحن آسفون

هذا وليعلم المطالع بان سلسلة العلماء الاعلام لم تنقطع من دمشق في وقت من الاوقات . وفي كل عصر تجد بها عددًا وافرًا منهم حتى انك ترى العلم متسلسلاً في بعض العيال من مدٍ مديد كعائلة بيت حمزة فانها عائلة علم شريفة ذات نسب شريف وقد ذكر المحبي في تاريخهِ تراجم بعضٍ من اعضائها الذين اشتهروا بالعلم والفضل وهم السيد محمد بن السيد كمال الدين واخوهُ السيد حسين والسيد عبد الرحمن والسيد عبد الكريم والسيد ابرهيم واما في عصرنا فالمشهور من هذه العائلة الشريفة هما الشريف العالم العلامة محمود افندي امين الفتوى واخوهُ الشريف العلامة اسعد افندي من اعضاء مجلس التمييز وهما من اصحاب الدين والمروّة والاحسان وقد فعلا سنة ١٨٦٠ اعمالاً توجب الثناء عليهما

وعائلة بيت العمادي وقد اشتهرت بالفضل وتسلسل فيها العلم وقد ذكر

المحبي بعض تراجم اعلامها . وعائلة بيت النابلسي ومن اشهر رجالها الشيخ عبد الغني النابلسي وقد فحصنا عن ترجمته لنزين بها جيد كتابنا ولسوء الحظ ذهبت اتعابنا سدى . وعائلة بيت الفرفور وعائلة بيت القاري وعائلة بيت المحبي وعائلة بيت العمري وعائلة بيت الكزبري وغير ذلك مما يطول شرحهُ

اما مشاهير علماء دمشق في وقتنا فكثيرون . منهم الشيخ مسلم الكزبري والعالمان محمود افندي واسعد افندي حمزة المار ذكرها والعالم العلامة الشيخ سليم العطّار والشيخ عبد الغني الميداني وجابي افندي والشيخ سليم سمارة والشيخ الخاني والشيخ محمد الطنطاوي وبنو المنير وغيرهم مما يطول شرحهُ وكلهم علماء اعلام اصحاب فضل عميم يحق لدمشق ان تفاخر بهم

فصل

في القديسين ومشاهير العلماء المسيحيين الذين نشأوا في دمشق

القديس حنانيا الرسول . لا يعلم بالتاكيد هل ولد هذا القديس في مدينة دمشق ام لا ولكن المرجح بانهُ من ابنائها وكان واحدًا من السبعين تلميذًا وسكن دمشق في بادئ الديانة المسيحية وبشر بها وهو الذي شفى شاول الذي صار بولس الرسول على ما جاء في الفصل التاسع من سفر اعمال الرسل

وبعد ان بشر حنانيا بالانجيل في دمشق مدة مضى الى الاوطرابولي ثم الى اماكن اخرى منذرًا ومبشرًا وقد احتمل اشد الاضطهادات والعذابات كغيره من الرسل واخيرًا قبض عليهِ في عهد ليكينوس الوالي الروماني وبعد ان جلد شديدًا باعصاب البقر ومزق لحمهُ بعذابات شديدة مات رجمًا بالحجارة

القديس يوحنا الدمشقي . ولد هذا القديس في دمشق سنة ٦٧٦ م من عائلة شريفة من ابوين غنيين وكان ابوهُ من اكابر رجال الدولة الاموية في دمشق وقد اعتنى بتربيتهِ وفقههُ في العلوم والمعارف على القديس قزما الشيخ (سياتي ذكرهُ) فنبغ يوحنا في العلوم وصار نبراسًا للاداب في زمانه والمانوفي ابوهُ

خالفهُ في وظيفتهِ عند سلطان دمشق وحصل على الوجاهة والاعتبار. ثم اعرض عن العالم وذهب الى دير مار سابا في فلسطين ودخل في الطريقة الرهبانية ولما اتم موجباتها اخذ يشتغل في التاليف والتصنيف فالف كتبًا كثيرة في اللاهوت وغيرهِ وقد فاقت تاليفاتهُ اللاهوتية ما سواها وكان يلقب بجرى الذهب (اسم نهر بردى سابقًا) لفصاحتهِ وحسن كلامهِ. ثم رُسم كاهنًا. وسنة ٧٨٠ توفاهُ الله ولهُ من العمر ١٠٤ سنين اما بيتهُ عند ما كان في دمشق فمعروف الآن وموقعهُ عن يسار حمام البكري قرب باب توما وقد امتلكتهُ اليسوعية مؤخرًا

القديس قزما المنشي . اختلف المؤرخون في مكان ولادة هذا القديس والسنة التي ولد فيها ولكنهم اجمعوا على انهُ كان عالمًا متضلعًا بارعًا في علوم كثيرة وخصوصًا في فني الفصاحة والبديع واشتهر في الانشاء والكتابات الدينية وقد لبس الاسكيم الرهباني والف النسك في براري فلسطين ثم وقع اسيرًا في يد جند من المسلمين فساقوهُ الى دمشق وباعوهُ بها اسيرًا فاشتراهُ والد القديس يوحنا الدمشقي وعتقهُ من العبودية واقامهُ راسًا على بيتهِ واذ راى ما عندهُ من غزارة العلم والتقوى وكَّل اليهِ امر تعليم ابنهِ يوحنا المذكور آنفًا وولد آخر كان يتيمًا في بيتهِ يعتبرهُ كابنهِ واسمهُ قزما فظلَّ الى حين وفاتهِ

القديس قزما الباراسقف مايوما . ولد في اورشليم سنة ٦٧٩ وتيتم صغيرًا فسافر الى دمشق فقبلهُ والد القديس يوحنا الدمشقي ورباهُ كابنهِ ثم ترهب بدير مار سابا وسيم اسقفًا لمايوما ولهُ بعض مؤلفات دينية عاش طويلاً ومات جليلاً

القديس صفرونيوس . بطريرك اورشليم ولد في دمشق سنة ٥٥٨ م ومنذ حداثتهِ مال الى الفضائل والآداب واخذ العلوم عن علماء دمشق فبرع جدًّا واذ كان عظيم التدين ذهب الى فيافي فلسطين لزيارة نساكها فصبا لمعرفة طريقتهم دون ان ينذر على ذاتهِ نذرهم واتخذ لهُ مرشدًا منهم اسمهُ يوحنا موسكوس ولبث عندهُ مدَّة ثم سارا معًا لزيارة رهبان القطر المصري واخذا يفحصان عن احوالهم التي اذهلتهما جدًّا وصنفا كتابًا بما نظراهُ سمياهُ ببستان الرهبان ثم ذهبا

الى الاسكندرية فقبلها بطريركها القديس يوحنا الرحوم بكل اكرام واحترام لما فيهما من الديانة والفضيلة واخذا يشتغلان عنده بالانذارات الروحية ولما هاجم الفرس القطر المصري وعاثوا به فرّا الى رومية خيفةً على حياتهما وتقرّبا من البابا بونيفاسيوس ولبثا عنده سنتين فتوفي احدهما يوحنا فنقل القديس صفرونيوس جثته الى فلسطين ودفنها في دير القديس ثاوضوسيوس وسكن صفرونيوس هناك بعيشة رهبانية واذ كانت شيعة المونوناليتيين الذين يعتقدون بارادة واحدة بالسيد يسوع المسيح قد اخذت تنتشر في بلاد فلسطين اخذ القديس صفرونيوس يقاومها بكل مقدرته وسنة ٦٣٣ م سيم بطريركًا للكرسي الاورشليمي ولازم مقاومة تلك الشيعة وجمع مجمعًا من اساقفة ابرشيته وقرّر به شجب تلك الشيعة ثم الف كتابين جمع بهما اقوال الكتب المقدسة وتعاليم اباء الكنيسة الموضحة وجود ارادتين ومشيئتين وفعلين في السيد المسيح. وسنة ٦٣٦ حمل العرب على اورشليم بعد ان فتحوا دمشق فسلمها البطريرك صفرونيوس للامام عمر بشرط ان تبقى للمسيحيين حريتهم الدينية وكنائسهم وفي ١١ من شهر اذار توفي في اورشليم وعمره نحو ٨٠ سنة تقريبًا وقد عينت له الكنيسة اليوم الحادي عشر من اذار كل سنة تذكارًا

٦ القديس اندراوس الاقريطشي . ولد في دمشق من ابوين صالحين واختلف في سنة مولده وما عليه الاكثرون هو انهُ ولد قبل سنة ٦٣٥ م وقد اعتنى به والداهُ وربياهُ بحسب مبادئ الديانة المسيحية واجتهدا في تعليمه وتدريسه العلوم والآداب فنجح غاية النجاح ولما علم به البطريرك ثاوداوس الاورشليمي اختارهُ لخدمة كنيسته ولما انعقد المجمع المسكوني السادس القسطنطيني الثالث سنة ٦٨٠ م للاشاة ارتقة المونوناليتية . بعث البطريرك ثاوداوس بالقديس اندراوس نائبًا عنهُ لما كان عنده من غزارة المعارف والفضائل حال كونه كان برتبة شماس رسائلي فقط وبعد نهاية المجمع رُسم القديس اندراوس شماسًا انجيليًا وسلمت لعنايته نظارة المكان المختص بتربية الايتام وبعد مدة انتُخب رئيس اساقفة

لجزيرة اقريطش ولما استولى على كرسيها الروحي ازدادت شهرة لحسن سياستهِ وفصاحتهِ واعتنائهِ وقد الف عدة مؤلفات في مواضيع مختلفة منها القانون الكبير الذي يتلى في الكنيسة نهار الخميس من الجمعة الخامسة من الصوم الكبير وقبل موتهِ بمدَّة من الزمان ترك ابرشيتهُ وانفرد عن العالم في جزيرة ايبريسيوس وهناك حرَّر اخص مؤلفاتهِ الكثيرة وبعد ان بلغ سن الشيخوخة مات في تلك الجزيرة والكنيسة تعمل تذكارهُ في اليوم الرابع من شهر تموز كل سنة

فصل

مشاهير علماء المسيحيين في جيلنا الحاضر

السعيد الذكر البطريرك مكسيموس مظلوم . ولد السيد مكسيموس مظلوم بمدينة حلب في شهر تشرين الثاني سنة ١٧٧٩ م وكان والدهُ غير مثرٍ يدير بضعة انوال نسج الالاجة على انهُ كان من اصحاب التقوى والاستقامة ولما ولد لهُ مكسيموس سماهُ ميخائيل واخذ يجتهد في تربيتهِ

ثم حاول جماعة الاكليروس الحلبي اقناعهُ بالانتظام في طغمة الاكليروس لما راوا فيهِ من التدين والذكاء واخبروا مطرانهم جرمانوس آدم الذي كان مقيمًا في لبنان فاستدعاهُ وقرَّبهُ اليهِ وسامهُ شماسًا ودرسهُ اللاهوت الادبي وجعلهُ كاتمًا لاسرارهِ ثم رسمهُ خوريًا على كنيسة حلب . وما زال يفلح في كل مساعيهِ حتى سيم مطرانًا في دير المخلص وسمي مكسيموس وذلك سنة ١٨١٠ م

وسنة ١٨١١ انشأ البطريرك اغابيوس مدرسة لطائفتهِ في قرية عين تراز من قرى جبل لبنان وسلم رياستها لعهدة المطران مكسيموس وسنة ١٨١٢ اجمع اكليروس الكرسي على ارسال المطران مكسيموس لرومية لقضاء بعض المهام فسافر من مدينة بيروت الى مالطة ثم الى ترياسته واقام بها بضعة اشهر ثم سافر الى البندقية وفي تشرين اول سنة ١٨١٤ رحل الى رومية وقابل الاب الاقدس البابا بيوس السابع وسنة ١٨١٥ تنزَّل عن ابرشية حلب فسامهُ البابا رئيس اساقفة ميراليكية واخذ يدرس في رومية اليونانية واللاتينية والايطالية ويقوم

باشغاله بجد واعتناء وفي حزيران سنة ١٨١٧ م سافر من رومية قاصدًا ترياستة فمر بتوسكانا ونزل بمدينة ليكورنا الى شهر ايلول ومنها سار فاجتاز بولونيا والبندقية الى ترياسته وبينما كان نيافته مقيمًا بترياسته اتصل به خبر ما وقع من التعدي على طائفته بحلب فاعرض الامر للاب الاقدس ولمجمع انتشار الايمان المقدس برومية فارسل اليه الحبر الاعظم منشورًا رسوليًا باسم جلالة فرنسيس الاوّل ملك اوستريا ليتوسط امر الروم الكاثوليك لدى الباب العالي فحمل المنشور وتحريرًا برسم وزارة خارجية النمسا وسار بهما الى ڤينا فمثل لدى جلالة الملك ووزير خارجيته ونال منهما الرعاية والاكرام وبعد ان استقام اربعة اشهر في ڤينا ودّع جلالة الملك ورجال بلاطه ورجع الى ترياسته وسنة ١٨٢٠ سافر الى البندقية ومنها الى بادوا وميلان ثم اتى جنوا ومرسيليا وبنى فيها كنيسة لطائفته كرّسها على اسم القديس نيقولاوس وانشأ بجانبها دارًا للخوارنة (وهي اوّل كنيسة بناها) وسنة ١٨٢٣ في شهر حزيران رحل من مرسيليا الى رومية والف فيها كتابة الكنز الثمين في اخبار القديسين في خمسة مجلدات من القطع الكامل وعرب عدة تآليف للقديس الفونسيوس ليكوري وطبع على مصروفه في رومية كتاب امجاد مريم وكتاب الاستعداد للموت وكتاب الواسطة العظيمة وكتاب الرياضة اليومية وكتاب زيارة القربان المقدس وارسلها الى بلاد المشرق فوزعت مجانًا والف كتاب قواعد الصرف والنحو في اللغة العربية هذا عدا عن تاليفات واستخراجات غيرها بقيت محفوظة خطًّا ودرس مدة وجوده فيها اللغة الفرنساوية فبرع بها

وبعد ان اقام في اوربا ١٨ سنة دعاهُ البابا غريغوريوس ان يرجع الى سوريا ويجدد مدرسة عين تراز المقدّم ذكرها فامتثل ورجع فدخل بيروت في شهر تشرين الثاني وصعد الى مدرسة عين تراز واخذ في ترميمها وانشأ فيها مكتبة احضرها معهُ تحتوي على نحو الفي مجلد ونيف من نفائس الكتب وبلغ ما انفقهُ على المدرسة والمكتبة نحو عشرة آلاف ريال عمود

وفي شهر اذار سنة ١٨٣٣م توفي البطريرك اغناطيوس قطان فانعقد مجمع في دير القديس جاورجيوس الغرب لانتخاب خليفة له وفي ٢٤ اذار اصابت القرعة كير مكسيموس فسمي بطريركًا على طائفة الروم الكاثوليك في الثلث بطريركيات الانطاكية والاسكندرية والاورشليمية اما هو فكان يمضي البطريرك الانطاكي وسائر المشرق وقد صادق على انتخابهِ البابا غريغوريوس السادس عشر. وسنة ١٨٣٨ حصل على براءة من السلطان محمود تعرب عن معرفتهِ من الدولة العلية متروبوليت انطاكية والاسكندرية والقدس الشريف وقد اعرض الامر على الحبر الاعظم فمنحهُ بموجب مرسوم رسولي ان يمضي اسمهُ البطريرك الانطاكي والاسكندري والاورشليمي وسائر المشرق

وفي ٢٥ ايلول سنة ١٨٤٠ سافر الى رومية وزار الحبر الاعظم ثم رحل منها الى مرسيليا ودخلها في اول كانون الثاني سنة ١٨٤١ وفي اذار سافر الى باريز فحصل على كرامة واعتبار ملكها وعائلتهِ ورجال بلاطهِ ولبث مدة وعرب تاريخ الحروب الصليبية في مجلدين . ثم رجع الى مرسيليا ومنها سافر الى القسطنطينية عن طريق مالطة واستقام بها ست سنين ونصف يحامي عن حقوق طائفتهِ ويناضل عنها اما اثمار اعمالهِ في هذه المدة فهي اولًا تحرير طائفتهِ تحريرًا مطلقًا بحيث عرفت رسميًّا كطائفة قائمة بذاتها دون ادنى تعلق بغيرها . ثانيًا نوالهُ من السلطان عبد المجيد خان براءة لا يوجد نظيرها في القيود السلطانية تعرب عن معرفتهِ بطريركًا قديمًا لطائفة الروم الكاثوليك الملكيين على انطاكية والاسكندرية واورشليم وسائر الممالك المحروسة . ثالثًا انعم عليهِ بالنيشان المرصع الكبير نظير البطاركة القسطنطينيين وبعد ذلك رحل الى سورية

وكان وصولهُ الى بيروت سنة ١٨٤٨ م. وفي اذار رحل منها برًّا الى القدس الشريف فعيد الفصح بها واستمر مناظرًا بناء الدار والكنيسة التي ضمنها الى شهر تشرين الثاني . ثم سافر الى دمشق مركز ابرشيتهِ العام . وفي اذار سنة ١٨٤٩ رحل الى اورشليم وعقد مجمعًا من عموم مطارنتهِ قرر بهِ بعض امور لخير طائفتهِ .

ثم رجع الى بيروت وسافر الى الاسكندرية ومنها الى حلب . ثم سافر الى انطاكية والاسكندرية وبيروت ورجع الى دمشق وكان يطوف القرى وقد رسم اثني عشر مطرانًا لابرشيات كرسيهِ منهم نيافة المطران غريغوريوس عطا مطران حمص وحما وتوابعها حالاً

وكان مع كل اسفارهِ وتاليفاتهِ الكثيرة وترجماتهِ الوافرة والرسائل الفائقة الحصر التي حرَّرها لا يفتر عن الوعظ والتبشير والاشتغال في امور طائفتهِ داخلاً وخارجًا حتى انهضها من الانحطاط وجعلها في مقدمة الطوائف المسيحية. وشيد لها ٣ كنيسة وفي مدة وجودهِ بدمشق كانت المناقشات والمجادلات الدينية باتصال بينهُ وبين العلاَّمة الدكتور ميخائيل مشاقة وقد طال امرها واخذت اهمية كبيرة

وبعد ذلك رحل الى القطر المصري واشتغل بما فيهِ النفع لرعيتهِ وفي ٢٤ آب غربي سنة ١٨٥٥ توفاهُ الله في مدينة الاسكندرية فنقل جسدهُ الى مصر ودفن في كنيستها التي بناها باحتفال عظيم وقيل انهُ لم يترك شيئًا من المال الاَّ ما قل جدًّا لانهُ انفق كل شيءٍ في تشييد الكنائس ونفع طائفتهِ

وقد انشأ بمدة بطريركيتهِ طغمة اكليروس خاص علماني حافظ على البتولية التامة بدون نذورات

الشماس انطون الخليع . ولد في دمشق في اواخر القرن الثامن عشر ودخل طغمة الاكليرس الكاثوليكي ودرس وتفقه في العلوم العربية والفارسية وسافر الى مصر واقام بها مدة وعرب كتاب الجالستان الشهير ثم رجع الى دمشق وتمذهب بمذهب الروم الارثوذكس بترك وظيفتهُ الاكليروسية وتزوج بامراة من طائفة الروم وتوفي نحو سنة ١٨٥١

الارشمندريتي غبريل جبارة الواعظ المشهور . ولد في دمشق من ابوين كاثوليكيين ودخل الطغمة الاكليريكية وبعد ان لبث مدة كاثوليكيًا اعتنق المذهب الارثوذكسي ورقي الى درجة ارشمندريتي وفي نحو سنة ١٨٦٠ شيد

كنيسة في بيروت سماها كنيسة السيدة وصار ماموراً بطريركياً وقد لازم وظيفة الوعظ والانذار وله كتابات كثيرة في مواضيع مختلفة وكان فصيحاً متكلماً جسوراً وفي شهر نيسان من هذه السنة اعني سنة ١٨٧٨ ذهب بطلب من جلالة الكراندوق نيقولا الروسي فادركته المنية وهو في مدينة ازمير ودُفن بها باحتفال عظيم

٤ الخوري يوسف الحداد . ولد في نحو سنة ١٧٨٠ وكان تقياً فاضلاً يحب العلوم اخذ العربية عن كثيرين من مشايخ المسلمين ودرس اللغة اليونانية والعبرانية وبرع بهما وامتاز بعلم المنطق واشتغل بالتدريس في المدرسة البطريركية بدمشق فافاد الجم الغفير وحصل على اعظم شهرة حتى توارد عليهِ الطلبة من كل جانب وقد كان رحمهُ الله واعظاً مفلقاً لازم الوعظ على منبر الكنيسة المريمية سنين عديدة وكان لا يفتر عن الترجمة والمطالعة والتاليف حتى قيل بانهُ لم يمضِ عليهِ يوم بدون ان يترجم بهِ او يكتب شيئاً مفيداً واشتهر بعلم اللاهوت وقد تزوج ورزق عدة اولاد ذكور واناث وقتل في حادثة سنة ١٨٦٠ وتلاشت مؤلفاتهُ حرقاً في تلك الحادثة ولم يبقَ منها الاَّ ما ندر جداً

(العالم العلامة والفرد الفهامة الدكتور ميخائيل مشاقة)

هو ميخائيل بن جرجس بن ابرهيم بن جرجس بن يوسف بتراكي الذي لقب بمشاقة لاحترافهِ تجارة مشاقة الحرير ولد في ٢٠ اذار سنة ١٨٠٠ م موافق ٢٣ شوال سنة ١٢١٤ هـ بقرية رشميا من اعمال جبل لبنان من عائلة شريفة كاثوليكية وكان ابوهُ في خدمة الامير بشير الشهابي الكبير ومن المقربين اليهِ وبعد ان ولد لهُ ميخائيل بمدة قصيرة نقل بيتهُ الى دير القمر واتخذها وطناً لهُ وكان ميخائيل نبيهاً ذكياً فتعلم مبادئ القراءة في وقت قصير وقد كان يميل الى الحساب فتلقن عن ابيهِ القواعد الاربع وزاد على ذلك مسك الدفاتر

وكان يسمع من يهود دير القمر عن الكسوف والخسوف قبل حدوثهما فمال للتوصل الى معرفة ذلك فعزت عليهِ الواسطة على انهُ لم يضعف املهُ وكان

يظن بان علم الفلك من العلوم التي تنبئ عن الحوادث الارضية قبل حدوثها

وسنة ١٨١٤ حضر بطرس عنحوري خال العلامة ميخائيل مشاقة من دمياط الى دير القمر وكان عالمًا في العلوم الفلكية والطبيعية والرياضية فطلب اليهِ ان يدرسهُ علم الفلك فاجابهُ واخذ يدرسهُ الهيئة والرياضيات فحصل جانبًا من هذه العلوم بوقت قصير

وسنة ١٨١٧ ذهب الى دمياط وصار كاتبًا في محل عمهِ في تلك المدينة وما لبث الأَّ امتد لاشغال تجارية خصوصية فنجح بها وصار له ثروة صغيرة وسنة ١٨١٨ قرأَ كتاب سياحة المعلم فولنه المترجم الى العربية فتبلبلت افكارهُ من من جهة الدين جدًّا على انهُ استمر محافظاً على ما استلمهُ من اهلهِ وفي هذه السنة حضر عرسًا بدمياط وكانت الموسيقى تصدح فسالهُ احد الحاضرين عن لحن وقبل ان يجيب بانهُ يجهل فن الموسيقى تعرض رجل عكاوي من الحاضرين وقال للسائل (هذا جبلي لساه بعبله لا يفهمشي) فتاثر من هذا الكلام وذهب في اليوم التالي الى احسن الموسيقيين واخذ يدرس هذا الفن عليهِ وفي مدَّة شهرين عرف اصولهُ وصار يضرب على اكثر الآلات حتى انهُ صار من علماء الموسيقى والف فيها رسالة لم ينسج على منوالها. وسنة ١٨٢٠ ترك دمياط لسبب الطاعون ورجع الى دير القمر وكان يطالع الجبر والمقابلة لذاتهِ

وبعد بضع سنين اقامهُ الامير بشير مدبرًا عند امراء حاصبيا فاكرموا مثواهُ وانزلوهُ بمنزلة عظيمة واعطوهُ اراضي متسعة في الحولة عند نهر اللدان واعطوهُ قرية في قضاء القنيطرة

وسنة ١٨٢٨ اصابهُ مرض بحاصبيا فذهب الى دير القمر للمداواة وبعد خمسة اشهر شفي فجد في طلب صناعة الطب واخذ يطالع كتبها لذاتهِ بجدّ واجتهاد حتى عرف اكثرها على انهُ أُعجم عليهِ بعض اصطلاحاتها فتلقنها عن خالهِ بطرس عنحوري الذي كان وقتئذٍ قد رجع الى دير القمر لتبديل الهواء وكان في دير القمر ايضًا رجل اسمهُ كرليني ايطالي الجنس كان بارعًا في هذه الصناعة

وقد اتخذهُ امراء حاصبيا بساعيهِ طبيبًا لهم فاستعان بهِ في درس هذه الصناعة

وسنة ١٨٣١ م حضر حصار عكا مع عساكر الامير بشير ثم رافق العساكر المصرية الى دمشق وسار معها الى حمص وبعد ان لبث بها شهرًا ونصف وطبب المصابين بالريح الاصفر رجع الى دير القمر وكانت حروب ابرهيم باشا في سوريا على قدم وساق فلحق بالعلاَّمة ميخائيل مشاقة اضرار كثيرة مالية حتى التزم ان يطبب بالاجرة بعد ان كان يطبب مجانًا . ورحل الى دمشق واقام بها فراجع صناعة الطب على كلوت بك ثم نصبتهُ الحكومة رئيسًا لاطباء دمشق . وقرأ الايساغوجي على العلامة الخوري يوسف الحداد وشرحهُ على العلامة الشريف محمود افندي حمزة مفتي دمشق حالاً وبعد رحيل ابرهيم باشا المصري من سوريا اتى السنيور وود قنصلاً لدولة انكلترا في دمشق مفوضًا بنظارة الحكومة بسوريا فاتخذ العلامة ميخائيل مشاقة ترجمانًا لهُ

وسنة ١٨٤٥ م توجه الى مصر ولازم كلوت بك وواظب على الحضور الى مدرسة قصر العيني لمشاهدة العمليات الجراحية والتشريحية . واخذ دبلوما ونال لقب دكتور. وبعد ان اقام في القطر المصري ثمانية اشهر رجع الى دمشق . وعند ما وصل اليها تحركت في افكارهِ حركة دينية فكان تارةً يظن بان ما ذهب اليهِ فولتير الكافر وزعماؤهُ صحيحًا وطورًا يتردد عن ذلك ويقول ان كثيرين من فحول العلماء اقرُّوا بصحة الديانة المسيحية وناضلوا عنها واخيرًا وقف على كتاب البينة الجلية على صحة الديانة المسيحية فطالعهُ بامعان فاقنعتهُ ادلتهُ وقادتهُ للاعتقاد بصحة الدين المسيحي فاخذ يراجع الكتب المقدسة مع كتب جدلية بين البروتستانت والكاثوليك وكانت بينهُ وبين البطريرك مكسيموس مظلوم مجادلات دينية كثيرة وكل ذلك مبين في كتاب الدكتور مشاقة المعنون بالدليل الى طاعة الانجيل وفي رسالة اخرى لهُ اسمها تبرئة المتهوم

وسنة ١٨٤٨ ترك الكنيسة الكاثوليكية واتبع الكنيسة الانجيلية فصار من اكابر علمائها والمناضلين عنها وقد حامى عن تعاليمها بتآليفهِ الكثيرة

وسنة ١٨٥٩ تعين العلاَّمة ميخائيل مشاقه فيس قنصل للولايات المتحدة الاميركانية في دمشق وفي حادثة سنة ١٨٦٠ اثخنهُ الثائرون بالجراح (وتفصيل ذلك في كتابهِ المسمَّى بالجواب على اقتراح الاحباب) واخيرًا وصل بمساعدة الامير عبد القادر الجزائري الى بيت السيد محمد السوطري وظلَّ بهِ امينًا يطبب جراحهُ الى ما بعد الحادثة بعشرين يومًا. وسنة ١٨٧٠ اصابهُ فالج بجانبهِ الايمن فانقطع عن اشغال وظيفتهِ وتنازل عنها فوجهت لولدهِ النجيب نصيف بك

وقد رزقهُ الله ابنة واربعة بنين افاضل وهم نصيف بك وسليم افندي والدكتور ابرهيم والدكتور اسكندر

وللعلاَّمة ميخائيل مشاقة شهرة فائقة عند اهالي الشرق والغرب ولهُ اعظم اعتبار في اعين الجميع ولا ينقطع القوم من كل الاجناس والمذاهب عن زيارتهِ وهو طويل القامة كبير الجسم ذو ذكاء ولطف ودعة وسلامة واتضاع يترحب بكل زائريهِ ويوانسهم ويكلم كل واحدٍ بحسب طباعهِ ومشربهِ وحرفتهِ وما اعتاد عليهِ ولهُ خبرة عظيمة في اهالي البلاد ومعرفة في ترجمات اكثر العيال. ولا يزورهُ زائر من اي رتبةٍ كان الاَّ ويصادف منهُ ما يسرُّهُ فيخرج حامدًا شاكرًا اما علومهُ فكثيرة منها الحساب والجبر والهندسة والانساب والمساحة والهيئة والكيمياء والطب والجراحة والفلسفة والمنطق واللاهوت والتاريخ وغير ذلك

اما تآليفهُ فاربعة عشر مؤلَّفًا والمطبوع منها كتاب الدليل الى طاعة الانجيل واجوبة الانجيليين ضد اباطيل التقليديين وجواب لصديق من طائفة الروم بحمص لاقناعهِ بصحة المذهب الانجيلي سنة ١٨٥٢ وكشف النقاب عن وجه المسيح الكذاب والبراهين الانجيلية ضد الاباطيل البابا وية وتبرئة المتهوم ورد على منشور البابا بيوس التاسع . والبرهان على ضعف الانسان جوابًا لصديق له تابع تعاليم فولتير . والتي لم تطبع هي . رسالة في ترجمة البطريرك مكسيموس مظلوم ورد على ابن الحموية لاجل طعنهِ في المذهب الانجيلي والرسالة الشهابية في الالحان الموسيقية العربية والتحفة المشاقية مطوَّل في علم الحساب والمعين على

حساب الايام والاشهر والسنين مذيل بجداول لمدة مئة سنة تحتوي مطابقة
ايام الشهور الغربية والرومية والقبطية والعبرانية والاسلامية ومواقع كسوفات
الشمس والقمر لطول دمشق وعرضها من الدرجات بداية سنة ١٨٧٠ وترجمة
عائلة مشاقة وهو كتاب جميل جدًّا يحتوي على ترجمة العائلة المشار اليها وعلى
حوادث سوريا منذ ايام الجزار الى سنة ١٨٧٣ واسمهُ الجواب على اقتراح الاحباب
ولهُ رسائل وكتابات في مواضيع مختلفة غير هذه اعرضنا عن ذكرها

١ ترجمة السلطان نور الدين الشهيد

السلطان نور الدين الشهيد بن زنكي الملك العادل العالم الحنفي ولد سنة
احد عشر وخمس مئة وغزا وفتح حصونًا كثيرة واظهر العدل وقصد دمشق
مرتين وفي الثالثة ملكها وحصن سورها وبنى بها المدارس والمشاهد ونشر العلم
ووقف بها اوقافًا كثيرة قال في الاشارات وهو اوّل من بنى دار الحديث على
وجه الارض ووقف كتبًا كثيرة . اه . وقد جمع مع الشجاعة كثرة العبادة . وكان
عالمًا فقيهًا متواضعًا يحب اهل العلم والدين ويبرهم ويجلهم ومنع شرب الخمر
وبيعها في جميع بلادهِ قضى ليلهُ ونهارهُ في عدل ينشرهُ وجهاد يجهزهُ ومظلمة
يزيلها واحسانًا يوليهِ ولم يلبس قط ما حرمهُ الشرع واذا اراد ان يصرف من
بيت المال احضر القضاة والفقهاء واستفتاهم في اخذ ما يحل لهُ فاخذ ما افتوهُ
بحلهِ وترك ما عداهُ ومن جملة عدلهِ انهُ ازال المكس وكان يسمع شكوى المظلوم
ويتولى كشف الظلم بنفسهِ وكان لا يحيد عن ميزان الشرع وبنى المدارس والجوامع
والمارستانات ومن اعظمها مارستان دمشق ووقف غلال القرية المعروفة بداريا
الكبرى للفقراء والايتام والمساكين . وتوفي في دمشق سنة ٥٦٩ ودفن بقلعتها ثم
نُقِل الى تربتهِ داخل المدرسة التي بناها للحنفية وهي المعروفة الى يومنا

٢ السلطان صلاح الدين الايوبي

هو السلطان الملك الناصر صلاح الدين ابو المظفر يوسف بن نجم الدين

ايوب ولد في تكريت سنة ٥٣٢ ﻫ وقدم به ابوهُ الى دمشق وهو رضيع فنشأَ في حجره. ثم اتصل ابوهُ بخدمة نور الدين حتى استعمل على بعلبك ولما شب صلاح الدين يوسف ارسلهُ نور الدين مع امراء جيشهِ للحرب في مصر فاظهر من الشجاعة والاقدام ما رفع مقامهُ في اعين الناس ورجع الى دمشق واستقرَّ بها مدة ثم غزا الصليبيون مصر وكانت بيد الفاطميين وكادوا يستولون عليها فكتب العاضد الفاطمي الى نور الدين يستنجدهُ (وفي رواية ان الفاطميين تمردوا وعاثوا فافتى العلماء بقتلهم فارسل نور الدين وابادهم) فلباهُ وارسل الجنود النوريين الى مصر تحت قيادة شيركوه عم صلاح الدين وطلب من صلاح الدين المسير مع تلك الحملة فابى في بادي الامر وحاول عدم المسير وبعد الالحاح عليهِ سار كرهًا ولما بلغت هذه الحملة مصر تشتت الافرنج وبعد حدوث حوادث كثيرة تمكن صلاح الدين من انكال الفاطميين وقطع خطبتهم وصار نائبًا لنور الدين في مصر وكان يتظاهر بالطاعة لهُ على ان باطنهُ ان يستقل بحكومة مصر ولما مات نور الدين اظهر صلاح الدين استقلالهُ بمصر وكان لهُ بها عدة سنين كما قدمنا وفتح الفتوحات العظيمة وضايق الصليبيين وقصر شوكتهم وصرف ايامهُ في الحروب والمغازي كما ذكرنا وفي ١٦ صفر سنة ٥٨٨ كان في دمشق فصابتهُ حمى فمات بها في ٢٧ منهُ وعمرهُ نحو ٥٧ سنة ولكرمهِ لم يكن عندهُ شيء لما مات فجهزهُ القاضي الفضل وكانت مدة ملكهِ للديار المصرية نحو ٢٤ سنة وللشامية ١٩ سنة وخلف سبعة عشر ابنًا وابنة وكل ما خلفهُ من المال ٤٧ درهمًا وجرام واحد صوري واذ كانت هذه تركة رجل يملك الديار المصرية والشام وبلاد الشرق واليمن فليست الاَّ برهانًا على كرمهِ المفرط ولم يخلف دارًا ولا عقارًا وقد فرق عند محاصرة عكا اثني عشر الف مطيَّة خلا ما عوَّضهُ على من اصيبت خيلهم ولم يكن لهُ فرس يركبهُ الاَّ وهو موهوب او موعود بهِ وكان دينًا لا يؤَخر صلوة عن وقتها ولا يفضل يومًا على يوم وكان محبًا للحديث وقرأَ مختصرًا في الفقه وكان حسن الخلق صبورًا على ما يكره كثير التغافل عن ذنوب اصحابهِ طاهر المجلس واللسان

قال العماد الكاتب مات بموت السلطان الرجال وفات بوفاته الافاضل وغاضت الايادي وفاضت الاعادي وانقطعت الارزاق وادلهمت الآفاق وفجع الزمان بواحده وسلطانه ورزئ الاسلام بمشيد اركانه . اه . وقد رثاه الشعراء بابلغ المراثي وندبه الناس ندبًا شديدًا ودفنوه بقلعة دمشق وبعد ذلك بنيت له قبة شمالي الكلاسة التي هي بجانب الجامع الاموي من الشمال وفي يوم عاشورا سنة ٥٩٢ نقل ابنه الملك الافضل عظامه اليها باحتفال عظيم وسنة ١٢٩٤ ه في ايام ولاية ضيا باشا على دمشق اجتهد لتجديد قبر السلطان صلاح الدين وجمع لذلك مبلغًا من النقود وبنى الابواب الخارجية على شكل جميل جدًّا

الخاتمة

قد امتُدِحت دمشق من كثيرين نظمًا ونثرًا ويضيق ذرعًا هذا المختصر عن ذكر كل ما قالوهُ فلذا اكتفينا بوضع هذه القصيدة من نظم الشيخ عبد الغني النابلسي المشهور رحمهُ الله قال

ان سامك الخطب المهول فاقلقا … انزل بارض الشام واسكن جلقا
تجد المرام بها وكل مناك بل … وترى بها عزًّا وتفصح منطقا
بلدٌ سمت بين البلاد محاسنًا … ونمت بهاءً واستزادت رونقا
لا ينبغي حث الركاب لغيرها … هام الفؤاد بحسنها فتعلقا
حسبي وآويناها فضلاً لها … قد جاء في القرآن ذاك محققا
هي صفوة الدنيا وشائع فضلها … بالقدس والحرمين اضحى ملحقا
زاد السرور بها لكل معرّج … لاسيما ان كان من اهل التقى
ان تعشقوا وطنًا فذي اولى لكم … دون البلاد بان تحبّ وتعشقا
انس الغريب وسلوة لذوي الهوى … قومٌ تشتت شملهم وتفرقا
خيرُ الاناس اناسها يرعون اذ … واع الوداد ويحفظون الموثقا
لكن برائق صفو كاسات لهم … مزج الغريب شرابهُ ولهم سقى
فتكدرت ما بينهم احوالهم … الاّ الذي ترك السوى فتروقا
هي جنة للطائعين معدة … يتمتعون ولا يرون بها شقا
طابت هواءً للنفوس وماؤُها … عذب زلال سائغ لمن استقى
وبها ترى الولدان والحور التي … وعد الاله بهنّ في دار البقا

جلت محاسنها عن التعداد فلا ... نباتٍ بما يختار منهُ وينتقى
يا حسن واديها وطيب شميمهِ ... قد فاح عرف الزهر فيهِ وعبقا
وتراسلت اطيارهُ بين الربى ... سحرًا فهيجت القلوب الشيقا
لله ايام الجموع بظلهِ ... كادت بايام الصبا ان تلحقا
كيف اتجهت يخرُّ نحوك ماؤهُ ... واليك يركع كل غصنٍ اورقا
يا حبذا اشراق مرجتها التي ... اضحى غني الهم فيها مملقا
عذبت جداولها فطابت موردًا ... تحكي الصوارم صيقلاً وتالقا
وتلاعبت فرسانها وتراكضت ... ما بينها تعلو الجياد السبقا
لم انسَ بالنيروز محفلها الذي ... بسرورهِ قلب الحزين تعلقا
جمع الانام اكابرًا واصاغرًا ... وحوى الملاح مقرطقًا وممنطقا
والربوة الفيحاء يا نسماتها ... مري عليَّ ورفرفي عند اللقا
ايام قطع النهر توصل شملنا ... باجمة الفول الخلاعة مطلقا
بالقاسيون قسَت قلوب احبتي ... ولكم سرى فيهِ الصبا فترفقا
جبل كثير الخير كلمهُ الالهُ فجال في ذاك اللسان وانطقا
كم من وليّ قد توسد سفحهُ ... بل من نبيّ حلَّ فيهِ محققا
وكذلك الشهداء فيهِ تخالهم ... احياء من عدم البلاءِ ورزقا
ومغارة الدم والمحاريب التي ... للاربعين من الرجال ومن رقا
ومغارة الجوع التي قالوا بها ... كم من نبيّ مات جوعًا فالتقى
لله سفح النيربين فكم بهِ ... من روضة غناء طابت رونقا
ضحكت ازاهرها على اغصانها ... فاتى النسيم يميلهنَّ وصفقا
قد دندنت انهارها في جريها ... لما شدا ذاك الحمام وشقشقا
والصالحية يا لها من منزلٍ ... فيها قبور الصالحين اولو التقى.
وبها القصور العاليات تزخرفت ... مثل النجوم زهت بكل من ارتقى
تسمو على اطراف جلق بهجة ... وطلاوة فيها السرور تحققا
سقيت دمشق الشام صوب غمامة ... اشفى على غيطانها فتدفقا
كم نزهة للعين فيها قد زهت ... وسرت على طرف الهموم فاطرقا
الجامع الاموي الا نزهة ... فيها تراهُ بالعبادة مشرقا
قد اتقنت صناعهُ بنيانهُ ... فاتى المزخرف زانهُ وتانقا
ولرأس يحيى فيهِ نور مهابةٍ ... ما بين هاتيك السواري اشرقا
والحائط القبلي زاد جلالة ... بمقام هود من يزرهُ تحققا
وانظر مكان التين فيهِ مبلطًا ... لا زال في الجمعات يجمع صنجقا

وترى دروس العلم فيهِ دائماً في كل فنٍ من تداولهُ رقى
وعلى كراسيهِ رقت وعاظهُ تتلو احاديث النبي المنتقى
من كل من لو ملت مستمعاً لهُ شاهدت حال الناس في دار البقا
يا ليلة النصف الشريفة فاز بال اسعاد من قد كان فيهِ موفقا
هذي قباب النور تشعل في الدجى لا يستطيع لها امرؤٌ ان يرمقا
من كل شمس نيط اوج كمالها بفتل حتى سمت فتعلقا
وثلاث هاتيك المآذن تنجلي مثل العرائس قد لبسنَ اليلمقا
عقدت روادفها بمعقد خصرها فبدا بقنديل الزجاج ممنطقا
من فوقها اهل الاذان ترسلوا بترنم يشجي الفواد الشيقا
من كل من لو رحت تسمع صوتهُ لحسبتهُ فوق الاراك مطوقا
والعشرة الابواب لما ان زهت فتحت على المشتاق باباً مغلقا
صفت بها الحلوى افانيناً فمن وافي غنياً راح عنها مملقا
لم انسَ ليلات الصيام وانسها فيهِ لعمري فهي ليلات اللقا
تتلفت الارام حول قبابهِ فتزيد نورا ساطعاً وتالقا
وتميل اعطاف الملاح خلالهُ غادرت قلبي في الغرام ممزقا
قد اوقدت تلك الخدود من الحيا جمراً اذاب حشا المشوق واحرقا
يا حبذاك الصحن اشرق وانجلى فغدا بهِ ماء النسيم مرقرقا
فيهِ الصحاب رواثحاً وغواديا ما بينهُ وتجمعاً وتفرقا
من حولهِ الاسواق تشرق في الدجا مثل النهار بما بها قد علقا
فيها ترى ما تشتهي وتلذهُ وبيوت قهوات شذاها عبقا
هي شامنا اعلى الالهُ منارها وبها ادام الله عيشاً ريقا
لم ترضَ عيني غيرها من منظر ولذا ترى قلبي بها متعلقا
لله ايام تقضت لي بها ما زلت نحو ظلالها متشوقا
حيي الحيا تلك البقاع فانها ارض تكاد بفضلها ان تنطقا
هي منشإي لا حاجر وطويلع ومحل انسي لا الغوير ولا النقا
وطني واول ما وطئت بها الثرى لازال عيشي عن حماها مطلقا
لذ يا فوادي بما بها من معشرٍ ان سامك الخطب المهول فاقلقا

هنا وقف القلم وانتهى ما رأيت لزوماً لسردهِ فارجو من اصحاب الفضل معاملتي بالرفق لاني مقرٌّ بضعفي وقصوري . وكان الفراغ من تاليفهِ بوم الثلثا ختام سنة ١٨٧٨ وان شاء الله سارد فهُ بكتاب آخر دعوتهُ مرآة سورية وفلسطين

تقاريظ

ولما تم هذا الكتاب تكرم بتقريظهِ بعض من اطلع عليهِ من اهل الفضل والآداب فادرجنا بعض ما جادوا بهِ وهاك ما قالوا حفظهم الله :

قال صاحب الفضيلة العالم العامل السيد الشريف حمزاوي زاده اسعد افندي

يمم ربا جلقٍ والشمهُ من امم ... وولِ وجهك نحو المفرد العلمِ

وسرح الطرف في ازهار روضتهِ ... واذكر ولا تبخسوا للناس من حكمِ

عمت بوابلها الاحياء يعضدهم ... ما كان مندرساً احياء ذكرهمِ

فاق الاوائل اتقاناً وقد جمعت ... فيهِ البلاغة بالايجاز في الكلمِ

نعمان اعني بهِ ارّخت الفهما ... يمم ربا جلّقٍ والشمهُ من اممِ ١٢٩٦

وقال حضرة صاحب الفضيلة العالم العلامة الفاضل الشيخ عبد المجيد افندي الخاني النقشبندي خادم العلم الشريف

اغصن الروضةِ الغنا الرطيبُ ... لهُ في جلق الفيحاء طيبُ

ام السحر الحلال اتيح منهُ ... الى نعمان اسلوب غريبُ

هو المأثور صدق القول عنهُ ... اذا ما شاء يثني او يعيبُ

توشح دائباً بالفضل حتى ... ترشح للعلا وهو الاديبُ

ومن خطب الفضائل وهو كفوٌ ... فلا يسع العلا الا تجيبُ

واغرب حين اعرب عن كتابٍ ... يطيب بهِ التغزل والنسيبُ

كتاب غور معناهُ بعيد ... ولكن نجد مبناهُ قريبُ

يورخ فيهِ ما ذاقت دمشق ... من الايام يكره او يطيبُ

تخطى المنكرات ولم يعوّل ... على الاخبار تخطي او تصيبُ

فجاء مؤلّفاً يهوى اليهِ ... فيبصر فيهِ ما يهوى الاريبُ

حلا تقريظهُ حتى تاتى ... من التاريخ تاريخ عجيبُ ١٢٩٦

وقال العالم العامل الشيخ طاهر افندي المغربي ناظر المدارس الابتدائية

احمد من جعل دمشق روضة تنفح بالطيب ازهارها . وتصدح على غصنها الرطيب اطيارها . بل جنة تجري من تحتها الانهار . كسيت سندسًا خضرا من النبات والاشجار . محاسنها جاذبة للقلوب والابصار وعنوان على الفردوس لدى الصالحية الاخيار . يقول لسان حالها قد راج سوق من سار . وجاء لمشاهدة عروسي . واجتناء ثماري وغروسي . واصلي اشرف صلوة واسلم اذكى تحية . على الانبياء الكرام ذوي المحاسن القمرية . خصوصًا على من هو لهم ختام . ولعقدهم نظام . وبعدُ فقد سرحت بابل الفكر في ميدان هذا الكتاب فوجدته قد نظم من اخبار هذه المدينة التي نزهت كل عماره . دررًا سلكها في اسهل عباره واجرى في قنوات رياضهِ ماء زلالا . فاضحى ببهجتهِ يتلالا

سفرٌ حوى ما قد حوته جلقٌ   من بهجةٍ ونضارةٍ وبهاء
فاجل جواد الطرف فيهِ تلقَ ما   تحلو محاسنهُ لعين الرائي
قد قلت لما ان حلا طبعًا وقد   شاهدتُ نفعًا فيهِ للقراء
هذي شقائق قد زها نعمانها   لما بدت في الروضةِ الغناء

وقال جناب الفاضل ابرهيم افندي سركيس المحترم

ان كنت ترغب في كتاب فوائدٍ   عن جلّق بالحق والتبيانِ
فجميع ذلك ظاهرٌ تفصيلهُ   في الروضةِ الغنّاء للنعمانِ

وقال جناب الاديب الاريب المعلم عبده كحيل الديرعطاني

راح النفوس نفائس الافكارِ   وطلى العقول طوالع الاسرارِ
هيهات ان يحلو لنفس اخي النهى   كاس حلا لكن بدون عصارِ
قصر الجمال على الطبيعة والحجى   لا ما اتى من سلعة العطارِ
فاقم بربوة جلق طربًا وقل   هذا كمال الحسن جل الباري
وادعُ القصي الى مشاهد مجدها   بالروضة الغناء دون تواري

واثنِ على النعمان يا ذا منذرًا ... من لم يفز بكتابهِ المعطارِ
سفر القناع عن المضي بسفرهِ ... وجلا حقائقهُ على الابصارِ
وابان حال الحال دون تشيُّعٍ ... خير المقال بصادق الاخبارِ
هنئت يا ذا الفضل فيما نلت من ... شرف بانشا افضل الاسفارِ
الك في دمشق فضائل خلدتها ... بكتابك الآتي بكل فخارِ
طابت فطاب الك المقال بحقها ... فاسلم ودم واهنا مدى الاعصار

وقال جناب الاديب ابرهيم افندي واكد

هذا كتابٌ نزهةٌ وكجنةٍ ... من كل فاكهةٍ بها زوجانِ
اكرم بها من روضةٍ غنَّاء قد ... غرست بذاك الفاضل النعمانِ

وقال جناب الاديب المعلم متري قندلفت مؤرخًا نهاية تاليف الكتاب

هذا كتاب في حوادث جلقٍ ... اجلاهُ شهمٌ جلَّ فيهِ ثناءي
لما تكامل قال ما تاريخنا ... فلقد بدا الخبء الروضةِ الفيحاء
سنة ١٨٧٨

وقال جناب العالم العلاَّمة الفاضل منير زاده الشيخ محمد صالح افندي خادم العلم الشريف بدمشق الشام مؤرّخًا نهاية طبع الكتاب

هذا كتابٌ مستطابٌ بديعْ ... كانهُ خزانةٌ للبديعْ
اجلتُ فيهِ طرْف الطرفِ اذ ... منهُ توسَّمتُ جميل الصنيعْ
فشمت ما قرَّ بهِ الناظرُ ... ورقَّ للشهم اللبيب السميعْ
لا بدع فهو روضة قد حكت ... بنفحها الذكي زهر الربيعْ
وهو لِمَن الَّفهُ شاهدٌ ... بانهُ البارع بين الجميعْ
وبادَرَ القومُ لتقريظهِ ... وعندهم حلَّ المحلَّ الرفيعْ
فقلتُ لما تمَّ بالطبع ارّخ م ... ان هذا الكتاب بديعْ
سنة ١٢٩٦ هجرية

فهرس الكتاب

قلادون حيثما وردت صوابها قلاوون ومكة المكرمة وجه ٢٧ سطر ٢ صوابها المدينة المنورة